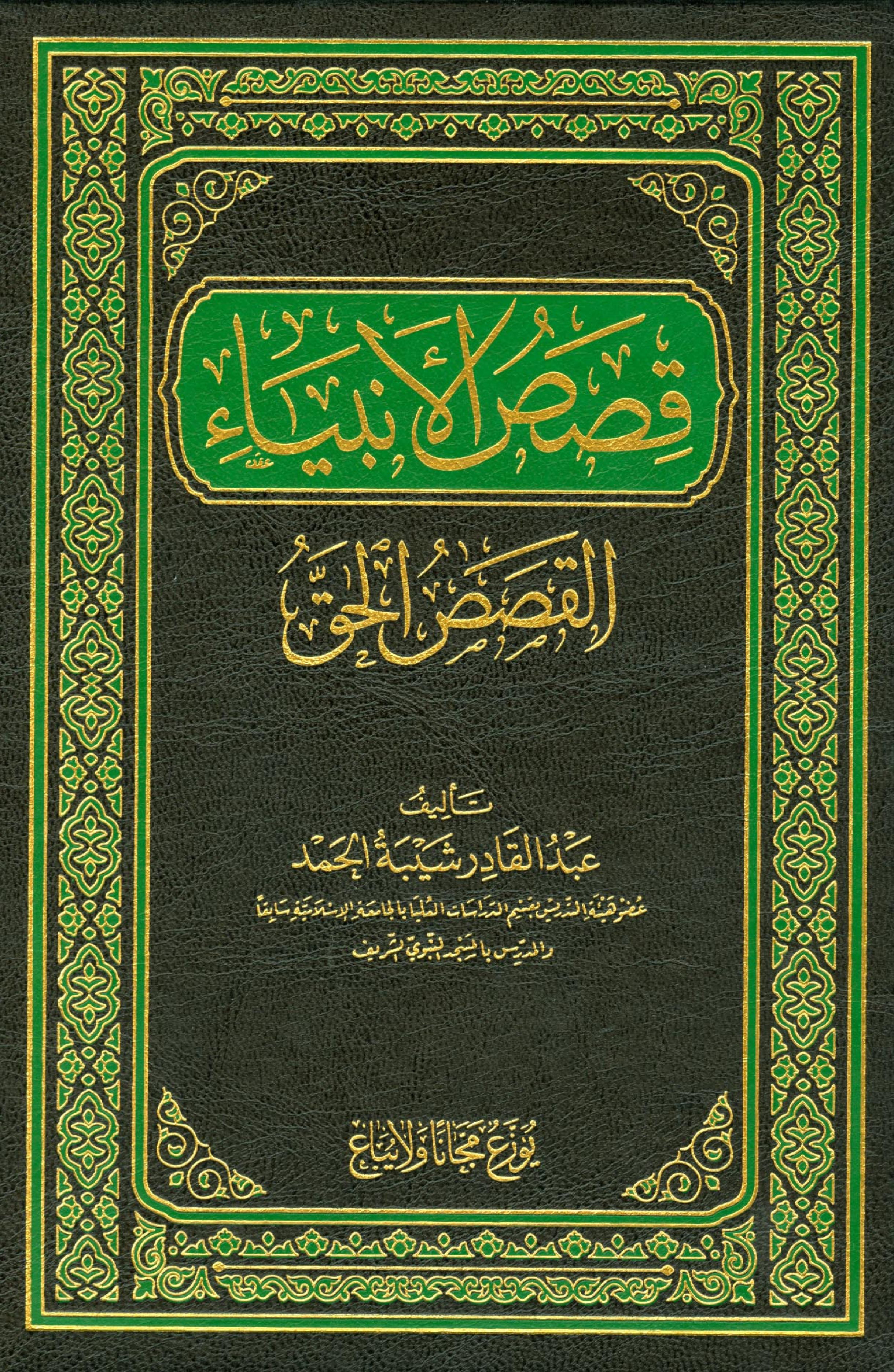

قصص الأنبياء عليهم السلام
القصص الحق
تأليف
عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف
يوزع مجاناً ولا يباع

قِصَصُ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

القَصَصُ الحَقُّ

عَبْدُ القَادِرِ شَيْبَةُ الحَمْد
عُضْوُ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ العُلْيَا
بِالجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالمُدَرِّسُ بِالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيف



يُوزع مجّاناً ولا يباع

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
قصص الأنبياء:القصص الحق/عبد القادر شيبة الحمد-ط ٤.-
الرياض،١٤٣٢هـ
٢٠٠ص؛ ٢٤سم
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١-قصص الأنبياء ٢- قصص القرآن أ.العنوان

ديوي ٢٢٩،٥ ١٤٣٢/٦١٥٧
رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦١٥٧
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الرابعة

١٤٣٤هـ -٢٠١٣م

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على محمد خاتم النبيين، وقائد الغُرِّ المحجلين، ورسول رب العالمين، النبي الأمي الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم وتَرَسَّم خُطاهم ونَهَجَ مناهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتاب قصص الأنبياء «القصص الحق» في طبعته الأولى منفرداً عن القصص الحق في سيرة سيد الخلق محمد ﷺ، وهو بحمد الله صورة مشرقة للقصص الحق، قد جردته بفضل الله وتوفيقه مما أُلحق بقصص الأنبياء من الأباطيل ورديء الأقاويل التي اعتمد مُرَوِّجُوها على الأخبار الكاذبة عن بني إسرائيل، أو الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي لا تحل روايتها إلا ببيان وَصْفِهَا عند المحدثين، حيث إنه مما أطبق عليه علماء السلف من أهل السُّنَّة والجماعة أنه لا يجوز لأحد أن يقول على الله بغير علم، وأن ينسب إلى الله شيئاً بغير الحق، وأنه لا يُوصَف الله ﷻ إلا بما وَصَفَ به نفسه في كتابه الكريم، أو وَصَفَه به رسوله محمد ﷺ شيخ المرسلين، بما ثبت من صحيح الأخبار عنه ﷺ التي خلت من العلة والشذوذ. كما أنه لا يجوز أن يوصف أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلا بما صحت به الأخبار. وقد اعتمد أهل السنة والجماعة في ذلك على الأدلة اليقينية حيث يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ووصفه المنذري في الترغيب والترهيب بأنه بلغ مبلغ التواتر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»، كما روى مسلم من حديث سمرة بن جُندُب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**». كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**».

وقد انفرد أهل السنة والجماعة بأنهم إذا سئلوا عن مسألة تتعلق بالله أو برسوله ﷺ رجعوا في الجواب إلى آية من كتاب الله، أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم من أهل الأهواء الذين لا يستندون في عقائدهم أو حتى فروع فقههم إلا على أقوال مرسلة، لا يكادون يستدلون بآية من كتاب الله أو بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

وعلى هذا؛ فالواجب على كل من ينتمي إلى العلم أن يلتزم بهذا الأصل، فلا يقول على الله إلا بعلم، كما لا يقول على أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إلا بعلم.

وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

حُرر في ٢٥/ ١/ ١٤١٩هـ

المؤلف

عبد القادر شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العُليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فقد عني القرآن العظيم عناية فائقة بقصص الأنبياء، وحدد في أكثر من موضع من الكتاب الكريم أهداف هذا القصص، حيث يقول: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وكما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لقد أورد القرآن الكريم القصة ـ ولا سيما قصص الأنبياء والمرسلين ـ في ألوان شتى، فيوردها أحياناً على سبيل الإطناب إن كان المقام للإطناب، وعلى سبيل المساواة إن كان المقام للمساواة، وعلى سبيل الإيجاز إن المقام للإيجاز، وقد يورد القصة في سورة كاملة كسورة يوسف عليه السلام في قصة يوسف، وقد يورد القصة مطولة وهي لرسول واحد كموسى عليه السلام، يوردها في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سور شتى من القرآن العظيم على أشكال متفاوتة؛ لكل مقام منها مقاله الذي يناسبه، لقد أشار إلى صحف موسى وإبراهيم في آية واحدة عندما ذكر آلاءه على خلقه، ووجوب تسبيحه وتقديسة وحده، فقال عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ١٩]، وفي سورة النجم يشير إلى قصة موسى وإبراهيم نفسيهما فيقول: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٥٦]. يورد القصة على حسب المقام.

وأنت إذا لاحظت تجد أن القصة في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ تشتمل على أرقى درجات البلاغة وأعلى أساليب البيان؛ من العبرة والدقة والصدق، والوفاء بالمطلوب ووضوح القصد، لما أشار الله ﷻ وذكره من ثمار هذه القصة من التأسي بالأنبياء والمرسلين؛ فإن قصص الأنبياء إنما تُذكر للتأسي والاقتداء بهم، والابتعاد عن محاذريهم، والوقوف معهم، وتعزيزهم وتأييدهم، ونصرتهم، فإن هذا هو المقصود من ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

ولكن الواقع أن هذا الطريق في ذكر قصص الأنبياء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ امتدت إليه اليد اليهودية، وحاولت تشويهه بكل ما تطيق، وهذا دأب اليهود؛ فقد حرَّفوا دين عيسى ﵇ على يد شاؤول اليهودي، وقال شاؤول للنصارى: «أنا أحدثكم عن يسوع ـ وهذا بعد رفع المسيح بقليل ـ ولا يجوز لكم أن تسمعوا شيئاً من التعاليم المسيحية إلا عن طريقي» فأفسد دين المسيحيين، وجاء بدين لا يعرفه المسيح عيسى ﵇، ولا يعرفه الحواريون، ولذلك ألَّف برنابا إنجيله من أجل تكذيب شاؤول، إذ يقول برنابا في مقدمة إنجيله: «أيها الأعزاء! إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى

التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن لله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً. مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى. وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته». أهـ.

وسيجيء مزيد تحقيق لذلك في قصة المسيح عليه السلام إن شاء الله تعالى. فقد أفسد شاؤول دين المسيح عليه السلام، وادعى أن المسيح ابن الله!

كما حاول عبد الله بن سبأ اليهودي الصنعاني أن يفسد دين الإسلام، وأخذ يتربص ويبحث عن قوم يكونون حديثي عهد بدين ممن يسكنون المدينة من الأعاجم وغيرهم، أو ممن في قلوبهم مرض على الإسلام وأهله، وأخذ يدس عليهم تعاليم ضد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويفتري على كتاب الله، وعلى رسول الله ﷺ؛ إذ أخذ يذيع بين من انضم إليه من عصابة الشيطان أن محمداً ﷺ سيعود إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ويقول لأصحابه: كيف تصدقون أن عيسى يعود قبل يوم القيامة، ولا تصدقون أن محمداً يعود مع أن محمداً أفضل من عيسى، وأن في القرآن ما يؤكد رجعة محمد إلى الدنيا، إذ يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وحمل هذا اليهودي الآية على غير ما أُريد بها، وحاول تحريف الكلم عن مواضعه كما هو دأب اليهود وشأنهم، وقد استمر هذا الدس ومحاولة تشويه شريعة الإسلام من عبد الله بن سبأ اليهودي، حتى استطاع هو وعصابته أن يقتلوا الخليفة الراشد ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم أوحى إلى بعض تلاميذه أن علياً هو إله السموات والأرض، وأمرهم أن يقفوا عند باب مسجد الكوفة، فإذا رأوا علياً رضي الله عنه قالوا له: أنت هو! وقال لهم عبد الله بن سبأ: إذا سألكم عليّ وقال لكم: من هو؟ فقولوا له: أنت الله، فلما فعلوا ذلك أمرعلي رضي الله عنه بأن تحفر لهم عند باب المسجد حفرتان، وتملآن بالنار، ثم يطرح فيها هؤلاء، ولما أخذ أتباع علي رضي الله عنه في إلقاء هؤلاء في النار كانوا يصرخون ويقولون: أيقنا أنك الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله، وقد حاول عليٌّ إلقاء ابن سبأ في النار مع هؤلاء غير أن بعض

خاصته أشاروا عليه ﷺ أن ينفيه فنفاه إلى ساباط المدائن، ولما جاءه الخبر ـ كما ذكر الشعبي عنه ـ بأن علياً ﷺ قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي قال ابن سبأ: والله ما قُتل علي ولا ذاق طعم الموت، وأن الذي قتله ابن ملجم هو شيطان تصور في صورة علي، أما علي فقد صعد إلى السماء يمشي فوق السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه.

لكن بحمد الله ومنته قد جرد الله تعالى من أئمة الدين وحماة الشريعة ودعاة الإسلام في كل عصر وفي كل مصر من يكشف زيف هؤلاء المنحرفين، ويرد عليهم مطاعنهم.

وإني أذكر من عهد بعيد يزيد على أربعين سنة أني وقفت على كتيب بعنوان: الحب. يقول فيه كاتبه: أليس الحب هو الذي حرك قلب النبي محمد ﷺ إلى زينب بنت جحش حينما رأى ساقها الدقيق تحت ثوبها الرقيق كما يرويه بعض المستشرقين. فلما قرأتها سارعت إلى تفسير ابن جرير، وإذا به مع الأسف يذكر نحو ما في هذه القصة الباطلة المختلقة المكذوبة على رسول الله ﷺ دون أن يعلق عليها بشيء، فيقول: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: كان النبي ﷺ قد زوَّج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريده، وعلى الباب سترة من شعر، فرفعت الريح الستر، فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله! إني أريد فراق صاحبتي. قال: ما لك أرابك منها شيء؟ قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيراً. فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك إن فارقتها تزوجتها. ا. هـ.

وهذا كذب وافتراء على حبيب الله ورسوله وأكمل خلقه وأفضلهم محمد ﷺ.

إن القرآن العظيم ينص على العلة في زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، ويسوق في سورة الأحزاب عندما يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥].

وأصل القصة أن الجاهليين كانوا إذا تبنوا شخصاً جعلوه كولد الصلب، فلا يتزوج من تبناه امرأة هذا الولد المتبنى إذا طلقها، وأراد الله أن يبطل هذه القاعدة الجائرة الظالمة؛ لأنها لا حقيقة لها. وكان زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي قد خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من طيئ لتزيره أهلها، فأصابتها خيل من بني القين، فباعوه بسوق حباشة ـ وهو سوق من أسواق العرب ـ وزيد يومئذٍ ابن ثمانية أعوام، وقد اشتراه حكيم بن حزام بن خويلد من الشام، ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً، وبكى عليه كثيراً حين فقده، فهو يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله لا أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

ثم يقول فيها:

تذكرينه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليَّ منيتي ... فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل

وقد أُخبر أبوه بأن زيداً عند محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة، فقدم هو وأخوه إلى مكة، وجاء إلى بيت رسول الله ﷺ وذلك قبل البعثة النبوية، فسألا رسول الله ﷺ أن يعطيهما زيداً، فقال له رسول الله ﷺ: يا زيد، هذا أبوك وهذا عمك، إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق معهما، فنظر زيد

إلى وجه رسول الله ﷺ مرة ونظر إلى وجه أبيه ووجه عمه مرة أخرى، ثم قال: بل أقيم عندك، ولا أختار عليك أحداً أبداً، فأخذه رسول الله ﷺ إلى الملأ من قريش، وقال: يا معشر قريش، أشهدكم أن زيداً ابني يرثني وأرثه.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني

ذكرتُ في الفصل السابق سبب تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، وكان التبني في الجاهلية يُنزِل الابن المتبنَّى بمنزلة الابن من الصلب، فجميع ما يحرمه الجاهليون حول الابن من الصلب يحرمونه للابن المتبنَّى، ولما أراد الله تبارك وتعالى إبطال عادة قبيحة من عادات أهل الجاهلية ـ وهي أنهم كانوا إذا تزوج الابن المتبنَّى زوجة ثم طلقها لا يحل للذي تبنَّاه أن يتزوجها ـ فلما أراد الله أن يبطل هذا العادة ولم يكن أحد يتحمَّل ذلك إلا رسول الله ﷺ أمر الله رسوله ﷺ أن يزوِّج زينب بنت جحش ابنة عمته من زيد مولاه فرفضت وقالت: لا أتزوج من مولى، ورفض أخوها كذلك أن يتم هذا الزواج، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] فرضيت زينب بنت جحش بأمر الله وأمر رسوله، ورضي أخوها بأمر الله وأمر رسوله كذلك. وتزوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكانت تحس في قلبها بأنه دونها، فكانت تناله أحياناً بما يكره من القول، حيث تقول له: تزوجتك وأنت مولى، فيأتي زيد بن حارثة إلى رسول الله ﷺ ويشكو زينب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ورسول الله ﷺ يعلم أن ما ألقاه الله في قلب زينب نحو زيد هو تمهيد للفراق بينهما، ليتم ما قضاه الله ﷻ من أن يتزوج رسول الله ﷺ من زينب؛ حتى تبطل عادة الجاهلية في تحريم نكاح زوجة الابن المتبنَّى إذا فارقها، فلما قضى زيد منها وطراً طلقها زيد بن حارثة للعلة التي ذكرها الله ﷻ حيث قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا

مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ ـ ٤٠].

وقد أخذ المغرضون والخرافيون والحاقدون والمرجفون هذه القصة الجميلة الممتلئة بالحكمة والتشريع والخير للإنسانية ووضع الأمور في نصابها الحقيقي والقضاء على خرافات أهل الجاهلية، فدس هؤلاء الحاقدون على رسول الله ﷺ قصة رفع الريح طرف الخباء عن زينب وهي تحت زيد بن حارثة، وإعجاب النبي ﷺ بها، وإخبار زيد رسول الله ﷺ أنه يريد فراقها ليتزوجها رسول الله ﷺ ما دام قد أحبها، إذ تدس هذه الأباطيل أن رسول الله ﷺ لما رأى ساقها وأعجب بها قال: سبحان مقلب القلوب. وأيقنت زينب أن رسول الله ﷺ ما قال هذه الكلمة إلا للدلالة على أنه أحبها ووقعت في قلبه لما رأى ساقها، برأه الله مما قالوا وعصمه مما زعموا، لقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا العلة المنصوصة لزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وأن المقصود منها إبطال خرافات الجاهليين ووضع الأمور في نصابها، وأن التبني لا يمكن أن يجعل المتبنى ولداً من الصلب أو كولد الصلب، فإن الإنسان إذا كتب على كيس السكر هذا ملح لا يمكن أن يصير السكر ملحاً بهذه الكتابة، ولو كتب على كيس الملح هذا سكر لا يمكن أن يصير الملح سكراً حلواً بهذه الكتابة؛ فالعناوين التي لا تطابق الواقع لا قيمة لها ولا تغير من الحقيقة شيئاً.

فلما أراد الله أن يبطل هذه العادة الجاهلية الكاذبة أمر رسوله محمداً ﷺ أن يزوج زيد بن حارثة مولاه من زينب بنت جحش، وقد مهّد لذلك في مقامات من سورة الأحزاب، حيث يقول في مطلعها: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقد لفت الانتباه في هذا المقام حيث أكد هذه الحقيقة إذ يقول: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم

بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥] كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق.

وأشار إلى قصة إرغام زينب على التزوج من زيد وما كان بينهما حيث يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٦ ـ ٣٧] ومعنى أنعم الله عليه يعني بالإسلام، وأنعمت عليه أي بالحرية، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هو من مقالة رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة يوصيه بالصبر على أذى زوجته له، ومخافة الله فيها. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتكتم في نفسك ما علمت أنه كائن لا محالة من أن زيداً يطلق زينب ليتزوجها رسول الله ﷺ للقضاء على عادات أهل الجاهلية. وقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، هو ترغيب لرسول الله ﷺ في الإقبال على الزواج من زينب بنت جحش، وأن يزيل من خاطره كل ما قد يمر به مما يُخافُ أن يتحدث به الجاهليون بأن محمداً تزوج زوجة ابنه بعد أن فارقها ابنه.

وقد حرَّف المبطلون الكَلِمَ عن مواضعه وقالوا في قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ أي: حب زينب، ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني من حبها، وتخشى الناس في حبها. حاشا لرسول الله ﷺ ولمن دونه من المؤمنين أن يرضى بذلك أو أن يفعله. وقد سقت هذه القصة لأبين كيف استطاع اليهود ومن ينحو نحوهم أن يُدخلوا على قصص الأنبياء والمرسلين الشيء الكثير من الكذب والباطل والافتراء، كما افتروا على داود وغيره من الأنبياء، وذلك بناءً على مذاهب لهم، فاليهود لا يتورعون عن وصف الله ورسله بكل شر ونقص، ففي الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة التي حرفوها بأيديهم في الفقرة السادسة والعشرين «٢٦» وقال الله: نعمل

الإنسان على صورتنا كشبهنا. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ثم يزعمون أن الله تعب لمَّا خلق السموات والأرض في ستة أيام فاستراح في اليوم السابع يوم السبت، فيقول في الإصحاح الثاني من سفر التكوين في الفقرة الأولى والثانية والثالثة منه: فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ فالله لا يتعب، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولذلك جاء في الرد عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: وما أصابنا تعب في هذا الخلق؛ لأنه سهل علينا يسير، وقد قامت الأدلة العقلية والبراهين النقلية القطعية على أن الله منزه عن اللغوب والتعب. وكما يعتقد اليهود أن الله يلحقه الحزن والندم على ما فات؛ ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين في الفقرة الخامسة والسادسة منه: ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. وهذا المعتقد الفاسد اليهودي في ذات الله يبين أن اليهود يعتقدون أن الله لم يحط علمه بالمخلوقات قبل وجودها؛ ولذلك أدى بهم هذا إلى القول بالبداءة على الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكذلك يعتقد اليهود أن الأنبياء غير معصومين من الخطايا والذنوب، بل جوزوا عليهم أن يرتبكوا المنكرات كالزنا وشرب الخمر وسلب النساء من أزواجهن، وأنهم كانوا يقبحون في عين الرب. فقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر التكوين في الفقرات من (٢٠) إلى (٢٥) ما نصه: وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان

عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته.

وكما وصفوا نوحاً بالسكر رموا لوطاً بالسكر وبالزنا بابنتيه، ففي الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين في الفقرة الثلاثين إلى الفقرة السادسة والثلاثين ما نصه: وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً؛ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

وكما افترى اليهود على داود ﷺ فرموه بالزنا وسلب النساء من أزواجهن واتهام أم سليمان ﷺ بالزنا، ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني ما نصه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها. وبعد أن يسوق سفر صموئيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل بعد ذلك يقول السفر: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً. وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب.

وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني يذكر قصة رجل فقير له نعجة واحدة صغيرة، ورجل غني له غنم وبقر كثيرة جداً؛ فجاء ضيف إلى الرجل الغني فلم يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير، ثم يتابع السِّفرُ سرد معاتبة الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت بشبع به، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها، فتحمل وتلد ولداً اسمه سليمان.

وبهذه النصوص نعرف مقدار أنبياء بني إسرائيل في نفوس اليهود، وإن تعجب فعجب أن يجيء بعض المفسرين ويأخذ هذه القصة المكذوبة المختلقة على داود عليه السلام. ويفسر بها قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤]. ففسرها هؤلاء بأن داود أخذ امرأة أوريا وتسبب في قتله، أو أن هذا كان جائزاً عندهم، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا امرأة واحدة، وأن الله أرسل له ملكين في صورة خصمين لتوبيخه على خطئه، فضربا له مثلاً بذي النعجة وذي النعاج الكثيرة إلخ. وهذا كذب واختلاق. ويفسرون النعجة في الآية بالمرأة، مع أن العرب لا يطلقون اسم النعجة إلا على أنثى الضأن أو بقر الوحش. وبقر الوحش غير أليف، وأنثى الضأن لا ترضى المرأة أن تشبه بها.

وإلى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث

أشرت في الفصل السابق إلى ما يعتقده اليهود في أنبيائهم ورسلهم، فهم يرمونهم بالزنا والسرقة وشرب الخمر وارتكاب جميع الموبقات، وقد تسربت هذه العقائد اليهودية إلى قصص الأنبياء عند تفسيرها في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ، وقد أشرت إلى ما رموا به نوحاً ولوطاً وداود، كيف افترى عليهم اليهود بما هو مسطَّر في كتب العهد القديم من التوراة وسفر صموئيل الثاني. كما افتروا على سليمان عليه السلام فزعموا أنه كان يحكم بواسطة الخاتم، وأنه دخل مرة بيت الخلاء وسلَّم الخاتم لزوجته فخرج الشيطان من بيت الخلاء في صورة سليمان عليه السلام وأخذ الخاتم من زوجة سليمان، وجلس على كرسي الملك وتسلَّط على بني إسرائيل، وصار يدخل على نساء سليمان في الطهر والطمث، وأن سليمان عندما خرج من بيت الخلاء وقال لزوجته: هات الخاتم، قالت: لقد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان. قالت: لست سليمان وأنكره الناس فهام على وجهه، واشتغل عند صياد في البحر، وكان الصياد يعطيه أجرته كل يوم سمكتين، فيشوي سمكة ويبيع السمكة الأخرى ليشتري بثمنها خبزاً، واستمر سليمان على هذا الحال أربعين يوماً، وعندما ضجر الناس من حكم الشيطان الجالس على كرسي سليمان طار الشيطان من الكرسي وألقى الخاتم في البحر فابتلعته سمكة. وكان من حظ سليمان أن هذه السمكة وقعت في شباك الصياد الذي يعمل عنده سليمان، وأنه أعطاها له مع سمكة أخرى، وأن سليمان باع إحدى السمكتين على عادته وطبخ السمكة الأخرى، وكانت هي التي ابتعلت الخاتم، فلما شق بطنها إذا بها الخاتم، فأخذه وعاد إليه المُلك بلبسه الخاتم، وقد أخذ كثير من المفسرين ـ للأسف ـ هذه القصة اليهودية ففسروا بها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] فيقولون: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ

كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ أي: شيطاناً، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع سليمان إلى ملكه. وهذا كذب على الله وعلى سليمان عليه السلام؛ بل قد فسر هذه الآية رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم بأن سليمان حلف ليطوفن على مئة من نسائه أو تسعين أو سبعين، فتحبل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، وأنه لو قال: إن شاء الله، لأتى بهم فرساناً أجمعين. والشق المذكور في الحديث هو الجسد الذي ألقي على كرسيه، فهذا التفسير لرسول الله ﷺ الوارد في البخاري ومسلم يتركه الكثير من المفسرين ويذكرون هذه القصة الإسرائيلية التي أثرت كثيراً في نفوس كثير من المسلمين؛ حتى صاروا يعتقدون أن سليمان كان ملكه في خاتمه، ولا يزالون يذكرون خاتم سليمان، ويضربون به الأمثال، ويتعلق به الكثير من السحرة والمشعوذين والدجالين ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وسيأتي مزيد تحقيق لذلك إن شاء الله تعالى عند قصة داود وسليمان عليهما السلام.

ونحن نسوق بين يدي قصص الأنبياء أموراً لابد وأن يعرفها المسلمون؛ لأنها من صلب عقائدهم، فلا بد من تعريف النبي وتعريف الرسول وطبيعة النبي وطبيعة الرسول وحاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأعظم وظائف الأنبياء والمرسلين، وما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز عليهم، وكذلك النبوات السابقة وتتابع النبوات.

۞ تعريف النبي والرسول:

ونبدأ بتعريف النبي والرسول؛ فالنبي في اللغة قيل: هو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر العظيم، وقيل: من النَّبوة بسكون الباء، أو النباوة، وهي المكان المرتفع، ولا مانع أن يكون المعنيان جميعاً قد لوحظا في هذا الوضع اللغوي، فالنبي آت بالخبر العظيم عن الله، وهو كذلك رفيع القدر عند الله وعند المؤمنين، وهو كذلك يكون من أشراف قومه، ولذلك جاء في حديث هرقل: «وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها».

والرسول في اللغة هو: المبعوث بالرسالة والموجه لغيره، أما في الاصطلاح: فالنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها، أو بعثه لتقرير شريعة سابقة، والرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، والنبي أعم مطلقاً. وقيل: النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. وهذا تعريف عجيب، فإن الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على أهل العلم ألا يكتموه. وعاب أولئك الذين يكتمون العلم، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، على أن الله تبارك وتعالى يبين وظيفة أنبياء بني إسرائيل إذ يقول في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] وكذلك يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وكما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين. فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي**»، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] يدل على أن كل نبي وكل رسول تلا على قومه أو اشتهى هداية قومه، فليست إذن وظيفة النبي قاصرة على نفسه منعزلة عن قومه، لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ولا يبلغ قومه الهداية والخير، وعلى التعريف الذي اخترته، فإن الفرق بين النبي والرسول هو: أن الرسول من يأتي بجديد من الشرع، والنبي الذي ليس برسول، هو: من يأتي لتقرير شريعة سابقة، فإذا كان في رسالة المبعوث شيء جديد من الأحكام؛ فإنه يكون نبياً رسولاً، وإذا كان قاصراً على تقرير الشريعة السابقة وبيان أحكامها، ويأتيه الوحي بذلك؛ فإنه يكون نبياً وليس برسول.

وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله طينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولي العزم، واختار من أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمداً ﷺ. وقد جرت العادة أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويقول في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وطبيعة الأنبياء كطبيعة البشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وقد تكون لهم الأزواج والذرية على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقد حماهم الله تعالى من كل سوء، وعصمهم من كل سيئة، ورباهم على عينه، واصطنعهم لنفسه على حد قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وهداهم إلى أحسن سيرة، وجبلهم على أحسن سلوك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ لمَّا زار بني النجار مع أمه وسنه حوالي ست سنوات رأى غلمان بني النجار يسبحون في بئر عدي بن النجار، فأراد أن يسبح معهم، وعندما حاول نزع ثوبه أحس بيد قوية تمسك عليه ثوبه، ولاكم يلكمه، وسمع صوتاً يقول: لا تتجرد من ثيابك لست كهؤلاء الصبيان.

كما أثر أن رسول الله ﷺ كان ينقل الحجارة مع عمه العباس من أجياد قبل البعثة النبوية عند بنيان الكعبة، وكان الحر شديداً، وكانت الحجارة تكاد تطبخ اللحم من شدة حرها، وليس على عاتق الرسول ﷺ شيء يقيه حر الحجارة، وليس عليه إلا إزاره، فرحمه عمه العباس وقال: يا ابن أخي، لو أخذت إزارك فجعلته على عاتقك يقيك حر الحجارة، فلما رفض رسول الله ﷺ ذلك حتى لا تنكشف عورته، جبذ عمه العباس إزار رسول الله ﷺ ليضعه على عاتقه، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه وهو يقول: «**إزاري إزاري فإني قد نُهيت**

عن التجرد»، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بُنِيَت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «**إزاري إزاري**» فشد عليه إزاره. فهذه القصة تثبت أن الله تعالى ربَّى النبي محمداً ﷺ على عينه، كما ربى إخوانه الأنبياء من قبل، والأنبياء بشر، لكنهم خير البشر، وأفضل البشر، وأطيب البشر، فالله يحميهم من كل سوء، يحميهم من الزنا، ومن السرقة، ومن شرب الخمر، ومن أكل الربا. وما دمنا نعلم أن الله قد عصم أنبياءه من الذنوب، وحماهم من المعاصي؛ فإنا نعلم أن كل ما يسوقه القصَّاص من الأخبار الإسرائيلية عن الأنبياء والمرسلين من نسبتهم إلى جريمة من الجرائم، أو فاحشة من الفواحش، أو معصية من المعاصي؛ فإنها دسيسة من الدسائس التي يحاول بها اليهود الإساءة إلى أنبياء الله ورسله، ويجب على كل من آمن بالله وصدَّق المرسلين أن ينزههم عنها وأن يبرئهم منها، أما حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين فهي أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

وإلى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع

حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين

أشرت في الفصل السابق إلى حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأن حاجتهم إلى النبوة والرسالة أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الإنسان مدني بالطبع كما يقرر علماء الاجتماع، ومعنى كونه مدنياً بطبعه أنه لا يستغني عن الناس ولا يستغني الناس عنه، فهو محتاج إلى الناس؛ لأن الله خلقه على طبيعة وجبلة لا يتمكن معها من سد حاجاته بنفسه، فهو يحتاج إلى الطعام، والخبزة التي يأكلها لا يمكن أن يعملها بنفسه فلا بد فيها من الحب، والحبوب تحتاج إلى مقدمات كثيرة، فهي تحتاج إلى حرث الأرض، والحرث يحتاج إلى محراث، والمحراث لا بد له من نجار وحداد، كما أنها لا تصل إليه إلا بعد ري وزراعة وحصاد ودياس وطحان وعجان، وكل هذه لا تكفي فيها يد إنسان واحد بل قد صار لكل واحدة منها فئة من الناس يحترفونها، وكذلك لا يستغني الإنسان عن ملابس يلبسها، وهي لا تصل إليه إلا بعد أن يحترف فيها خلق كثير لجلب المادة الخام ونسجها وصناعتها وخياطتها إلى غير ذلك، ولكل واحد منها آلات تحتاج إلى عمل أيد كثيرة، والإنسان في حاجاته لا يقف عند حد، فلو ترك الناس لأنفسهم لسلب القوي الضعيف، والغني الفقير، والعزيز الذليل، ولصاروا كحيوانات الغابات، بل قد تكون حيوانات الغابات خيراً منهم؛ لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقه، ولما كانت البشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسان لمؤثرات بيئية ونفسية تؤثر بالضرورة على معارفه، وما يراه هذا حسناً قد يراه الآخر قبيحاً على حد قول الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ولما كانت الأنظمة الوضعية التي يضعها الناس لا بقاء لها ولا دوام ولا

شمول اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يضع للإنسانية النظام الذي يكفل سعادة البشر في العاجلة والآجلة. وهو العليم الخبير بخلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فهو الذي يضع لهم التشريعات، ويبين لهم الأحكام، ويبعث بها رسله، وينزل بها كتبه؛ فالناس في أمس الحاجة إلى النبيين والمرسلين.

ولما اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يجعل أول إنسان ـ وهو آدم أبو البشر ـ نبياً، وأعطاه الشريعة التي يسير على منهاجها هو وبنوه على قدر حاجتهم حينذاك في عباداتهم ومعاملاتهم. ثم تتوالى النبوات ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فتتابعت النبوات من آدم إلى أن ختمهم الله بحبيبه ورسوله وخير خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سلسلة الأنبياء والمرسلين كانت متتابعة حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] متتابعة.

ولو قال قائل: إن قريشاً أقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] يعني اليهود والنصارى، فلما جاءهم أعظم المنذرين محمد ﷺ: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وهو يشعر أن جزيرة العرب قد خلت من المنذرين قبل محمد ﷺ.

فالجواب: أن قريشاً يريدون نذيراً جديداً؛ لأن جزيرة العرب لم تخل من ذكر دين إبراهيم وإسماعيل. وقد استمرت الجزيرة العربية على دين إسماعيل وأبيه إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي بأصنام من الشام ونصبها في جزيرة العرب، فدخل أهل الجزيرة في الوثنية، حتى جاءهم شيخ المنذرين محمد ﷺ فدالت دولة الأصنام.

هذا وبعض الناس يذكر عدداً معيناً للأنبياء والمرسلين، والواقع أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين، وإنما ذكر القرآن العظيم خمسة وعشرين منهم، جمع ثمانية عشر منهم في مقام واحد من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ

وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦]، فهؤلاء الثمانية عشر رسولاً ذكرهم الله تعالى في مقام واحد من سورة الأنعام، وذكر في مواضع أخرى من القرآن الكريم اسم سبعة منهم، جمعهم بعض الشعراء في قوله:

في تلك حجتنا منهما ثمانية — من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا — ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى كثرة الأنبياء، وأن منهم من قص خبره على رسول الله ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه، حيث يقول ﷻ في سورة غافر: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨]، فالأنبياء والمرسلون لا يعلم عددهم إلا الله وحده، والقول بحصرهم في عدد معين قول على الله بغير علم ما دام لم يثبت شيء من ذلك عن رسول الله ﷺ. والمسلمون لا غنى لهم عن قصص الأنبياء؛ لأنها النموذج الكامل للحياة العالية السعيدة.

❁ أعظم وظائف الأنبياء والمرسلين:

وأعظم وظائف النبيين هي: دعاية الخلق إلى الخالق بإخلاص توحيده وعبادته، وأنه لا إله إلا الله؛ ولذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] كما أن من أهم وظائف النبيين والمرسلين رسم أكمل المناهج للحياة البشرية السعيدة ببيان ما ينفع الناس وحضهم عليه، وتحذيرهم من الشرور والآثام والتعدي والظلم وكل ما يلحق الضرر بعباد الله وخلق الله؛ كالزنا والسرقة وشرب الخمر والاعتداء على العباد وسائر الموبقات والفواحش والجرائم، فهم يأمرون الناس بالخير وينهونهم عن الشر حتى يكون المجتمع المستمسك بمنهج النبوة والرسالة مجتمعاً سعيداً مثالياً، وعلى رأس وظائف النبيين والمرسلين كما أشرت هو إخلاص التوحيد لله وحده، بمعنى أن العبد يؤمن بربوبية الله وألوهيته وأسمائه

الحسنى وصفاته العلى ويفرده بالتوحيد، فلا يبذل أي شيء من العبادة إلا لله وحده، فيكون إخباته لله، وقنوته لله، وإنابته لله، ورجاؤه في الله، وخوفه من الله، وأقصى حبه لله، وأن غاية الذلة إنما تبذل لله وحده، فهو وحده المستحق لأعلى درجات الحب مع بذل أقصى غاية الذل له لا شريك له، ولا شك أن كل أمة تستمسك بمنهج النبوة والرسالة تسعد في العاجلة والآجلة، وكل انحراف عن منهج الأنبياء والمرسلين يدني الأمة من أسباب هلاكها ودمارها، ولقد كان من فضل الله علينا نحن المسلمين أن جعل نبينا ورسولنا محمداً ﷺ أكمل الأنبياء، ومنهجه أكمل المناهج وأبقاها وأنقاها وأشملها وأعمها، وختم به النبوة والرسالة، وجعل منهجه مهيمناً على جميع المناهج، وقد ضرب رسول الله ﷺ لنفسه مع إخوانه الأنبياء مثلاً فقال فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة**»، قال: «**فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

وإلى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

نتحدث إليكم عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نقاط تتناول قصة خلقه، وخلقه من أصناف تراب الأرض، ومقدار طوله، والشجرة التي نُهِيَ عن الأكل منها، ومقدار لبثه في الجنة، وإهباطه من الجنة، وعدد أبنائه، وهل سمى ابناً له عبد الحارث؟ وذِكر هبته من عمره لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما ذكر عن شعره في قتل ابنه، وهل بنى الكعبة؟ وهل توسل إلى الله بمحمد ﷺ؟ ورؤية النبي محمد ﷺ له ليلة الإسراء والمعراج، ثم نتحدث عن وفاته، ومكان دفنه، ثم ذكر احتجاج موسى وآدم بالقدر، ثم ذكر تأخره عن الشفاعة يوم القيامة.

أما قصة خلقه: فقد ذكرها الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، فهو يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣]، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلقه من تراب، وأنه خلقه من طين، وأنه خلقه من صلصال كالفخار من حمإٍ مسنون، وأنه خلقه من طين لازب، حيث يقول في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٢]،

ويقول في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٣٣]، ويقول في سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ويقول في سورة الصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١]، ويقول في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ويقول في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وأصل ذلك أن الله تبارك وتعالى أخذ من تراب الأرض قبضة فخلق منها آدم، وقد اجتمع في هذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض؛ ولذلك جاء بنو آدم على هذه الألوان، وهذه القبضة قد بلَّها الله تعالى بالماء، ثم مرت عليها مدة حتى تحجرت فصارت صلصالاً.

والصلصال هو الطين المتحجر؛ لأن الطين إذا طبخ بالنار سمي فخاراً، وإذا لم يطبخ بالنار لكنه ترك حتى تحجر يسمى صلصالاً. فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] أي: من طين تحجر حتى صار شبيهاً بالفخار، وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا إنه من صلصل بمعنى صوَّت، وإن قلنا إنه من صلَّ بمعنى تغير، فإن الطين إذا مضت عليه مدة أنتن واسودَّ فيصير حمأً مسنوناً، أي أسود متغيراً له رائحة خاصة، فإذا يبس وتحجر صار كالفخار، والطين اللازب هو اللاصق، ويقال أيضاً لزب الطين إذا صلب. والحمأ المسنون هو الطين الأسود المتغير الرائحة المنتن.

وقد خلق الله تبارك وتعالى آدم بيده، وصوره وجعل طوله ستين ذراعاً، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها**

من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»**.

أما الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها: فقد ذكر بعض الناس أنها الحنطة، وبعضهم يذكر أنها التين، وبعضهم يذكر أنها العنب، ويذكر آخرون غير ذلك، ولم يصح عن رسول الله ﷺ خبر في تعيين الشجرة، ولو كان في تعيينها خير لعيَّنها الله ﷻ وبيَّنها، وما دام الله ﷻ لم يبين نوع الشجرة ولم يبينه رسول الله ﷺ فلا حاجة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفة نوعها، ولا ينبغي لأحد أن يقول على الله بغير علم، إنما المقصود أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجته التي خلقها له وأخرجها من ضلع من أضلاعه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً»**.

وقد نهى الله آدم وزوجه أن يأكلا من شجرة عيَّنها لهما، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٧]، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ

إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٣].

ويقول الله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ هو في الحقيقة من باب قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، إذ ليس المراد هنا المعصية التي حمى الله منها أنبياءه ورسله، إذ ليس الأكل من هذه الشجرة كشرب الخمر أو الزنا أو قتل النفس بغير حق أو فساد في الأرض، وقد وصف الله تبارك وتعالى أكل آدم من الشجرة بأنه صدر عن نسيان حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والإنسان إذا فعل الشيء وهو ناسٍ رُفع عنه القلم، وإنما عاتبه الله تبارك وتعالى لتنبيهه وتنبيه ذريته من دسائس إبليس والاحتراس من وسوسته؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فالمقصود من هذا التصوير في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] هو التنصيص على أن الله رفع الإصر عن آدم حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فصار كأنه لم يأكل من الشجرة. وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منها لا محالة؛ لأنه لا بد وأن يسكن الأرض ويعمرها هو وذريته من بعده، ويجعل الله فيهم خيراً كثيراً، وعباداً صالحين وأنبياء ومرسلين.

ولا بد من الابتلاء والامتحان والاختبار في هذه الأرض، فكانت الصورة

الأولى للامتحان هو نهي الله له أن يأكل من الشجرة ونسيان آدم هذا النهي وأكله منها.

وقد اختلف أهل العلم في الجنة التي أمر آدم أن يسكنها هو وزوجه، وأكثر السلف من هذه الأمة على أنها جنة المأوى؛ لأن الصفات التي وصف الله بها هذه الجنة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩] تدل على أنها جنة النعيم، كما أن الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه الشفاعة: «**وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم**».

وقد ذهب بعض السلف إلى أنها جنة في مكان عالٍ من الأرض، والراجح عند أهل العلم أنها جنة المأوى، فإذا قيل: إن كانت جنة المأوى فكيف يخرج آدم منها؟ ومن سكن جنة المأوى لا يخرج، فالجواب هو: أن من يسكن جنة المأوى ولا يخرج منها هو من يدخلها جزاء على عمله بعد أن يقضي عمره في الدنيا، حتى إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها؛ لأنها دار جزاء المتقين. على حد قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣٢]، أما كون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئاً فهذا للامتحان والابتلاء والاختبار؛ لتكون هذه الصورة ماثلة أمام أعين ذريته دائماً، ليحذروا إبليس الذي أخرج أبويهم من الجنة.

أما مقدار لبث آدم في الجنة: فلم يعينه الله ولم يعينه رسول الله ﷺ، والقول فيه قول على الله بلا علم. وقد بيَّن الله تعالى أنه أهبط آدم من الجنة كما قال في سورة البقرة: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ ـ ٣٨].

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥]، وقال في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

أما عدد أبناء آدم عليه السلام: فلم يصح فيهم أيضاً خبر عن الله أو عن رسول الله ﷺ، وبعض الناس يقول: إن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، وبعضهم يقول: ولدت حواء مئة وعشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى. وقال ابن كثير في تاريخه: وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربع مئة ألف نسمة.ا.هـ. والعلم في ذلك كله عند الله عز وجل.

أما دعوى أن آدم سمى ولداً له عبد الحارث وأنه المشار إليه في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩١]، وهذا قول على آدم بغير دليل صحيح، وتأويل للآية على غير وجهها، فأما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال: **«لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»**.

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. قال ابن كثير في تاريخه: فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً عن ابن عباس، والظاهر أن هذا متلقى عن

كعب الأحبار وذويه والله أعلم، وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره.ا.هـ.

وهذا تفسير عجيب لهذه الآيات، كيف يكون أول شرك في الأرض من آدم وزوجه، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا والقتل وشرب الخمر والسرقة، كما أن المعروف أنه لم يقع شرك في الأرض إلا في أمة نوح عليه السلام، ولا شك أن المراد بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم، وأن قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ إلى آخر الآيات، فهو انتقال بعد ذكر آدم وزوجته، واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية، فإن من الأساليب البلاغية أنه قد يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٣] فالمخلوق من الطين آدم، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها، فآدم عليه السلام يحميه الله من الشرك الأصغر ومن الشرك الأكبر.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس

تابع: آدم عليه السلام

قد ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تبارك وتعالى ذكر في سورة الأعراف قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩١]، وقلت: إنه قد دُس في بعض الأخبار المنسوبة إلى رسول الله ﷺ أن حواء لم يكن يعيش لها ولد في أول الأمر، فوسوس لها الشيطان إذا أرادت أن يعيش لها ولد أن تسميه عبد الحارث ليدخل الشرك على الناس. وهذا عجيب، إنها خلقت لعمارة الأرض فكيف لا يعيش لها ولد؟ قال ابن كثير رحمه الله في تاريخه: فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد؟! ا.هـ.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: نطفة لا ثقل لها في البطن، فصارت المرأة تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: كبر بطنها، وثقل عليها حملها واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سألا الله عز وجل وتضرعا إليه أن يرزقهما ولداً صالحاً ليشكراه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلا لله شركاء فيما أنعم به عليهما. وهذان الزوجان المشركان لم يقصد بهما آدم وحواء قطعاً، وإنما هو توبيخ لمن يشرك بالله من جنس بني آدم؛ ولذلك قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولو كان المراد به آدم وحواء ـ عصمهما الله من ذلك ـ لقال: «فتعالى الله عما

يشركان»، والآية ظاهرة في أن المراد بالشرك هنا ما يعم الشرك الأصغر والأكبر، ولذلك زاد في توبيخهم والتنديد بهم حيث قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢]. وأهل العلم متفقون على أن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. هما آدم وحواء، وانتهى الكلام هنا في ذكر الأصل ـ آدم وحواء ـ ثم استطرد إلى الجنس، وهذا أسلوب بلاغي كما ذكرت في الفصل السابق، فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: الوالد والوالدة من جنس بني آدم وحواء، وقد أشار في صلب الآية إلى أنه ليس آدم وحواء بقوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأما قصة هبته من عمره لداود: فقد رواها أحمد والطبراني من طريق علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من جحد آدم**» ـ قالها ثلاث مرات ـ «**إن الله ﷻ لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يُزْهِر، فقال: أي رب! من هذا؟ فقال: هذا ابنك داود، قال: يا رب! كمْ عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: أي رب! فزد في عمره، قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه قال: إنه بقي من أَجَلي أربعون سنة، فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود، قال: فجحد، فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البيِّنة، فأتمها لداود مئة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة**». فهذا الخبر لا يصح عن رسول الله ﷺ بحالٍ؛ لأنه يدور على علي بن زيد وفي حديثه نكارة، وقد أخرج نحوه الترمذي بسند فيه هشام بن سعد، وقد وصف بأنه له أوهام وقد رُمي بالتشيع، والظاهر أن هذا من أوهامه، كما رواه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف عند المحدثين، ولا يجوز أن يوصم أبو البشر نبي الله آدم عليه السلام بالجحود بمثل هذه الأخبار، إذ الجحود من الأمور المذمومة التي لا يرتضيها عوام المسلمين لأنفسهم، فكيف يوصف بها نبي من أنبياء الله؟!

أما ما ذكر من شعره لما قتل قابيل أخاه هابيل فلا ينبغي لمن ينتسب للعلم

أن ينسب مثله لآدم عليه السلام؛ لأنه لم ينقل عن خبر معصوم ولا يدعي أحد صحة سند فيه، وهذا الشعر المزعوم هو:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم وقلَّ بشاشة الوجه المليح

أما ما ذكر من توسله بمحمد رسول الله ﷺ؛ فهو لا يصح كذلك، وقد رواه الحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما اقترف آدم الخطيئة قال: أي رب! أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله: كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب! لأنك لمَّا خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليَّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفر لك، ولولا محمد ما خلقتك**». قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف.

أما رؤية رسول الله ﷺ لآدم ليلة الإسراء والمعراج؛ فقد رواها البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة في خبر الإسراء والمعراج، وفيه: «**فانطلق بي جبريل حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيها آدم، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح...**» إلخ. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنه: «**فعُرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: معي محمد ﷺ، فقال: أُرْسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يسارة أسودة، إذا نظر قبل**

يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى...» إلخ الحديث.

وقد أقرَّ آدم لرسول الله ﷺ في حديث الإسراء بالنبوة والبنوة لآدم عليه السلام، فصلوات الله وسلامه عليهما وعلى النبيين أجمعين.

أما عمر آدم عند وفاته ومكان دفنه: فلم يرد في ذلك خبر صحيح عن رسول الله ﷺ يثبت أين مات آدم عليه السلام وأين دفن فالعلم في ذلك عند الله عز وجل.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع

تابع: آدم عليه السلام

أشرت في فصل سابق إلى احتجاج موسى وآدم بالقدر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**حاجَّ موسى آدم عليه السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني أو قدَّره عليَّ قبل أن يخلقني. قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدم موسى**»، أي فغلب آدم موسى في هذه المحاجة.

أيها القراء الكرام: إن الاحتجاج بالقدر ينبغي أن يلاحظ فيه أمران؛ فالقدر إما أن يقترن بمصائب أو يقترن بمعائب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو القتل أو غير ذلك من المعاصي، فإذا قيل له: لم فعلت ذلك، قال: قَدرُ الله، أو قدَّر الله، أو قضاء الله، ونسب عمله إلى القدر، وهذا خطأ؛ فإنه لا يحق الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعايب؛ لأن الله لم يبين له القدر قبل ارتكاب الجريمة وأنه سيرتكبها، ولم يأذن له في ارتكاب هذه الجريمة. أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو انقلب مثلاً وهو نائم على شخص فقتله، أو انفلتت منه حصاة أو نحوها على شخص فأصابته من غير قصد منه، أو غلبته عينه رغم أنفه فنام عن الصلاة حتى طلعت الشمس فله أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر؛ لأن هذا الذي وقع منه خارج عن إرادته، وله أن يقول: قدَّر الله وما شاء فعل.

وقد أشار إلى هذا رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من**

المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»، فهذا الحديث يضع أوضح قواعد السلوك فيما يحتج به من القدر، وما لا يحتج به، فما أصاب الإنسان من شر لا إرادة له فيه فإن له أن يحتج بالقدر. وما فعله بإرادته من المعايب لا يجوز أن يحتج فيها بالقدر»؛ لأن المأذون له في عمله هو الخير وما ينفعه في عاجلته أو آجلته، ولذلك صدَّر رسول الله ﷺ هذا الحديث بقول: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**». وآدم عليه السلام لم يُهْبِط العباد إلى الأرض ولم يكن إخراجهم من الجنة بيده، وأكله من الشجرة وإن كان سبباً لهبوطه إلى الأرض لكنه فعله بغير قصد كما أسلفت، فلا دخل لآدم في إخراج الناس من الجنة وإهباط العباد إلى الأرض وإن ذلك كله لله وحده، فاحتجاج موسى عليه السلام على آدم لعله كان نوعاً من المداعبة منه لأبيه آدم عليه السلام، وموسى لا يخفى عليه مثل ذلك. وهو عندما وكز القبطي فقضى عليه قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وموسى عليه السلام لا يؤاخذ بذلك؛ لأنه لم يقصد قتل الرجل، كما أن آدم عليه السلام قد وصف الله أكله من الشجرة بأنه عن نسيان، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ولا شك أن القلم مرفوع عن الناسي كما أنه مرفوع عن النائم. فما فعله الإنسان عن نسيان أو في نومه فإن الله تعالى لا يؤاخذه عليه، وكأن آدم عليه السلام قال لموسى عليه السلام: (أنا لم أخرجكم من الجنة، وإنما أخرجكم الله الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة وقد أكلت منها عن نسيان، وقد قدَّر الله عليَّ ذلك قبل أن أُخْلَق، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليَّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرج نفسي ولم أخرجكم من الجنة وإنما كان هذا من قدر الله وقضائه، وله الحكمة في ذلك)، فلذلك غلب آدم موسى في الاحتجاج.

أما ما جاء في حديث الشفاعة لاستفتاح الجنة يوم القيامة وتأخر آدم عن

ذلك بقوله: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. فلأن صورة ما حدث هو صورة الخطيئة، كما أن ما حدث من موسى عليه السلام في قتل القبطي هو صورة الخطيئة، لكن الله لا يؤاخذ أحداً منهما بما فعل؛ لأنه لم يكن عن قصد، وحديث الشفاعة هذا قد أخرجه مسلم في صحيحه من طريق أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة ومن طريق أبي مالك الأشجعي عن ربعي عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تُزْلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وتُرْسلُ الأمانة والرحم فتقومان جَنَبَتَي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أَوَّلُكُم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمرِّ البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطير وشَدِّ الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سَلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمِرتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ ومَكْدُوسٌ في النار**»، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً. وقوله في الحديث «**وشد الرجال**» أي عدْو الرجال وسعيهم وسرعتهم في المشي.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن

تابع: آدم عليه السلام

لا شك أن آدم عليه السلام كان نبياً من أنبياء الله، وأكثر أهل العلم على أنه كان نبياً رسولاً بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وتعريف الرسول ينطبق على آدم عليه السلام سواء في ذلك التعريف المشهور عن العلماء وهو أنه من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، أو التعريف الذي اخترته ورجحته وهو أن الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة؛ فآدم عليه السلام قد جاء ولا شك بشريعة جديدة يحتكم هو وبنوه إليها، ويسيرون على منهاجها، وقال جماعة من أهل العلم: إن آدم كان نبياً ولم يكن رسولاً بدليل حديث الشفاعة الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة، فَرُفِعت إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة، وقال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر ويُسمِعهُم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله،**

نفسي نفسي..» إلخ الحديث. فقولهم: «**أنت أول الرسل إلى أهل الأرض**» يفيد أن آدم لم يكن رسولاً، لكن المثبتين لرسالة آدم يقولون: إن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض للتحذير من الشرك، إذ لم يكن قبل قوم نوح عليه السلام شرك في الأرض، وإنما كانت المعاصي كلها دون الشرك كالقتل والظلم ونحوه، أو أن المراد من هذه الأولية هو بالنسبة إلى شمول رسالته لكل أهل الأرض، ولم يكن أهل الأرض إلا قوم نوح عليه السلام، ولم يكن على الأرض ناس سواهم، أما الرسول الذي شملت رسالته كل أهل الأرض عربهم وعجمهم وحتى الجن فهو محمد ﷺ، وأما من عدا نوحاً ومحمداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم تكن رسالتهم تشمل كل أهل الأرض وإنما هي خاصة لأقوامهم. ونوح وإن كان كذلك قد بعث إلى قومه خاصة لكنهم كانوا يومئذٍ كل أهل الأرض كما أشرت. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب أحاديث الأنبياء في باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥] في عبارة: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض: فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبياً، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه. فعلى هذا فهو رسول إليهم؛ فيكون هو أول رسول، فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم: إلى أهل الأرض؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. ا. هـ.

هذا وبعض أهل العلم يفسر قول رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج عن يوسف عليه السلام: «**فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن**» بأن المراد أن يوسف عليه السلام أعطي نصف حسن آدم عليه السلام، وإن كان بعض أهل العلم يفسر ذلك بأن يوسف قد أعطي شطر حسن الناس جميعاً، وبعضهم يفسره بأن يوسف عليه السلام قد أعطي شطر حسن محمد ﷺ، وعلى كل حال فإن الله

تبارك وتعالى قد خلق آدم وركبه على أحسن صورة على حد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقد استقر عند أهل جميع الأديان السماوية أن آدم أبو البشر، غير أنه قد نبغت نابغات من الإلحاد والزندقة في العصور المتأخرة فزعموا أن الشمس في أثناء دورانها السريع حول نفسها انفصلت منها قطعة أخذت تبتعد عنها قليلاً قليلاً وتتخذ لنفسها مجرى كمجرى أمها الشمس، وهذه القطعة هي الأرض، ويدَّعون أنه بطول الزمن برد سطح الأرض وإن كان باطنها لا يزال على حرارته، وقد أحاطت بها المياه، وأنه بطول الزمن آسن بعض هذا الماء فتوالدت فيه حيوانات مائية كهذه الحيوانات التي تتوالد في أي ماء آسن، ويرون أن من جملة هذه الحيوانات البحرية كان الإنسان، ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان المائي)، ثم بمرور الزمن الطويل البالغ (ملايين) السنين أخذ هذا الحيوان المائي يخرج إلى شواطئ البحار ويرعى الحشائش النابتة عليها، ثم يرجع إلى البحر ليعيش فيه شبيهاً بالتماسيح. ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان البرمائي)، ثم استطاع هذا الحيوان أن يتطبع بطباع البر وأن يعيش فيه طول حياته وأن يهجر حياة البحر، ويطلقون عليه طول هذه الفترة (الإنسان البري).

ثم يزعمون أن هذا الحيوان بعد فترات طويلة من التاريخ تبلغ «ملايين» كثيرة من السنين استطاع أن يتميز عن كثير من الحيوانات البرية الغابية، وأنه صار يستعمل أنواعاً من الآلات كالحجارة ونحوها؛ فارتفع وارتقى عن باقي الحيوانات التي لم تتميز بذلك، وقد رفع لواء هذه النظرية نصراني يقال له داروين، ونشطت اليهودية العالمية في ترويج نظرية داروين هذه لأنها تتماشى مع ما عرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون وكذلك «الماسون» في العمل على تخريب العالم؛ ليتمكنوا من تأسيسه من جديد بحسب أهوائهم وشهواتهم. وقد أطلقوا عليها نظرية التطور والارتقاء[(١)]. وبالنظر المجرد إلى هذه النظرية نرى أن أصحابها لا

---

(١) بعد إعداد هذا الكتاب للطبع نشرت جريدة الشرق الأوسط السعودية في عددها رقم (٣٣٢٨) بتاريخ يوم الجمعة ١٤٠٨/٥/١٩هـ الموافق لليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٨٨م تحت عنوان: «العلم يثبت أصل الإنسان» ما يلي: (واشنطن ـ مكتب الشرق =

يؤمنون بفاطر السموات والأرض، ولا يصدقون بأي كتاب سماوي؛ إذ الكتب السماوية المؤيدة بالمعجزات الحسية والعقلية تقرر أن الله خلق الأرض، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ثم خلق السموات وزين السماء الدنيا بمصابيح، وأنه خلق الملائكة المكرمين من نور، ثم الجان من نار السموم، ثم خلق آدم أبا البشر من طين فسواه بيده الكريمة على هذه الصورة الجميلة، وكرّمه على جميع المخلوقات في الأرض. والعجيب أن بعض الجاهلين يزعمون أن نظرية داروين في التطور والارتقاء قد قررها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، مع أن القرآن شرح هذه الأطوار في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤] كما فسر رسول الله ﷺ أطوار خلق الإنسان كذلك، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو

= الأوسط: ضجت الأوساط العلمية في الغرب ولا سيما في الولايات المتحدة بنبأ الاكتشاف الذي توصل إليه فريق من العلماء الأمريكيين بعد نحو عشر سنوات في البحث والدراسة في علم الوراثة والجينات، وقاد البحث إلى اكتشاف أن الجينات الثابتة في كل النوع البشري يمكن تقفيها إلى امرأة واحدة (سماها فريق البحث بايف ـ أو حواء) انحدر منها كل البشر. وكانت خصبة الولادة. وإليها تعود الجينات الثابتة عند كل البشر، والبالغة نحو خمسة آلاف جين، وهذا ما جاء في التقرير العلمي الذي نشرته مجلة «نيوز ويك» الأمريكية هذا الأسبوع. ويحدد العلماء ظهورها على الأرض بأنه وقع في آسيا أو إفريقيا قبل نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة. وعلى هذا الأساس يمكننا اعتبارها جدتنا العشرة ألف. وقد ناقضت هذه الاكتشافات كل ما ذهب إليه العلماء من قبل فيما يتعلق بظهور الإنسان على الأرض، وخاصة ما يتعلق بنظرية العالم الإنجليزي داروين حول أصل الإنسان). انتهى ما أوردته جريدة الشرق الأوسط بحروفه.

المؤلف عبد القادر شيبة الحمد

الصادق المصدوق: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعثُ إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ في الروح** «الحديث»».

فيجب علينا معشر المسلمين أن نتفطن ونحذر من هؤلاء الدعاة إلى نظرية داروين في التطور والارتقاء؛ لأن الإيمان بها كفر بإله السموات والأرض.

هذا وقد أخبر رسول الله ﷺ أن آدم خلق في يوم الجمعة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**». وهذا يدل على أن آدم عليه السلام خلق خلقاً واحداً لم يمر عليه الأطوار التي زعمها داروين وعصابته من الملاحدة والدهريين.

وأكتفي بهذه الشذرات من قصة آدم عليه السلام وقد بينت فيها ما جاء به الخبر عن الله، أو صح عن رسول الله، والواجب على كل مسلم ولا سيما أهل العلم أن يحترسوا من الإسرائيليات وما دسه اليهود على الأنبياء والمرسلين.

وإلى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع

نوح عليه السلام

نتحدث عن نوح عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم من المرسلين، وأول رسول يحذر من الشرك وعبادة غير الله عز وجل، إذ كانت أمته هي أول الأمم المشركة على ظهر الأرض، وقد يقال لنوح: آدم الثاني؛ لأن جميع الباقين على الأرض من ذريته على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وقد اختلف الناس في المدة التي بين آدم وبين نوح عليهما الصلاة والسلام، فعند أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام ولد بعد موت آدم بمئة وست وأربعين سنة، وذكر ابن جرير أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، وقد ذكروا في عمود نسبه إلى آدم ثمانية آباء. وكل هذه الأقاويل في المدة التي بين آدم ونوح عليهما السلام، وكذلك ما ذكر في عمود نسبه إلى آدم هي أقاويل مرسلة لا دليل عليها، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن أريد بالقرن مئة سنة فيكون بين آدم ونوح عليهما السلام ألف سنة، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس فيكون بين آدم ونوح ألوف السنين؛ لما عرف من أن الناس قبل نوح كانوا يعمرون الدهور الطويلة. ولا يعلم تحديد ذلك إلا الله عز وجل، على أن قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام... لا يدل على الحصر في هذه القرون العشرة بين آدم ونوح عليه السلام وإنما مراد ابن عباس رضي الله عنهما أن الإنسانية مر عليها عشرة قرون بعد آدم وقبل نوح، وكلها على دين الإسلام لم تشرك بالله شيئاً، وإنما هي على التوحيد الخالص لله عز وجل، ثم أدخل عليهم الشيطان أسباب الشرك وأوقعهم في ألوان من عبادة غير الله. فعبدوا الأصنام، وإلى هؤلاء المشركين بعث الله عز وجل نوحاً عليه السلام، وقد ذكر

البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس ﷺ: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدَتْ. وذِكر الأصنام الخمسة الواردة في هذه الآية الكريمة لا يدل على حصر أصنام قوم نوح في هذه الخمسة، بل قد عبد قوم نوح أصناماً كثيرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وقد نقل عمرو بن لحي الخزاعي أصناماً إلى جزيرة العرب، بأسماء أصنام قوم نوح، ودعا إلى عبادتها، فأخذ بنو عذرة «ودّاً» وجعلوه بدومة الجندل، واستمر بها إلى أن جاء الإسلام وهدمه خالد بن الوليد ﷺ، كما أخذت مضر بن نزار سواعاً ونصبوه ببطن نخلة، وعبدته هذيل، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت مذحج يغوث ونصبوه في أكمة في بلادهم، واستمر كذلك حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت همدان يعوق ونصبوه بقرية يقال لها خيوان، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت حِمْيَر نسراً وجعلوه في مكان بسبأ تعبده حمير حتى جاء الإسلام وهدمه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة نوح ﷺ في سور شتى من كتابه الكريم، فذكرها في سورة الأعراف وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة الأنبياء، وفي سورة المؤمنون، وفي سورة الشعراء، وفي سورة العنكبوت، وفي سورة الصافات، وفي سورة اقتربت الساعة، كما جعل سورة نوح بتمامها في قصة نوح ﷺ، كما ذكر الله ﷻ نوحاً ﷺ في جملة من المرسلين في مواضع شتى من كتاب الله ﷻ، ولا شك أنه أول أولي العزم من المرسلين.

وقد أشرت كثيراً إلى أن من أهم فوائد قصص الأنبياء هي العبرة والتأسي بالأنبياء والرسل، والبُعد عما حذروا منه، وقد أطال الله تبارك وتعالى الحديث عن قصة نوح ﷺ في موضعين من كتابه الكريم، أحدهما في سورة هود ﷺ،

والآخر في سورة نوح عليه السلام، وعندما تتمعن في مفردات هذه القصة وجملها تقف على الشيء الفريد العظيم من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل وأساليب الهداية وتبصرة العباد بطريق الله عز وجل، وبيان ما عليه الكافرون وأعداء الله وأعداء المرسلين من محاربة الدين وأهله.

وقد بدأ الله عز وجل قصة نوح في سورة هود بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، وبهذا يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل، وليس أول المنذرين، فهو في رسالته جاء على درب مسلوك وطريق مطروق سار فيه قبله الأنبياء والمرسلون عليهم من ربهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة إذ قال في شأن هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ولتقرير هذه الحقيقة كان مطلع قصة نوح في سورة هود هو إعلان رسالة نوح عليه السلام وإنذاره لقومه حتى يرتدع اليهود ومن على شاكلتهم الذين يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فإرسال الرسل مستقر في الفطرة السليمة تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل؛ ليعلم أن الله عز وجل أرسل الرسل ليدلوا العباد على مراسيم سعادتهم في العاجلة والآجلة، ولئلا يقول الناس: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وبعد أن ذكر أن نوحاً رسول من الله أعقب ذلك ببيان أهم وظائف المرسلين وهو دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] وهذا ديدن جميع الأنبياء والمرسلين، أنهم يبدؤون قومهم بالدعوى إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له؛ لأن توحيد الله تبارك وتعالى هو الذي من أجله خلق السموات والأرض، ومن أجله خلق الإنس والجن، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل العاشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن نوحاً عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له، وذكرت أن هذا هو دأب جميع الأنبياء والمرسلين؛ فجميع أنبياء الله ورسله إنما جاؤوا لقومهم ليعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ لأنه من أجل حقيقة توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، خلق الله الإنس والجن على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن أجل توحيد الله رفع الله السموات وبسط الأرض، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وجعل الجنة والنار، وحرم الجنة على من مات وهو يشرك بالله شيئاً على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فتوحيد الله هو رأس العبادات، وهو أصل كل منهج يوصل إلى الله عز وجل من المناهج التي رسمها أنبياء الله ورسله لأممهم وأقوامهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن نوحاً بعد أن دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله وحذرهم من الشرك خوفهم عذاب الله في الدار الآخرة، وأشار تبارك وتعالى إلى أن المستكبرين في الأرض بغير الحق أثاروا ثلاث شبه ليصدوا الناس عن دعوة نوح عليه السلام، وقد دحض الله شبههم وفضح باطلهم جملة وتفصيلاً، وذكر عاقبة المكذبين، وما منَّ به على نوح ومن آمن به، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا
كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن
طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ
إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ
نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ
﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ
ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ
كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا
وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ
وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ
يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ
أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ
غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ
﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ
يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا

قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٤٩]، وقد أبرز الله تبارك وتعالى في صدر هذه الآيات المباركات حقائق ثلاث هي أهم ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون، فالحقيقة الأولى هي وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، والحقيقة الثانية هي إثبات الرسالة، والحقيقة الثالثة هي الإيمان بالبعث بعد الموت، وقد لوحظ أن جميع السور المكية من القرآن الكريم يدور فلكها لتحقيق هذه الحقائق الثلاث، ولا شك أنه لا سعادة للإنسانية ولا استقرار لها ولا أمن ولا طمأنينة إلا إذا استظلت في ظل هذه الحقائق الثلاث، وآمنت بها، وسارت على منهاجها في جميع ما تفعل وما تذر من شؤون حياتها، وهذه الحقائق الثلاث نبه الله ﷻ عليها في مطلع قصة نوح هنا حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن المستكبرين في الأرض من قوم نوح قد سارعوا فأثاروا ثلاث شبه ضد دعوة نوح عليه السلام، ليضللوا المستضعفين عن قبول الحق الذي جاء به نوح عليه السلام، وليصدوا عن سبيل الله، ورموا بهذه النظريات الفاسدة في وجه الحق، وقد لوحظ أن المسارعين إلى الكفر والعناد والمتجرئين على نوح عليه السلام هم الملأ، وهم رؤساء القوم ووجهاؤهم خوفاً على مناصبهم أن يذهب بها الدين الجديد الذي جاء به نوح عليه السلام، وهذه الشبه الثلاث التي أثاروها هي أن نوحاً عليه السلام من البشر، والشبهة الثانية أن أتباعه هم الفقراء، والفقر في نظرهم الفاسد يقتضي أن يكون الفقير غير ثاقب الرأي ولا عميق الفكر، والشبهة الثالثة أن نوحاً عليه السلام ومن تبعه ليسوا زائدين عنهم في الخلق، ولا مزية لهم على غيرهم في التكوين الجسمي، وفي شبههم الثلاث هذه يقول الله ﷻ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الحادي عشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن المستكبرين في الأرض بغير الحق هم الذين سارعوا إلى معارضة دعوة نوح عليه السلام، وقد جرت العادة بأن الكبراء هم الذين يبدؤون بمحاربة الأنبياء والمرسلين ودعاة التوحيد لله عز وجل، لاعتقادهم أنهم إذا ردوا هذا الحق استبقوا مناصبهم ورياستهم. ولذلك قال هنا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، والملأ هم وجوه القوم ورؤساؤهم وأعيانهم، وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر؛ إذ هم ينكرون نبوته؛ لأنه بشر. وهذه الشبهة بعينها وُجِّهت من أعداء المرسلين لرسلهم، فكلما جاء أمة رسول ردوا دعوته بدعوى أنه بشر، وقالوا كيف تكون رسولاً وأنت من البشر، وجهلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم منن الله على خلقه؛ لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم ويتمكنون من مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل لهم ملكاً لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله سائر المكذبين للرسل بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر، حيث يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠ ـ ١١]، وهذه الشبهة في غاية الضعف، وقد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ

لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥]، وبيَّن أنه لو أرسل رسولاً غير بشر وجعله من الملائكة ما أطاقه الناس ولا يتمكنون من معايشته، ولذلك يقول ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، فالذي يفرون منه لا بد وأن يقعوا فيه، ولا طاقة للبشر على مصاحبة الملائكة في دار الدنيا، فإن جبريل عليه السلام عندما تبدى لرسول الله ﷺ وهو المهيأ ﷺ لاستقبال الوحي، ورأى جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض له ست مئة جناح يملأ الأفق خاف رسول الله ﷺ ورعب منه ورجع إلى أهله وقال: زملوني، وذلك من شدة الخوف. فلو أن جبريل عليه السلام جاء للبشر غير المهيئين للرسالة والوحي ما تمكنوا من الاستفادة منه؛ ولذلك يتوعد الله ﷻ المكذبين المعاندين الذين يردون رسالة الرسل بدعوى أنهم بشر، وأنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم رسول ملكي، حيث يقول ﷻ في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٢]، وقد كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ أحياناً في صورة رجل كدحية بن خليفة الكلبي، وأحياناً يأتيه في صورة رجل من الأعراب، ولا يعرف الناس أنه جبريل حتى يخبرهم رسول الله ﷺ بذلك بعد انقضاء الوحي وذهاب جبريل عليه السلام، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر؛ لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد! أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**»، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» قال: صدقت، فأخبرني عن الإحسان، قال:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: **«أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»** قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: **«يا عمر أتدري من السائل؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**. فالرسل هم الذين يتهيئون للملائكة بما أعدهم الله تبارك وتعالى لذلك.

وعامة الناس إنما يتهيئون للملائكة في الجنة إذا ماتوا على الإيمان، كما يجعل الله الموكلين بعذاب الكفار في النار ملائكة غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي تفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد، قالت عائشة رضي الله عنها كما جاء في صحيح البخاري ومسلم: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً، ومعنى يتفصد عرقاً أي يسيل العرق من جبينه، كما ذكر أن عنقه كان يسيل منه مثل الجمان، أي قطع الفضة أو اللؤلؤ من العرق عند نزول الوحي عليه ﷺ، مع أن رسول الله ﷺ قد أعد لذلك وهيئ له على حد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أما الشبهة الثانية من شبه الملأ الذين كفروا من قوم نوح فهي أن الذين اتبعوا نوحاً من الفقراء؛ ولذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا كذلك أمر عجيب، إذ إن هذه الشبهة مبنية على أن الغِنَى دليل العقل الثاقب والرأي السديد، وأن الإنسان إذا كان عنده مال صار عاقلاً حكيماً، مع أنه لا رابطة بين العقل والغنى على حد قول الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وكما قال الشاعر:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

والغنى والعلم والعقل والصحة وغيرها أرزاق يمنحها الله لمن يشاء من

خلقه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»، فالله تبارك وتعالى قد يعطي إنساناً مالاً ولا يعطيه علماً، وقد يعطيه علماً ولا يعطيه مالاً، وقد يعطيه مالاً وعلماً، وأما كون أتباع الأنبياء من الفقراء فقد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان كما جاء في صحيح البخاري.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني عشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن كون أتباع الأنبياء من الفقراء قد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان رضي الله عنه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا. قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وساق الحديث إلى أن قال: فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك! فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. . .

الحديث، وفيه: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإني عليك إثم الأريسيين،** و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في آخر سورة ﴿صٓ﴾ أن المشركين من قريش الذين ماتوا على الكفر يتحزنون يوم القيامة عندما يدخلون جهنم ولا يرون فيها الفقراء من أمثال صهيب وعمار وبلال وجعيل بن سراقة وخباب بن الأرت رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص: ٦٢ ـ ٦٣] فقد رفع الله تبارك وتعالى الفقراء لما آمنوا وأدخلهم الجنة. وأدخل الكبراء والرؤساء في النار لما ماتوا على الكفر، ولما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أي على غني من أغنياء مكة أو من أغنياء الطائف، قال تعالى موبخاً ومبيناً فساد رأيهم حيث يقول: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٢ ـ ٣٥] والفقر أو الغنى ليس معياراً لمقادير الرجال ومقاييسهم، فالمرء لا يقاس بغناه أو بفقره، وقد يكون الرجل غنياً وهو لا يساوي في عين الله شيئاً، ولا عند الناس وقد يكون فقيراً وهو عند الله عظيم.

وقد مر رجل من الأغنياء برسول الله ﷺ وأصحابه فسألهم عنه فقالوا: حري به إن خطب أن ينكح، وإن قال أن يستمع، وإن شفع أن يشفع، ثم مر به رجل من فقراء المسلمين وهو جعيل بن سراقة، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حري به إن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يستمع، وإن شفع ألا يشفع. فأخبرهم رسول الله ﷺ عن هذا الفقير أنه يساوي ملء الأرض من هذا الغني. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سهل رضي الله عنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا**»؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «**ما تقولون في هذا**»؟ قالوا: حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا** ـ يعني الفقير ـ **خير من ملء الأرض مثل هذا** ـ يعني الغني ـ»، فجعل رسول الله ﷺ هذا الفقير الصالح خيراً من ملء الأرض من أغنياء غير صالحين، علماً بأن الغنى الحقيقي ليس عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس**». على أن الغنى والفقر أعراض تتبدل وتتغير؛ فالمال ظل زائل وعارية مستردة. ولله در الشاعر حيث يقول:

لا تهين الفقير علك أن ... تركع يوماً والدهر قد رفعه

وقد نبَّه الله تبارك وتعالى إلى سوء فهم من يظن أن الغنى يرفع قيمة الرجل في الحقيقة، حيث يقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]، ولذلك كان الميزان العدل يوم القيامة أن يرفع الصالحين ولو كانوا في الدنيا فقراء مستضعفين في أعين الناس، وأن يخفض غير الصالحين ولو كانوا كبراء أغنياء، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ ـ ٣]. فرُب كاسية في الدنيا عارية عند الله يوم القيامة، ويا رُبَّ عارية في الدنيا كاسية عند الله يوم القيامة.

وهذه الشبهة التي أثارها المستكبرون من قوم نوح قد أثارها المستكبرون من قريش حتى طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعد الفقراء عن مجلسه ليجيئوا إليه، وأنهم لا يرضون أن يجالسوا هؤلاء الفقراء، فقال الله تعالى لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٣]، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا يقاس بماله ولا جماله ولا طوله ولا عرضه، وبهذا يتضح أن الشبهة الثانية التي أثارها قوم نوح هي شبهة داحضة عاطلة باطلة فاسدة كاسدة.

أما الشبهة الثالثة من هذه الشبه فهي أن نوحاً والمؤمنين به لا مزية لهم في الخَلْق على غيرهم، وقد حكى الله تبارك وتعالى هذه الشبهة عنهم في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: ٢٧] علماً بأن قولهم هذا يرد شبهتهم بدعواهم أنهم أفهم من الفقراء الذي وصفوهم بأنهم أراذل بادي الرأي؛ لأنهم لم يتميزوا في شيء من خلقتهم على الفقراء. فتركيب أجسام الجميع سواء. وهذه الشبهة بعينها أثارها الكفار ضد جميع المرسلين، وهي تنبئ عن عقلية فاسدة ونظرية مادية ملحدة، فهم يريدون أن يتحكموا في رحمة الله، وأن يحجروا على فضل الله، وقد بدأ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في رد هذه الشبهة وصدر بها الأجوبة الشافية الكافية، حيث قال لهم فيما حكى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فهو يجيبهم بأن النبوة رحمة من الله، وهدى من فضله، ولا يملك أحد من خلقه التحكم فيها فيمنحها من يشاء ويمنعها عمن يشاء، وخزائن رحمة الله بيده هو لا شريك له، ولذلك رد الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء على من أنكر أن يكون الرسول بشراً بدعوى أنه لا مزية لبشر على بشر فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقال تعالى في سورة ص مثيراً لشبهتهم مبطلاً له حيث يقول: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٨ ـ ٩]، وكأن نوحاً عليه السلام يرد شبهة قومه فيقول لهم: ماذا أفعل لقلوبكم إذا كانت متحجرة لا تؤمن بالله ولا تصدق المرسلين، ولا تبحث عن أسباب سعادتها، وليست خزائن الله بيدي أتصرف فيها كما أشاء، بل خزائن الله بيده هو جل وعلا، يمنح من يشاء ويمنع من يشاء، فله وحده خزائن السموات والأرض، كما أن قلوب العباد بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا سلطان لي على قلوبكم ولا سيطرة لي عليها، ثم يبرز نوح عليه السلام حجة قوية في الدلالة على رسالته وصدقه فيما يخبر به فيقول لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] أي أنا لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، مع أني أدعوكم إلى أسباب سعادتكم في الدنيا والآخرة. إذ هو يدعوهم لأقوم المناهج وأحسن أساليب الحياة الطيبة؛ مما يجلب لهم عز الدنيا ورضوان الله في الآخرة لو ساروا على المنهج الذي جاء به نوح عليه السلام. ولا شك أن من ينتصب للدعوة لإقامة هذا المنهج الراشد الذي يحفظ لهم أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم دون أن يطلب منهم أجراً في مقابلة عمله هذا الذي يعود عليهم بكل خير ويحفظهم من كل شر مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفترين وأذى السفهاء الجاحدين، لا بد وأن يكون صادقاً، ولا شك أن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين تدور في فلك الكليات الخمس، وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، والنسب، وحفظ العقل، وحفظ المال. وهي الأساس المتين للمجتمع المثالي السعيد، وقد دلت تجارب الإنسانية في تاريخها الطويل أنه ما استمسكت أمة بمنهج نبيها إلا عزت وسعدت، ولا انحرفت أمة عن منهج الأنبياء والمرسلين إلا ذلت وهانت، ولو أن جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم أرادت أن تضع لنفسها منهجاً يحفظ عليها مصالحها لأنفقت أموالاً جزيلة على (اللجان والهيئات) التي تقوم بوضع المنهج الذي تطلبه والذي قد تقضي في إعداده الأشهر والسنين، ومع ذلك لا بد وأن يكون أبتر قاصراً قد يحتاج إلى تعديل وتبديل وتعديل التعديل وتبديل التبديل مرات ومرات، كما هو الحال في

جميع الأنظمة الوضعية التي تتقاصر جملة وتفصيلاً عن منهج الأنبياء والمرسلين؛ لأن المناهج الإلهية يضعها العليم الخبير؛ لذلك تتسم بالكمال والشمول لمصالح الدنيا والآخرة والغيب والشهادة مما لا مجال فيه ألبتَّة للنظريات الوضعية والمناهج الأرضية التي لا بقاء لها ولا شمول.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث عشر

تابع: نوح عليه السلام

استمر نوح صلوات الله وسلامه عليه في رد شبهات قومه، ونبه إلى أمر خطير، وهو أن الفقراء لا ينبغي أن يهانوا، ولا ينبغي أن يذلوا بسبب فقرهم؛ وأن من يتعرض للفقراء بالإهانة والإذلال يعرِّض نفسه لعقوبة الله العاجلة والآجلة؛ ولذلك يقول نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣١]، وهنا انقطعت حجة القوم وبان باطلهم وبطلت شبههم، فلم يجدوا إلا المكابرة واستعجال العذاب، فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] فأجابهم نوح عليه السلام بأنه ليس بيده تعجيل عقوبتهم أو تأجيلها، إنما تعجيل العقوبة أو تأجيلها بيد الله وحده، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] أي إذا أراد الله إنزال العقوبة بكم لا تستطيعون الفرار منها، ولا تتمكنون من دفعها عنكم، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فنواصيكم بيده، يحكم فيها بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وأنا لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، وإنما عليَّ البلاغ، وفي هذا التنبيه إشارة كريمة جميلة إلى وجوب إخلاص التوحيد لله ﷻ؛ لأن قلوب العباد بيد الله يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً، فمن علم في نفسه خيراً وفقه وسدده وأيده واستعمله في طاعته، ومن علم في نفسه شراً خذله، ووكله إلى نفسه، ومن كتب الله له الهداية لا يشقيه أحد، ومن كتب شقوته لا يهديه أحد.

ولذلك كانت زوجة نوح من الكافرين، بل جعلها الله قدوة سيئة لكل كافر إلى يوم القيامة، كما جعل امرأة فرعون مثلاً صالحاً وقدوة حسنة لكل مؤمن إلى يوم القيامة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١٢].

الأسلوب نفسه الذي سلكه كفار قوم نوح مع نوح عليه الصلاة والسلام قد سلكه الكفار مع النبي محمد ﷺ، وسلكته سائر الأمم الكافرة مع أنبيائها ورسلها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة ص حيث يقول: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٦] أي قالوا: ربنا عجل لنا نصيبنا من العقوبة قبل يوم القيامة استهزاءً برسل الله، وكفراً بالبعث بعد الموت، إذ يقولون لأنبيائهم: نحن لا نصبر على تأجيل العذاب إلى يوم القيامة، فإن كان عندكم عذاب لنا فعجلوا به. يحسبون أن نظام الكون يخضع لشهواتهم وتمنياتهم واقتراحاتهم ويجهلون أن كل شيء عند الله بمقدار؛ لأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]؛ ولذلك قال لهم نوح عليه السلام لما استعجلوا العذاب: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]؛ لأن الأمور كلها ترجع إليه وترد جميع قضايا الكون له وحده لا شريك له؛ ولذلك ينبغي للعاقل أن يضرع إلى الله أن يثبت قلبه بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يكثر من قول: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي أو إلى أحد من خلقك طرفة عين، إنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجز وضعف وفاقة».

وبعد بيان موقف نوح عليه السلام هذا لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى إثبات رسالة محمد ﷺ وصدقه فيما يخبر به، وهو النبي الأمي ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن، فأخبر بما كان بين نوح وقومه ولم يكن شاهداً ولا دارساً حيث يقول ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]. وبها يثبت فؤاد محمد ﷺ ويبرز العبرة من سياق قصة نوح عليه السلام، وكما أشار إلى نحو ذلك في سياقه قصة موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٦] وقد أخبر الله تبارك وتعالى نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه بعد ذلك أحد حيث يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وهنا يتجلى موقف من المواقف الكبار لأنبياء الله ورسله، وكثيراً ما يقفونها، وهو أن نوحاً عليه السلام لما استيأس من قومه وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وقف خطيباً بينهم وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، يقول لهم: هاتوا جميع معبوداتكم من دون الله وحَزِّبوا أحزابكم وأصنامكم ضدي، وكونوا يداً واحدة عليَّ وحاربوني إن قدرتم وكيدوا لي ما استطعتم ولا تمهلوني وانظروا أينا يؤيده الله ويسعده ويعزه ويعليه في الدنيا والآخرة.

وهذا مقام تتقاصر دونه مقامات كبار الرجال وصناديدهم من غير الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وإلى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع عشر

تابع: نوح عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى الموقف المعجز الذي وقفه نوح عليه السلام من قومه عندما قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وقد وقف مثل هذا المقام النبيون بعد نوح عليه السلام كما ذكر الله تبارك وتعالى عن هود أنه قال لقومه وقد تحزبوا عليه وتجمعوا وأصروا على الكفر والعناد: يا قوم ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وسأنبه إن شاء الله تعالى على مثل هذه المقامات في مواقعها من قصص الأنبياء.

وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في سورة نوح طرق دعوته التي ينبغي لكل داع إلى الله عز وجل أن يتأسى به فيها، وأن يحرص على سلوكها، ولو أن الدعاة من المسلمين سلكوا الطرق التي سلكها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله لامتلأت الأرض بالإسلام، ولم يبق في الأرض إلا دين الله الذي بعث به حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر الله تبارك وتعالى عن نوح عليه السلام أنه كان يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً حيث يقول عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ١٤]، فنوح عليه السلام كان يقضي سحابة نهاره

وسحابة ليله في الدعوة إلى الله عز وجل وفي قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بيان جلي لأهداف دعوة الأنبياء والمرسلين، فهي دعوة العباد لمغفرة الله عز وجل ولرضوان الله عليهم، وفي هذا النص الكريم بيان لأساليب الدعوة من أبي كُبر الأنبياء وأول أولي العزم من المرسلين نوح عليه السلام، وقد شرح نوح عليه السلام في هذا المقام آثار الاستغفار، وبين أن الاستغفار يجلب للمستغفرين خير الدنيا والآخرة، فهو من أعظم أسباب نزول الأمطار الصالحة للعباد والبلاد، وهو من أعظم أسباب رغد العيش ووفرة الأموال والأولاد، وزينة الحياة الدنيا وتيسير وجود المزارع والجنات وجريان الأنهار والمتاع الحسن ومنح العباد صحة ونشاطاً.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً ومحمداً ﷺ نبها إلى هذه الآثار للاستغفار في قوله تعالى في دعوة محمد ﷺ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١ ـ ٣]. وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] وفي قوله تعالى في هذا المقام من سورة نوح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤]، أي ما لكم لا تخافون عظمة الله ولا تأملون ما عند الله، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، إذ كنتم أولاً نطفة، ثم صرتم علقة، ثم مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقد فسَّر بعض الجاهلين الغاوين في عصرنا الأطوار التي ذكرها نوح عليه السلام في قوله وقد خلقكم أطواراً بأنها دليل على صحة نظرية داروين في التطور والارتقاء، وأن الإنسان كان في أول وجوده حيواناً بحرياً كالسمك، ثم حيواناً برياً كالقرود والحمير، ثم تطور وارتقى حتى صار على هذا الحال المشاهد، وفي ذلك يقول بعض هؤلاء الغواة الضالين: لقد فضح الجنين القصة، يعني قصة

التطور والارتقاء وأطوار خلق الإنسان، فإن الجنين عندما يبدأ تكوينه في بطن أمه يكون كالسمكة تماماً له زعانف وخياشيم، ثم يغطى جسمه بالشعر كالقرود تماماً، ثم ينحسر الشعر عن مواضع من جسمه كالإنسان تماماً، لقد فضح الجنين القصة كما فضح مبضع الجراح القصة، فإن مبضع الجراح وهو يعمل خلف الأذن البشرية اكتشف عضلات ميتة هي التي كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير.

وهذا الذي قاله هؤلاء الدهريون محض اختلاق في جملته وتفصيله، وقد ذكرت في قصة خلق آدم أسباب فساد مقالة هؤلاء.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس عشر

تابع: نوح عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى أن بعض الغواة من المعاصرين فسر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] بأنها تدل على صحة نظرية (داروين) في التطور والارتقاء. وبيَّنت فساد مذهب هؤلاء، وسقت الدليل القطعي على تفسير هذه الأطوار في كتاب الله عز وجل، وأشرت إلى ما ذكرته كذلك عنها في قصة خلق آدم عليه السلام من قصة آدم. وأشرت هناك إلى أن جميع المؤمنين بالله ورسله يكفرون بنظرية (داروين) هذه، وإنما يروج لها اليهود والماسونيون لزعزعة العقائد وإبطال الشرائع كما جاء النص على ذلك في (بروتوكولات حكماء صهيون).

هذا وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أن نوحاً عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يرد خبر صحيح عن سنِّه يوم بعثه الله عز وجل إلى قومه، وقال بعض الناس إنه بعث وهو ابن خمسين سنة، وبعض الناس يقول: إنه بعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة، والله وحده يعلم كم كانت سنه وقت بعثته ما دام لم يرد عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم شيء في ذلك. كما لم يبين الله عز وجل أو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم المدة التي عاشها نوح عليه السلام بعد الطوفان، ولم يرد في حديث صحيح شيء من ذلك، لكن يبين الله تبارك وتعالى أن نوحاً لما استيأس من قومه بعد أن أعلمه الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره الله عز وجل أن يصنع الفُلْك وبيَّن له أن الكافرين من قومه مغرقون، وأنه لا يبتئس بما كانوا يفعلون، وأشار الله عز وجل إلى سخرية قومه منه وهو يصنع السفينة، وأنه لما حُمَّ القضاء فجَّر الله الأرض عيوناً وفتح أبواب السماء بماء منهمر، فركب نوح والمؤمنون وحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة «الصافات»: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ

﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٨٢]، وقال في سورة «القمر»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٧]، وقال تعالى في سورة «الحاقة»: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧]، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠]، وقال في سورة هود: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٣٦ ـ ٤١].

والمشهور عند الأمم أن الذين ركبوا في السفينة مع نوح من المؤمنين هم ولده سام وحام ويافث وزوجاتهم وزوجة يام الذي كان مع الكافرين، وقد حمل نوح في السفينة ما شاء الله أن يحمل من الأزواج، وبعض الناس يغالي فيقول: حمل كذا وحمل كذا، ويعين ويحدد أسماء لم تثبت عن الله ولا عن رسوله ﷺ، ومن الغرائب العجائب أن بعضهم يقول: لما أركب نوح الأسد في السفينة وأركب الفأر خاف الناس وقالوا: يا نوح إن الفأر يفسد علينا طعامنا، فأوحى الله إلى الأسد أن اعطس فعطس الأسد، فخرجت من منخاره هرة فخاف الفأر واختبأ، وقال الناس: يا نوح إنا نخاف من الحيوانات المتوحشة فألقى الله عليها الحمى... إلخ.

فهذه حكايات وخرافات لا يثبت مثلها عن الله ولا عن رسوله ﷺ، وينبغي للمسلمين أن يترفعوا عن إيراد مثل هذه الخرافات، ولا ينبغي للإنسان أن يتكلم عن الله أو عن رسول من رسله إلا بعلم وبينة، ولا نكون كأهل الكتاب الذين ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وقد أعدَّ نوح سفينته من الخشب والمسامير، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] أي على سفينة مكونة من الخشب والمسامير، فالدسر جمع دسار وهو المسمار، وقد علمهم الله ﷻ أنهم عندما يركبون السفينة يبدؤون بحمد الله وشكره حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال نوح لهم: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤١ ـ ٤٣].

وهذا تنبيه إلى أن قلوب العباد بيد الله لا يملكها نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولا يُصرِّفُها حيث يشاء إلا الله وحده؛ ولذلك كان من ذرية الأنبياء

المؤمن والكافر؛ ولذلك يقول الله ﷻ في إبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال في نوح وإبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد استقرت سفينة نوح على الجودي بعد أن قيل: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]. والجودي عند أكثر أهل العلم جبل، وأنه في الجزيرة بالعراق، وبعضهم يقول: هو في جبال أرارات التي تقع فيما يسمى الآن بالاتحاد السوفيتي. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧] وهذا المقام من نوح عليه السلام صدر عن ظن منه أن قوله: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] أن ولده من أهله، فبين الله أنه ليس من أهله؛ لأنه غير صالح؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص: «**إن آل أبي يعني فلاناً ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»، وقد فسر بعض الناس قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] على أنه ولد زنا، وهذا خطأ، فإنه لم تزن زوجة نبي قط مع أنها قد تكفر بالله كزوجة نوح وزوجة لوط؛ ولذلك جاء في القراءة الأخرى إنه عَمِل غيرَ صالح، وهي تفسر قوله في القراءة الأولى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. وكم من ولد يعق أباه! وكم من رجل صالح يخرج من صلبه ولد فاسد! وما أجود قول حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ورضي الله عنه:

أبوك أب حر وأمك حرة ... وقد يلد الحران غير نجيب
فلا يعجبن الناسُ منك ومنهما ... فما خبث من فضة بعجيب

ولما نبه الله ﷻ نوحاً إلى حال ولده الكافر اعتذر نوح إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ

رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هـود: ٤٧ ـ ٤٨]، سـلام عـلـى نـوح فـي المرسلين.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس عشر

قصة هود عليه السلام

نتحدث إليكم عن هود عليه السلام، وهو أول رسول عربي ذكر الله قصته في القرآن الكريم، ولم نقف على عمود نسبه في خبر صحيح. فقد اختلف المؤرخون في عمود نسبه، فبعضهم يقول: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود أو جاور بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكل هذه الأقوال لا يمكن الاعتماد عليها؛ لأنه لم يقم على إثباتها دليل صحيح، مع أن هوداً عليه السلام جاء لعاد بعد أن صاروا أمة عظيمة، فكيف يكون بينه وبين سام بن نوح أبوان على الرواية الأولى والثانية، أو كيف يكون عاد هو جده الثاني على الرواية الثالثة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً عليه السلام أرسل إلى عاد، وأنهم كانوا يسكنون الأحقاف الواقعة باليمن بين عمان وحضرموت المطلة على البحر بناحية الشَّحْر وتصل إلى الدهناء وعالج، وكانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جناناً، والأحقاف جمع حقف: وهو المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير، أو المستطيل المشرف، وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الأحقاف، وكانت قبيلة عاد التي أرسل إليها هود عليه السلام من أشد الأمم قوة ومن أعظمهم بطشاً وأوفرهم أجساماً، لم يخلق مثلها في البلاد، ويقال لهم: عاد إرم، وعاد الأولى أي المتقدمة في التاريخ احترازاً من عاد الثانية، وهي ثمود قوم صالح عليه السلام، وقبيلة عاد من العرب العاربة، وقد ذكر كثير من المفسرين أنهم أول الأمم بعد قوم نوح عليه السلام؛ مستدلين بأن الله تبارك وتعالى ذكر في غير موضع من كتابه الكريم قوم هود عليه السلام بعد ذكر قوم نوح عليه السلام، كما في سورة الأعراف وهود والشعراء

واقتربت الساعة، على أن ذكر الله تبارك وتعالى لهود بعد نوح في هذه السورة الكريمة لا يدل على أن هوداً جاء بعد نوح مباشرة، وأن قوم هود هم أول من أشرك بالله بعد الطوفان؛ لأن الله تبارك وتعالى قال عن هود في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال في سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣ ـ ١٤]، فهو صريح بأن هوداً عليه السلام تقدمه منذرون مرسلون من الله عز وجل لم يذكر الله عز وجل قصصهم على حد قوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. غير أن سياق القرآن العظيم لقصة هود بعد نوح وتذكير هود قومه بقصة نوح في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، يشعر بقرب زمان قوم هود من قوم نوح، وأن عاداً كانوا على علم تام بقصة الطوفان.

وقد اشتملت قصة هود عليه السلام في القرآن العظيم والسنة النبوية على نقاط منها: أن أهم مهمات دعوة المرسلين هي تخليص قومهم من الشرك بالله، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]. وقال في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. ومن نقاط قصة هود عليه السلام لفت انتباه قومه إلى أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً، وهو شأن جميع المرسلين، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة هود عن هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. وقال عنه في سورة الشعراء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠]، ولا شك أنهم لو كانت لهم عقول لسارعوا إلى تصديقه ما دام أنه قد تصدى لهذا الأمر

العظيم دون أن يطلب من أحد من خلق الله أجراً على ذلك مع ثقل المهمة التي يؤديها.

ومن نقاط هذه القصة أن رسل الله كانوا يدعون قومهم ويدلونهم على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وأن الرجوع إلى الله والابتعاد عن المعاصي، والوقوف عند حدود الله، هي أعظم أسباب سعادة العاجلة والآجلة، وفي ذلك يقول الله تعالى في قصة هود في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وهذا كقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]. وكذلك عن محمد عليه السلام في مطلع سورة هود: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

ومن نقاط هذه القصة بيان أن الكافرين عندما يعجزون عن مجابهة الحجج التي يأتي بها الرسول وتبدو عليهم الحيرة فلا يجدون شيئاً يردون به سوى أنهم يخافون على هذا الرسول من آلهتهم أن تصيبه بسوء. وهنا يظهر التحدي الكبير بين الرسول وهو وحده أمامهم بأنه لا يخاف آلهتهم؛ لأنها تعجز أن تمسه بسوء، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤] فيكون التحدي الكبير حيث يقول: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٧]. وموقف هود عليه السلام هذا شبيه بموقف نوح عليه السلام، حيث قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وهو شبيه أيضاً

بموقف إبراهيم عليه السلام حيث قال لقومه لما خوفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع عشر

تابع: قصة هود عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن نسب هود عليه السلام وعن الأمة التي بعث إليها، وعن أرضهم، وقوة بطشهم، وبعض المهمات التي برزت في دعوته عليه الصلاة والسلام، ونتحدث في هذا الفصل عما جلاه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم في قصة هود عليه السلام وتحزب قومه عليه وتحذيره لهم من عقوبة الله، وكيف كان عذاب الله عز وجل لهم؟ وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة هود في كتابه الكريم في مواضع شتى من القرآن العظيم على سبيل الإطناب حيناً، والمساواة حيناً، والإيجاز حيناً آخر، بما يناسب كل مقام من مقامات إيراد قصة هذا النبي العظيم.

ففي سورة الأعراف يقول الله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢].

وفي سورة هود يقول عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠ ـ ٦٠].

وفي سورة الشعراء يقول الحق جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٤٠].

وقال ﷻ في سورة فصلت متهدداً قريشاً بمثل عقوبة عاد وثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٣ ـ ١٦].

وقال ﷻ في سورة الأحقاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٣]، ثم يصف العذاب الذي حل بهم فيقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٦].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢]. وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، وقال في اقتربت الساعة: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢٢]، وقال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]. وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة ﵂ أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم، وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأتيه عُرِف في وجهك الكراهية؟! فقال: «**يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**».

كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**». قالت: وإذا غُيِّبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته، فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾**».

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور**».

والى الفصل القادم ان شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن عشر

قصة صالح عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن صالح نبي الله ورسوله ﷺ. وهو ثاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامه عليهما، بعثه الله في جزيرة العرب، وقد أرسله الله ﷻ إلى قومه ثمود، وقد ذكر علماء النسب أنه صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ أو ماسح بن عبيد بن حاجر أو حادر بن ثمود بن عابر أو عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وكان قومه يسكنون الحجر، وهي الأرض المعروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالح، وتقع على بعد نحو ثمانين وثلاث مئة «كيلومتر» شمال غرب من المدينة المنورة، ويقع في جنوبيها الآن مدينة العلا، ولا يزال بعض آبارها ولا سيما البئر المعروفة ببئر الناقة باقية إلى الآن، كما لا تزال آثار ثمود من البيوت والمقابر موجودة حتى الآن، وبخاصة البيوت التي كانوا ينحتونها في الجبال.

وكانت ثمود يعيشون آمنين في بساتين وارفة الظلال كثيرة العيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، يتخذون في سهول الأرض قصوراً، وينحتون من الجبال بيوتاً آية في الحذق والمهارة والزينة. وقد يسر الله ﷻ لهم أسباب رغد العيش، وكانوا أقرب الأمم التي جاءت بعد قوم هود عليه السلام، وكانوا على علم بخبرها وما أوقعه الله بهم من سوء العذاب لما كفروا بربهم وعبدوا الأصنام والأوثان، غير أن ثمود أطغتهم النعمة، فجحدوا بآيات ربهم وكفروا بآلائه، فبعث الله ﷻ إليهم رسولاً منهم هو صالح صلوات الله وسلامه عليه، فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ وإفراده بالألوهية، والربوبية، والإقرار بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وذكرهم نعم الله عليهم وخوفهم من عقوبته، ونبههم إلى أن استمرارهم في الشرك بالله وجحودهم نعم الله قد ينزل بهم ما نزل بقوم هود، وقد أجابه إلى الله ﷻ

المستضعفون منهم، وأبى المستكبرون أن ينيبوا إلى الله و﴿قَالُواْ يَصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود: ٦٢].

وطلبوا منه آية: فأخرج الله عز وجل لهم الناقة من الصخر. وقال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود: ٦٤].

وكان من آيات الله في آية الناقة أنها كانت تشرب من الماء ما يكاد يقضي على مياههم، فاتفق صالح عليه السلام معهم على اقتسام الماء بينهم وبين الناقة، فتشرب يوماً لا يشاركونها في الماء، ويشربون يوماً لا تشاركهم الناقة في شربهم، ومع أن هذه الآية تبهر العقول، فيها الدليل القاطع والبرهان الساطع على صدق صالح عليه الصلاة والسلام، فهي آية مبصرة، وحجة قاهرة، ومع ذلك فقد استمر المستكبرون على عنادهم، وأصروا على كفرهم وضلالهم، وحاولوا أن يحولوا بين المؤمنين وبين صالح رسول الله ﷺ، وعملوا على إثارة الشُّبه في دعوة صالح عليه السلام، وقد منع الله عنهم المطر تخويفاً وإنذاراً، فقال المستكبرون: إن صالحاً سبب جدب بلادنا ومجيئه شؤم علينا، واتِّباع المؤمنين به له محق لبركة أرضنا ومياهنا، وقالوا لصالح: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: ٤٧] وسبب شؤمكم منكم، فرسل الله هم وجوه البر والخير، وهم أسباب سعادة الإنسانية إن استمسكت بمنهجهم وعملت بتعاليمهم، وأرشدهم ﷺ إلى أن توبتهم إلى الله والاستغفار من السيئات يجلب لهم خير الدنيا والآخرة، وقال: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] فلم يستجيبوا له وقالوا للمؤمنين: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الأعراف: ٧٥]، قال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]. ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ٧٧] وعصوا رسله، واجتمع زعماؤهم على أن يعقروا الناقة، فانبعث لها أشقى ثمود، وهو رجل عارم عزيز منيع في رهطه

فعقرها، واستعجلوا العذاب ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وأصرَّ تسعة رهط منهم من المفسدين في الأرض على قتل صالح وإلحاقه بالناقة و﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] أي لنكبسنه في داره بالليل مع أهله فَلَنَقْتُلَنَّهُ ولنجحدن قتله، فلنقولن لأولياء دمه من المشركين: ما شهدنا مهلكه ولا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، ودبروا ودبر الله فنجاه ومن معه من المؤمنين، وأرسل الله ﷻ عليهم الصيحة من فوقهم ورجفة من تحتهم على حد قوله ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥١]، وكما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٨]. وكما قال الله ﷻ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧ ـ ٧٩]، وكما قال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ ـ ٨٤]، وكما قال ﷻ: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣١] وكما قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

هذا ولا وجود لذكر عاد وثمود في الكتب التي بيد اليهود والنصارى، مما يشعر بأنهم حرصوا على إزالة كل ذكر للنبوة في الأمة العربية حسداً للعرب وكراهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع عشر

تابع: قصة صالح عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن صالح عليه السلام، وأشرت إلى أنه ثاني رسول عربي بعد هود عليه السلام، وذكرت مساكن قومه ثمود، ونسبهم وطبيعة أرضهم وما أفاء الله عليهم، وما كانوا عليه من الشرك والفساد، وأن صالحاً ﷺ بدأ بدعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأصنام والأوثان، وأن المستضعفين سارعوا إلى الإيمان به، وكفر المستكبرون، وأشرت إلى ما كان منهم من عقر الناقة ومكرهم في تبييت صالح ﷺ وكيف نجاه الله منهم، وأنزل بهم عقوبته، وذكرت أن هوداً وصالحاً صلى الله عليهما وسلم لا ذكر لهما ولا لقوميهما في كتب اليهود والنصارى، مما يشعر بحرصهم على إزالة كل ذكر للنبوة في الأمة العربية؛ حسداً للعرب وكراهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل.

ونشير هنا إلى أنه ورد في القرآن العظيم ما يشعر بأن نبي الله موسى ﷺ حذر قومه أن يحل بهم ما أوقعه بقوم هود وقوم صالح صلى الله عليهما وسلم كما قال عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ٨ ـ ١٠]، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة صالح ﷺ في مواضع من كتابه الكريم بأساليب تناسب كل مقام من مقامات إيراد هذه القصة، كما قرنه مع كثير من أنبياء الله ورسله، وفي ذلك يقول في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ

قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] يعني جعلكم عمار الأرض ويسر لكم أسباب عمارتها بما هيأ فيها وأنبت من الزروع والثمار ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] «أي آية واضحة جلية ومعجزة ظاهرة دالة على وحدانية الله مرشدة إلى أنه لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه».

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ «أي جحدوا هذه الآية وكفروا بها ومنعوا الناقة من شربها وعقروها» ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٩] «أي حاذقين في صنعها وإحكامها وإتقانها» ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٩].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥٣].

وقال في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٣ - ٣١] أي صاروا كالمتفتت من يابس الزروع في حظيرة الماشية.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ **انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة**».

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل العشرون

إبراهيم عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وخليل الرحمن، وأكثر الناس شبهاً بخَلْق وخُلُق محمد ﷺ، وأحد السادة الكبار من أولي العزم من المرسلين، الأُمَّة، القانت، الحنيف، الأواه، الحليم، إبراهيم عليه السلام، وأبوه آزر من ذرية سام بن نوح عليه السلام، وقد وُلد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والأوثان، ويسجدون للكواكب السبعة، ويقيمون الهياكل لها، فبعث الله إليهم إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده، واتخذ في دعوته من سُبُل الإرشاد ما تقوم به الحجة، وتنقطع به الشبهة، وقد ساق الله تبارك وتعالى صوراً من أساليب دعوة إبراهيم عليه السلام في محاورته لقومه، وإرشادهم إلى الله تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٥] أي: نبين له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: أهذا يصلح لأن يكون ربّاً يُعْبَدُ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي فلما غاب هذا النجم الذي يعبده قومه ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] «وهذا أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم» ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعاً، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ «أي: أهذا يصلح لأن يكون رباً يُعبد؟»، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] «وقد أراد عليه السلام بهذا القول أن يستدرج قومه ويُعرفهم جهلهم، وخطأهم في تعظيم وعبادة هذه الكواكب الآفلة، وأن ناصية الخلق بيد الله وحده، فمن لم يهده الله فلا هادي له»، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ

بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩] «أي: مائلاً إلى الدين القيم» ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. «وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائغ شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب، وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٣٤]. أي: أفَهُمُ الخالدون؟

ويشير القرآن العظيم إلى موقف قومه من هذه الحجة البالغة وأنهم لما انقطعوا لجؤوا إلى تخويفه من بطش آلهتهم به، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣].

ويذكر الله ﷻ صورة أخرى من صور قيام إبراهيم عليه السلام ببيان أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وأن غيره من معبوداتهم لا تسمع ولا تنفع فيقول ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠] «سألهم عن معبوداتهم ليبني على جوابهم أن هذه الآلهة لا تستحق شيئاً من العبادة ليقطع شبهتهم» ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٧١ ـ ٨٦]. «وهذا كان بسبب موعدة وعدها إبراهيم فَهِم منها إبراهيم عليه السلام أن أباه مقارب

للإيمان، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم يستمر إبراهيم في ضراعته إلى الله وبسط دعوته لقومه فيقول: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]؛ وفي صورة مشرقة من صور عرض دعوة إبراهيم عليه السلام وموقفه من قومه بعد أن استجابت له زوجته سارة ولوط عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] «أي فلا تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦].

ويصف الله تبارك وتعالى موقفاً مشرقاً من مواقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر فيقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ «أي: عظيم اللطف بي كثير الإحسان إليَّ» ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨].

وفي موقف آخر من مواقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ (أي: يطعن عليهم ويسبهم) يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠].

ويسوق الله ﷻ قصة ملك الكلدانيين في استجوابه لإبراهيم عن ربه وقول إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فيتطاول هذا الملك ويقول: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فيفحمه إبراهيم بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ فينقطع هذا الكافر وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أن إبراهيم قد جرت هذه المناظرة بينه وبين الملك لما قدم لطلب طعام منه، وأن الملك رفض إعطاءه الطعام، وأن إبراهيم قد اشتد حزنه عندما اقترب من منزل أهله وأنه كيف يدخل على سارة وإسحاق ولده دون طعام، فعمد إلى كثيب من التراب فملأ جرابيه منه ليؤنس أهله، فلما نام انقلب التراب دقيقاً أبيض خالصاً، فلما فتحت سارة الجراب وجدت الدقيق فصنعت طعاماً منه، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام، فقال: مِنْ أين لك هذا؟ قالت: من جرابك. إلخ. فهذا كذب ظاهر ولا أصل له بحمد الله، وإسحاق لم يولد إلا بالشام.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن صور مشرقة من دعوة إبراهيم عليه السلام، وذكرت في آخرها ما كان من المناظرة بين الخليل عليه السلام وبين ملك الكلدانيين الذي حاج إبراهيم في ربه، وكيف أقام إبراهيم عليه السلام الحُجة الدامغة، فبُهت الذي كفر، ولم يزل إبراهيم عليه السلام يوالي دعوة قومه إلى الله، ويحاول إخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ٢٦].

وقد هاجر إبراهيم عليه السلام ومعه زوجته سارة ولوط إلى الشام، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى

بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧١].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى تعاون الوزغ مع قوم إبراهيم في محاولة إحراقه، وأن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وفي لفظ البخاري: «**كان ينفخ على إبراهيم**».

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**».

وقد نزل إبراهيم عليه السلام بالشام وهي بلاد الكنعانيين ومعه زوجته سارة ولوط، فأرسل الله عز وجل لوطاً إلى أهل سدوم وعمورة ونواحيها من دائرة الأردن. وسار إبراهيم وسارة إلى مصر. فأُخبر ملك مصر بجمال زوجة إبراهيم، وأغرى بها فنجاها الله منه، وأخدمها هاجر، فوهبتها لإبراهيم، فرزقه الله منها إسماعيل عليه السلام، ورجع إبراهيم بأهله إلى الأرض المقدسة بفلسطين، وصار بين سارة وهاجر بعض الشيء لما قضاه الله عز وجل أن يعمر ولدها إسماعيل مع أبيه البيت الحرام بمكة، فهربت هاجر من سارة، وأمر الله عز وجل إبراهيم أن يحمل هاجر وإسماعيل لمكة.

واتخذت هاجر منطقاً تشد به وسطها وترسل طرفه كذيل خلفها يُعفي آثارها على سارة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطق من قِبَل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حتى بلغ

﴿يَشْكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها. فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهِ تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم**» أو قال: «**لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً**»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً أو جريين «أي رسولاً أو رسولين» فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**»، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنْفَسَهُمْ وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع

تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا وفي رواية يصيد لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي ﷺ وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: **«ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه»** قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي ﷺ، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ووضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى مجيء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وهاجر إلى مكة، وذكرت ما أورده البخاري في صحيحه عن هذه القصة، وعن نشأة إسماعيل عليه السلام، وما كان من شأنه مع قبيلة جرهم، وتعلمه اللسان العربي ومساعدة أبيه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة بناء الكعبة في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٩].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ ـ ١٢٩]. كما أشار الله ﷻ إلى ما كان من إبراهيم في وضعه هاجر وإسماعيل عند مكان البيت

حيث يقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقد استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم فجعل هذا البيت آمناً، يجبى إليه ثمرات كل شيء، كما قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. وكما قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. .

كما استجاب الله تبارك وتعالى إلى دعاء خليله إبراهيم فأرسل محمداً ﷺ من ذرية إسماعيل أهل البيت الحرام يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ ولذلك جاء في الحديث الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**». كما جاء في مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث أبي أُمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والعِربَاض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لأبي أُمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كما ذكر الله تبارك وتعالى قصة هجرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبشارته بإسماعيل وقصة رؤياه بذبحه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٩]. وكأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أراد أن يفرقهم ليبتعدوا عنه حتى يتفرغ لتحطيم أصنامهم بإيهامهم أنه مريض حتى لا يلامسوه وبخاصة بعد نظرته في النجوم، ونظرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في النجوم لم يقصد بها أن يتعرف من النجم عن حالته، كما أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ لم يرد بها أنه مريض بمرض معد، وإنما أراد في نفسه أنه ضعيف، وكل ابن آدم ضعيف مهما كانت صحته. وقد خُلق الإنسان ضعيفاً، فهذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، حاشاه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يكذب، على أنه قد يطلق على المعاريض أنها كذب باعتبار حقيقة المراد، لكنه ليس الكذب المذموم بل هو كإطلاق الحسد على الغبطة، في مثل قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا حسد إلا في اثنتين، رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**.

وقد فسّر عامة العلماء الحسد في هذا الحديث، بأنه الغبطة، إذ الحسد المذموم هو تمني زوال النعمة عن الغير، ولا شك عند أهل العلم أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وكذلك لمَّا سأله ملك مصر عن سارة فقال: إنها أختي لا شك عند العلماء أن ذلك ليس من باب الكذب المذموم، وإنما هو من باب التورية والمعاريض.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩٠ ـ ٩١] «لأن الكفار قد جعلوا عند أصنامهم طعاماً» ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٢ ـ ٩٩] «أي إني مهاجر إلى الله عز وجل من دار الكفر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وأملي في الله عز وجل أن يرشدني إلى سبيل الخير وما فيه صلاح ديني ودنياي».

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠٣] «أي انقادا لأمر الله» ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١١٣].

ولا شك أن سياق هذه الآيات الكريمة يدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق عليه السلام؛ لأنه ذكر البشارة بإسحاق بعد البشارة بإسماعيل الذي وصفه بأنه غلام حليم، وقد وصف إسحاق عند البشارة به بأنه غلام عليم، ومن الأدلة أيضاً

على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أنه عند البشارة بإسحاق قال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهو يفيد أن إسحاق سيعيش ويولد له في حياة أبيه، فيكف يؤمر بذبحه وهو غلام لم يولد له بعد، مع يقينه بأنه لن يموت حتى يولد له يعقوب، وقد حدَّث ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم فقال: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. يقول بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً، وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ﷺ وهو خليفة، إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديّاً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز ﷺ عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم، الذي كان من أمر الله فيه. والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.ا.هـ. كما ذكر ابن كثير رحمه الله، وليس هذا أول جحد من اليهود، فقد جحدوا أن يكون إبراهيم بنى الكعبة، ولعلم الله تعالى بما يكون من اليهود أبقى في البيت الحرام مقام إبراهيم ليكون شاهداً عليهم إلى يوم القيامة يتوارث العلم به جيل بعد جيل، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى أن الله تعالى أبقى مقام إبراهيم في البيت الحرام؛ ليكون شاهداً على بناء إبراهم لهذا البيت، لما يعلم من أن اليهود سيجحدون أن يكون إبراهيم هو الذي بنى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة. وجعل في ذلك آيات بينات حيث يقول: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران: ٩٧] وكما قال ﷻ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥] وأشرت إلى أن العرب لم يزالوا يتوارثون معرفة مقام إبراهيم جيلاً بعد جيل إلى أن بعث رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

ويؤثر أن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو دون الخامسة من عمره ﷺ فيأخذه عبد المطلب ويجلسه على فراشه، فجاء جماعة من بني مدلج يطوفون حول الكعبة، فلما رأوا قدم رسول الله ﷺ أمعنوا النظر فيها ثم أمعنوا النظر في مقام إبراهيم، ثم قالوا لعبد المطلب: لمن هذا الغلام يا شيخ؟ قال: هذا محمد ولدي، قالوا: ما رأينا قدماً شبيهة بالتي في الصخر من قدم ولدك هذا.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ وصف إبراهيم الخليل عليه السلام بأنه أشبه الناس بمحمد ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال وهو يتحدث عن ليلة أُسري به: «**رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب** ـ أي خفيف اللحم ـ **رِجلٌ** ـ أي دهين الشعر ـ **كأنه من رجال أزد شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس** ـ يعني الحمام ـ **وأنا أشبه ولد إبراهيم به**»، وكما

جمع الله ﷻ بين محمد ﷺ وأبيه إبراهيم في الشبه، جمع بينهما كذلك في صفة الخلة، فلم يتخذ الله خليلاً غير محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وجمع كذلك بينهما في الصلاة عليهما فنقول في التشهد: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وقد حرص اليهود على قطع كل صلة للعرب بإسماعيل وإبراهيم، وحذفوا من التوراة كل ما يتصل بإسماعيل بعد أن أخذه أبوه وتركه وأمه في برية فاران، وقطعوا كل أخباره بعد ذلك. وقد جهلوا أو تجاهلوا أن برية فاران هي أرض مكة.

وقد استقر إبراهيم عليه السلام بالأرض المباركة بفلسطين، إلا أنه كان يتردد إلى مكة ليتعاهد تركته فيها ويطوف بالبيت العتيق، وقد دعا لمكة قبل بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وفي زورة من زوراته لمكة بعد بناء البيت وميلاد إسحاق قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا...﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد كان لوط عليه السلام لقي من قومه عنتاً ومشقة وكذبوه وكذبوا المرسلين. وكانوا يأتون الذكران من العالمين، فلما أراد الله ﷻ إهلاك قوم لوط أرسل بعض الملائكة لإهلاكهم، وأمرهم أن يمروا بإبراهيم قبل تدمير قُرى قوم لوط ليبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد ساق الله ﷻ قصة البشارة بإسحاق في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾«تريد رحمها الله أنها عقيم وعجوز، وأن زوجها إبراهيم عليه السلام قد تجاوز التسعين عاماً» ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠]. وقد نص القرآن الكريم على أن يعقوب ولد إسحق حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإبراهيم جد، وإسماعيل عم، وإسحق والد، والكل يطلق عليه اسم الأب. وقد وصف الله تبارك وتعالى إبراهيم بصفات فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وأما ما ساقه الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهو صريح في أن إبراهيم كان عند سؤاله موقناً بالبعث وبقدرة الله على إحياء الموتى، لكنه أحب أن يضيف إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المادية المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، وقد أورد الله

تعالى في سورة البقرة مجموعة من الأمثلة على ذلك، فذكر قصة قتيل بني إسرائيل وضربه ببعض البقرة المذبوحة وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ثم ساق بعد هذه القصة مباشرة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، «**ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**». فإن المقصود من هذا هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علو منازلهم، وأن إبراهيم لو كان شاكاً لكنت أولى بالشك منه، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمداً ﷺ يشك في قدرة الله على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم عليه السلام، فهو من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد المدح بما يشبه الذم.

والركن الشديد الذي أوى إليه لوط هو الله تبارك وتعالى. وقوله في الآية: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]. ﴿أَوۡ﴾ فيها بمعنى بل أي، بل آوي إلى الله عز وجل. ثم الثناء على يوسف باعتصامه عن السوء مع ما لقي من الأذى

والسجن. وقول رسول الله ﷺ: «**ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**» أي لسارعت إلى ما دعاني إليه رسول الملك وخرجت من السجن، وقد أراد رسول الله ﷺ أن ينبه إلى المرتبة العُليا التي حازها يوسف الصديق عليه السلام.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والعشرون

تابع إبراهيم عليه السلام

أشرتُ في الفصل السابق إلى ما قصَّه الله تبارك وتعالى عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ الآية [البقرة: ٢٦٠]، وبيَّنت المراد من قول رسول الله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»، وأوضحت أن ما كان من إبراهيم عليه السلام ليس شكاً، وأن مراد رسول الله ﷺ الثناء على إبراهيم وبيان علو منزلته، وأن هذا جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف بتأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتأسى بإبراهيم عليه السلام وفي ذلك ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

وردَّ على اليهود والنصارى دعوى حبهم لإبراهيم وأنه على ملتهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم بأنه وَفَّى، أي أتم كل ما أمره الله عز وجل به،

وفي ذلك يقول: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. ويقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

ولقد كان المشركون يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم، وقد صوروا إبراهيم وإسماعيل وعلقوا صورتيهما بالكعبة وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها، فأقسم رسول الله ﷺ أنهما لم يستقسما بالأزلام قط، وأمر بالصور فمُحيت.

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: «**قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط**» وفي بعض ألفاظ البخاري لهذا الحديث قال: «**قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط**».

ولم يتخذ الله تعالى مِن خلقه غير خليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فقد ثبت في الصحيحين من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً**».

كما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في آخر خطبة خطبها: «**أيها الناس، لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**».

كما روى البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً رضي الله عنه لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فقال رجل من القوم: لقد قرَّت عين أم إبراهيم.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا

رسول الله! مَنْ أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فعن معادن العرب تسألونني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن إبراهيم خليل الرحمن أول من يُكسى يوم القيامة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُحشر الناس عُراة غُرلاً، فأول من يُكسى إبراهيم عليه السلام**» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقد جعل الله تعالى من مكافأة إبراهيم عليه السلام على بنائه الكعبة المشرفة بأن جعله يسند ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة كما جاء في صحيح البخاري في حديث رسول الله ﷺ عن الإسراء حيث قال: «**فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: ومن معك؟ قيل محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ مرحباً به ونعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن ونبي**». وفي لفظ: «**مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، وإذا هو ـ أي إبراهيم ـ مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه**».

ومع هذه الكرامة وعلو المنزلة لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فإنه لم ينفع أباه لمّا مات على الشرك، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصِني، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون. فأي خزي أخزى من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: «إني حرَّمت الجنة على الكافرين». ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

وهذا كما قال رسول الله ﷺ: «**يا فاطمة بنت محمد! اسأليني من مالي ما شئت فلن أغني عنك من الله شيئاً، ويا عباس عم النبي! اشتر نفسك لا أُغني عنك**

من الله شيئاً». وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. ولما قال النبي ﷺ بعد موت أبي طالب: **«لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عن ذلك»** فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وقد آثرت أن الله تبارك وتعالى جمع بين إبراهيم ومحمد ﷺ في صفاتهما الخِلْقية والخُلُقية، فكان محمد ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين ويقول: **«إن أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»**.

وقد حصر الله النبوة والكتاب بعد إبراهيم عليه السلام في ذريته حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وكما قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم عليه السلام على نبي من الأنبياء ففي ذريته، فقد ولد لإسحق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم، وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم.

أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل عليه السلام، ومن ذريته خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وهو الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة، وهو صاحب

المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سأقوم مقاماً يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم**».

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس والعشرون

لوط عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن لوط نبي الله ورسوله ﷺ، وقد قرن الله تبارك وتعالى قصة لوط بقصة إبراهيم عليه السلام في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وذكر عز وجل أن لوطاً آمن لإبراهيم، وأشار إلى أنه هاجر معه، حيث يقول: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد أشرتُ في ما مضى إلى أن الله عز وجل أرسل لوطاً إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن، وبقي خليل الرحمن في فلسطين، وكان أهل سدوم وقُراها من أكفر خلق الله وأفجرهم، وقد ابتدعوا في الفجور بدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكانوا مع شركهم بالله عز وجل يأتون الذكران من العالمين، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر ويعملون الخبائث، فجاءهم لوط عليه السلام يدعوهم إلى ربهم وينهاهم عن هذه الجرائم التي يرتكبونها، ويحذرهم من عقوبة الله إذا استمروا على باطلهم، فلم يستجيبوا له، وقال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وكأنهم من تَسَلُّط الرجس على قلوبهم صاروا يعدون الطهارة عيباً، يستحق به المتطهر الإبعاد.

وقالوا للوط عليه السلام: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قال لوط عليه السلام عندما استيأس منهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، فأرسل الله عز وجل ملائكة وأمرهم أن يمروا بإبراهيم الخليل يبشرونه بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب، وأمرهم إذا انصرفوا من عند إبراهيم أن يقلبوا قرى قوم لوط على أهلها بعد أن يأمروا لوطاً بالخروج من ديارهم. فجاؤوا إلى سدوم في صورة رجال من أجمل خلق الله، فجاء قوم لوط إليهم مسرعين يريدون بهم السوء، فانذعر لوط عليه السلام، وقال لقومه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا

تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، إن نساءكم خير لكم وأطهر، قالوا: يا لوط! أنت تعرف أن شهوتنا في الرجال، ولا رغبة لنا في النساء، فاشتد غيظ لوط عليه السلام، وقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] يعني لدمرتكم، ولكني آوي إلى الله عز وجل، فمن أوى إليه فقد أوى إلى ركن شديد، فعند ذلك أعلمه الضيوف أنهم ملائكة، وأنهم رُسُل الله لإهلاك قومه، ويذكر أن جبريل عليه السلام بعد أن طمأن لوطاً عليه السلام على أنه لن ينالهم منهم أذى ضرب جبريل أعينهم فطمسها، وقالوا للوط: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]. وبشروه بأن ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فخرج لوط عليه السلام وابنتاه، فنجاهم الله من العذاب الأليم، وقلبت الملائكة أرض قوم لوط عليهم، فجاءهم حاصب من فوقهم، وخسف من تحتهم، فانقلبت أرضهم كما انقلبت فطرتهم، وقد أبقاها الله عز وجل إلى اليوم آية بينة يعرفها أهل الجزيرة العربية إذا قدموا إلى الشام أو رجعوا منها على حد قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

وقد جعل الله عز وجل امرأة لوط قدوة لكل كافر إلى يوم القيامة، حيث يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وقد شَرَحْتُ فيما مضى أن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط لم تكن خيانة زوجية بالزنا، وإنما كانت كفراً بالله عز وجل ومحاربة لرسله عليهم الصلاة والسلام.

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة لوط في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ «يعني زوجاتكم» ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ «أي من رغبة وشهوة» ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٦٩ - ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر في قصة بشارة إبراهيم بإسحاق وهلاك قوم لوط: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٧٧].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والعشرون

تابع: لوط عليه السلام

سقت في الفصل السابق ما ذكره الله عز وجل عن لوط عليه السلام في سورتي الأعراف وهود وفي سورة الحجر، وقال تعالى في سورة الأنبياء عن إبراهيم ولوط: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم قال ﷻ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٣٧].

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٤٠].

وقد فهم بعض الناس خطأً أن قول لوط: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]

يعني أو آوي إلى قبيلة قوية تدافع عني، وهذا فهم فاسد، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**»، وهذا يدل على أن الركن الشديد الذي كان يأوي إليه لوط موجود، وهو الله ﷻ، بخلاف من زعم أنه كان يتمنى عشيرة يأوي إليها وهي غير موجودة، فأهله في العراق، وقد هاجر عنهم، وقد جاء تأكيد وجود الركن الشديد الذي أوى إليه لوط فآواه فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد**».

وفيما ساقه ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد**». و﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ بمعنى بل، فهي للإضراب كأنه قال: «ليس لي بكم قوة بل آوي إلى ركن شديد»، فلما آوى إلى الله آواه الله إليه، ولذلك قال الملائكة حينئذٍ: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٨١].

هذا وجريمة إتيان الذكران من العالمين تأباها الكثير من الحيوانات العجماوات، وقد قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: «لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننت أن ذكراً ينزو على ذكر».

ومن غرائب الأمور وعجائبها إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران، وقد شاعت هذه اللفظة. واستعملها العلماء والعوام، وهو إطلاق غير صحيح، فلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام، فيقال لمرتكبها لوطي، كما لا يجوز أن يُقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمديان؛ لأنهما ضد محمد ﷺ، كما أن من يأتي هذه الجريمة هو ضد لوط عليه السلام، وقد حكى الله تعالى عن لوط أنه قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ولا سبيل إلى صحة هذا الإطلاق بحال؛ لأن كلمة لوط تدل على معنى الإصلاح، يقال: لاط الحوض إذا أصلحه، وهؤلاء مفسدون في الأرض، ولذلك لم يَرِد خبر عن رسول الله ﷺ في تسمية

أهل هذه الجريمة لوطيين، بل الآثار الواردة عنه ﷺ تقول: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط...**» إلخ الأثر. فيقال لمن يرتكب هذه الجريمة: إنه عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، ولا يقال: له لوطي بحال؛ برَّأ الله لوطاً من هذه النسبة الرديئة.

هذا ومن مفتريات أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن لوطاً بعد أن نجاه الله سكر وزنا بابنتيه، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين **٣٠** ـ وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه. **٣١** ـ وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. **٣٢** ـ هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. **٣٣** ـ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. **٣٤** ـ وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، هلم نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. **٣٥** ـ فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. **٣٦** ـ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

هذه عبارة الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من التوراة التي بيد اليهود والنصارى، برَّأ الله لوطاً وابنتيه من هذه الفِرْية ونزَّه لوطاً من كل إثم، وسلام عليه في العالمين.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والعشرون

إسماعيل عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن الابن البكر لخليل الرحمن، وهو إسماعيل عليه السلام، وقد ذكرتُ في أثناء حديثي عن إبراهيم عليه السلام قصة هاجر وأن ملك مصر أعطاها لسارة، وأن سارة وهبتها لإبراهيم، وأنها ولدت له إسماعيل عليه السلام، وذَكَرتُ ما أورده البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من قصة مجيء إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة، وقصة زمزم ونشأة إسماعيل عليه السلام وتعلُّمِهِ اللسان العربي، وزواجه بامرأة من جرهم ثم فراقها بأمر أبيه الخليل عليه السلام، وزواجه بامرأة أخرى صالحة من جرهم، وأمر أبيه له بالمحافظة عليها وتثبيتها، وقصة مساعدة إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام في بناء البيت الحرام، وأقمت الحُجة الواضحة على أن إسماعيل هو الذبيح وليس إسحاق عليهما السلام، وأن وصف إسماعيل في البشارة به بأنه غلام حليم بخلاف البشارة بإسحاق، فقد وُصِفَ بأنه غلام عليم، وأن إسماعيل أكبر من إسحاق، وأن إبراهيم لم يُبَشَّر بإسحاق إلا بعد أن بلغَ إسماعيل السَّعي مع أبيه عليهم الصلاة والسلام، وقد بيَّنت كذلك أن إسماعيل عليه السلام قد جعل الله من ذريته خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمداً ﷺ.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إسماعيل في كتابه الكريم في مواضع بأوصاف جليلة، حيث يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وقال عز وجل في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

وقرنه في سلسلة الأنبياء والمرسلين في مواضع حيث يقول: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨]

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وبرَّأ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من اليهودية والنصرانية، حيث يقول: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقد أورد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مقاماً لإسماعيل عليه السلام تتقاصر دونه المقامات العالية، حيث أخبره أبوه الخليل عليه السلام بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، ففطن إسماعيل في الحال إلى أن رؤيا الأنبياء وحي تجب المسارعة في الإذعان له، والامتثال لأمره، ولو كان في ذلك ذبحه، فإنه يجود بنفسه امتثالاً لأمر الله، وطاعة لرسول الله ﷺ، ولم تعرف الإنسانية كلها مثل هذا المقام.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ

لِإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ «أي انقادا لأمر الله» ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ «أي وصرعه على جبينه لينفذ فيه أمر الله عز وجل » ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ «أي وفيت ما أمرك الله به» ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ١٠٧].

هذا ولا نزاع عند النسابين أن جميع القبائل العربية العدنانية هم من ذرية إسماعيل عليه السلام، أما القحطانيون فأكثر أهل العلم على أنهم ليسوا من ذرية إسماعيل، وعامة أهل العلم على أن خزاعة من قحطان، وكذلك الأوس والخزرج.

وقد جاء في صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون، أي يترامون للسبق، فقال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع ابن فلان**» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما لكم لا ترمون؟**» فقالوا: يا رسول الله! نرمي وأنت معهم؟. قال: «**ارموا وأنا معكم كلكم**».

وفي لفظ للبخاري من حديث سلمة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، قال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع بني فلان**» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم، فقال: «**ما لهم؟**» قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: «**ارموا وأنا معكم كلكم**».

وقبيلة أسلم تنتمي إلى أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، ولا إشكال في هذا على من زعم أن قحطان من ذرية إسماعيل، أما أكثر أهل العلم الذين يرون أن القحطانيين ليسوا من ذرية إسماعيل فإنهم يقولون: إن هذا الحديث قد يحمل على كون أسلم من ذرية إسماعيل من جهة الأمهات لا من جهة الآباء؛ لأن القحطانية والعدنانية قد اختلطوا بالمصاهرة، ولا مانع من مثل هذه النسبة كما انتسب جميع بني فاطمة الزهراء إلى رسول الله ﷺ.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن والعشرون

إسحاق بن إبراهيم عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وإسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم عليه السلام، وقد وُلد من زوجته الصالحة سارة رضي الله عنها، وهو أحد الآيات التي امتنَّ الله بها على خلقه وإليه تنتمي جميع أسباط بني إسرائيل، قد ولدته أمه وهي عجوز عقيم، من إبراهيم عليه السلام، وقد أشرف سِنّه على مئة عام.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى البشارة بإسحاق في غير موضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

ويقول ﷻ في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٥].

ويقول ﷻ في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

وقد وصف الله تبارك وتعالى سارة عند تلقيها البشارة بأوصاف منها أنها عندما سمعت ضيف إبراهيم يبشرونه بإسحق أقبلت عليهم في رنة عجيبة مبدية استغرابها من أن يلد مثلها في هذا السن المتقدم، من هذا الزوج الشيخ الكبير، ولذلك صكت وجهها من شدة وقوع هذه البشارة على نفسها، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وكما وصفها الله تبارك وتعالى بأنها كانت قائمة، وأنها ضحكت، وليس من سبب لضحكها هنا سوى فرحها بالأضياف، فجاءتها البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وقالت مستغربة متعجبة: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

وفي قوله ﷻ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. دليل قاطع على أن زوجة الرجل من أهل بيته وفيه ردٌّ حاسم على بعض أهل الأهواء المنحرفين عن سُنَّة رسول الله ﷺ أولئك الذين لا يُدْخِلون زوجات النبي محمد ﷺ في أهل بيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] حقداً منهم على الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين مع أن السياق جاء نصاً في زوجات رسول الله ﷺ حيث يقول ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. إشعار بأنها تلد غلاماً عليماً يعيش ويكون له نسل، وأن الله تعالى هو الذي سمى ولدها إسحاق، وسمى ولد ولدها يعقوب، ويمكن أن يكون فيه إشعار كذلك بأنها سيمتد بها العمر حتى ترى ولد ولدها، ولا شك أن يعقوب هو ولد إسحاق، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وإبراهيم جد وإسماعيل عم وإسحاق والد، والكل يسمى أباً، وكما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يعقوب هو ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، فقد روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»**. وقد وصف الله تبارك وتعالى يعقوب في البشارة بإسحاق بأنه نافلة، حيث يقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، ومن فسر النافلة في الآية بأنها العطية أو الزيادة فإنه مقر بأن يعقوب هو ولد إسحاق لما جاء في نص القرآن العظيم والسُّنَّة النبوية بأن يعقوب هو ولد ولد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وقد أورد الله تبارك وتعالى ذِكْر إسحاق في مواضع من كتابه الكريم مع

جملة من النبيين والمرسلين. وفي ذلك يقول في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وكما قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع والعشرون

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

نتحدث في هذا الفصل عن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم نبي الله عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدم في الفصل السابق أن الله تعالى بشَّر سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وأشرتُ إلى أن القرآن قد نص على أن يعقوب هو ابن إسحاق كما نص على ذلك رسول الله ﷺ في الخبر الذي أخرجه البخاري في ذلك.

ويعقوب هو إسرائيل، وإليه تنتمي جميع أسباطهم، ومعنى إسرائيل: عبد الله، فهو مركب تركيب الإضافة؛ فإن إسرا بالعبرانية هو: العبد، وإيل هو: الله، على أن العرب قد تصرَّفت في هذا الاسم بلغات كثيرة منها: إسرائين، بإبدال اللام نوناً، كما قالوا في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة عربية فصيحة كذلك.

وقد ساق الله تبارك وتعالى الكثير من أخبار يعقوب عليه السلام في قصة ولده يوسف عليه السلام، وقد أشار القرآن العظيم إلى أن يعقوب تزوج أكثر من زوجة، وأنه كان يحس بحنان وعاطفة قوية إلى يوسف عليه السلام، وأن إخوة يوسف من أبيه حقدوا عليه لحب أبيه له، وأن يوسف كان له أخ شقيق بدليل قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩].

وأشار القرآن إلى أن يعقوب عليه السلام كان يسكن في بادية بفلسطين مع بنيه، وأن يوسف عليه السلام رأى وهو صغير رؤيا فقصَّها على يعقوب، قال: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. فنصحه أبوه بكتمان هذه الرؤيا عن إخوته مخافة أن تحملهم على الكيد له وإلحاق الأذى به. وأفاده أن هذه الرؤيا تدلُّ على أن الله عز وجل يصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ

﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦]، وقد ازداد يعقوب بهذا حرصاً على يوسف عليه السلام، وكان لا يكاد يطيق فِراقه أو بُعده عنه، وقد أشعل الشيطان نار الحقد على يوسف في قلوب إخوته فتآمروا عليه: أن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً بعيدة عن أبيهم ليخلو لهم وجه أبيهم، واستقر رأيهم على عدم قتله، وأن يلقوه في غيابة الجُبِّ لتلتقطه بعض السيارة ويحملوله إلى أرض بعيدة مُدَّعين لأبيهم أن الذئب أكله. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٢]، فأظهر يعقوب عليه السلام تعلقه بيوسف وأنه لا يحب أن يبتعد عنه ويخشى عليه من الذئب ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٣ ـ ١٨].

وقد ذكر الله عز وجل قصة مجيء إخوة يوسف إليه في مصر يمتارون طعاماً وهم لا يعرفونه، وأنه طلب منهم إحضار أخ لهم من أبيهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٤]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ﴾ [يوسف: ٦٦ ـ ٦٨]، وأن يوسف عليه السلام عندما رأى شقيقه عرَّفه بنفسه

وقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، لتكون سبباً ظاهراً لحجزه عنده، وحاول إخوة يوسف أن يجعلوا أحد أشقائهم مكانه لكنه رفض ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فرفض يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٢].

قال يعقوب عليه السلام لـمَّا قال له أولاده ذلك: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٣ ـ ٨٤]، فقال له بنوه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] أي قريباً من الموت لما يجلبه لك الحزن من الأسقام والأوجاع ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي أو تموت. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٦ ـ ٨٧].

فلما دخلوا على يوسف وشرحوا له ما أصاب أباهم من الهم والحزن على فراق ولده عرَّفهم يوسف بنفسه، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ليضعوه على وجه أبيه ليذهب حزنه وليأتي بصيراً، وأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ ألقى قميص يوسف على وجه أبيه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وقال لبنيه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٦ ـ ٩٩] أي ضم إليه أباه وخالته أم إخوانه

لأبيه، والخالة أم فهي أحد الأبوين، أو هي أمه. ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] وسجدوا لله للشكر.

وقال يوسف: ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثلاثون

يوسف الصديق عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف الصديق نبي الله ورسوله ﷺ، وقد تقدم في الحديث عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بعض الحديث عنه ﷺ، وعامة النسابين على أنه وُلِد ليعقوب من زوجته راحيل، وأكثر أهل العلم على أنها ماتت وهو صغير بعد أن تركت له شقيقاً أصغر منه هو بنيامين.

وكان يعقوب عليه السلام قد أنجب من غير راحيل عشرة أولاد آخرين، وكانت زوجته الأخرى هي أخت راحيل الكبرى، وقد أعطى الله عز وجل يوسف عليه السلام من الحُسن والجمال ما جُعِل مضرب المثل في ذلك حتى وصفه رسول الله ﷺ بأنه أُعطي شطر الحُسن، فقد روى مسلم في صحيحه في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن عروجه إلى السموات العُلى: «**ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. فَفُتح لنا، فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن**» إلخ الحديث.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن النسوة اللاتي لُمْنَ امرأة العزيز أنها لما اختبرتهم فوضعت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد أحبه أبوه يعقوب عليه السلام، لما منَّ الله عليه به من جمال الظاهر والباطن، ورأى إخوته أن أباهم يحب يوسف وبنيامين أكثر منهم، وأبوهم أعرف بحالهم وحاله وسلوكهم وسلوكه.

فحقدوا على يوسف عليه السلام، وإخوة يوسف ليسوا بمعصومين من المعاصي

والسيئات، فهم ليسوا بأنبياء، وهم وإن كانوا من الأسباط لكنهم غير الأسباط الذين ذكر الله ﷻ أنه أوحى إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣] إذ السبط يطلق على ولد الولد مهما نزل. كما يطلق على ولد البنت كذلك. وقد خصَّ الله تبارك وتعالى يوسف بسورة كاملة من القرآن قصَّ فيها قصته وقد ختم سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠] إلخ، وقد ذكر في أنباء الرُّسل المذكورين في سورة هود ما لقي الأنبياء من قومهم من الأقارب والأباعد من الأذى ذكر في سورة يوسف وهو أحد الرسل العظام ما لقي من أذى إخوته له، ليعلم ما لقيه الأنبياء من أذى الأقارب والأجانب لِمَا في ذلك من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتثبيت قلوب المؤمنين.

وقد اشتملت قصة يوسف عليه السلام على الجليل من الأحكام والحِكم والآداب وقواعد السلوك وسِيَر الملوك، وتفكير العلماء، وتدبير الخطط للوصول إلى المقاصد الصالحة، ورسم الوسائل الجميلة لنيل الأهداف السامية، ومكر النساء، وعدم صبرهن على ما قد يعرض لهن من الفتن. وبيان حسن عاقبة المتقين الصابرين، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا ما يطلعهم الله عليه منه.

وقد بدأ الله تبارك وتعالى قصة يوسف برؤياه التي رأى عليه السلام وهو صغير السن، وختم قصته بأن ما آل إليه من العزة والكرامة كان تأويل رؤياه وتحقيقها، وفي رؤيا يوسف يقول الله ﷻ: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد فهم يعقوب عليه السلام أن رؤيا يوسف هذه تدل على أنه أُعدَّ لأمر عظيم من تشريف الله له، وإعزاز جنابه، واصطفاء الله له، وأنه يتم نعمته عليه وعلى أبيه يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، وطلب من يوسف أن يكتم هذه الرؤيا عن إخوته لما يستشعره يعقوب من حقدهم عليه وبغضهم له، وأنه لو أخبرهم بقصة هذه الرؤيا لازدادوا حقداً وكادوا له كيداً.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٥ ـ ٦]، وقد فهم يعقوب من هذه الرؤيا كذلك أن ابنه يوسف سيكون طويل الباع في تعبير الرؤيا والأحلام، مما ينبني على ذلك من رفعة شأنه وعلو منزلته، وتمكينه في الأرض، وعامة المفسرين على أن الأحد عشر كوكباً هم إخوة يوسف، وأن الشمس والقمر هما أبوه وخالته أو أبوه وأمه.

وقد وصف الله عز وجل ما كان من شأن يوسف وإخوته بأنه آيات للسائلين حيث يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أي عبر وعظات وعجائب وحكم للمستخبرين المستشرفين المعتبرين المتشوفين. وماذا يفعل الحسد بصاحبه، ونهاية حال الحاسدين، وآثار الصبر والعاقبة الحميدة للصابرين، وحنان الأب، وأنه مهما حرص الإنسان على حفظ ولده من السوء، فإنه لا يخلِّصه من قضاء الله، وأن الأب الصالح قد يلد الابن غير البار. وأن العفو عند المقدرة من شِيَم الكِرام، وإثبات النبوة والرسالة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الدلالات والعِبر مما لا يحيط به إلا الله عز وجل.

وكانت أول بادرة سوء من إخوة يوسف أن قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ [يوسف: ٨] بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨]، فميله إليهما أكثر، وحنانه عليهما أعظم، وعطفه عليهما أشد مع أننا لقوتنا أعظم نفعاً لأبينا، ونحن مع كثرتنا يد واحدة، إن أبانا لمخطئ في هذا الحب، بعيد عن الرشد والصواب، قال بعضهم لبعض: لا بد من صرف يوسف عن وجه أبيه فاقترح بعضهم قتله، واقترح بعضهم رميه في أرض بعيدة تفترسه الوحوش أو يموت في تلك الأرض ونكون صالحين بعد ذلك، واقترح بعضهم إبعاده عن أبيه مع محاولة المحافظة عليه من أسباب الهلاك بإلقائه في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، وهي إحدى جوانب البئر المظلمة لِيُلتَقط، واستقر رأيهم على أن يجعلوه في مكان مظلم من بئر يَرِدُها المسافرون إلى مصر من فلسطين، ولما بدؤوا في تنفيذ هذه الخطة قالوا

لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تسمح لنا باستصحاب يوسف معنا إلى ملاعبنا ومراعينا مع أننا نحبه وننصح له ونخلص مودته، ابعثه معنا غداً إلى الصحراء نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ونتسابق ويتدرب على رعي الماشية، ونؤكد لك أننا سنحافظ عليه من كل ما يسوء.

فأجابهم يعقوب عليه السلام بأنه لا يطيق فراقه، وأنه يحزنه بعده عنه، ويخشى عليه من الذئب في حالة لَهْوِهِم وغفلتهم عنه، فاستبعدوا أن يأكله الذئب؛ لأنهم عُصبة أي جماعة أقوياء يشد بعضهم أزر بعض، فلن يصل إليه الذئب بحال؛ لأنه لو وصل إليه الذئب مع قوتنا وكثرتنا فإنه لا خير فينا حينئذٍ ونكون هالكين عاجزين ضعفاء، فأخذوه من أبيه مع حذر أبيهم؛ لأن الحذر لا ينجي من القدر وتركوا بنيامين، وذهبوا به إلى الجُب فلما ألقوه في غَيَٰبَتِ الجُبِّ (غيابة الجب شبيهة (ببيت الماكينة) في عصرنا الحاضر، يجذب بها الماء من البئر، ولو ألقوه في وسط البئر لمات) ألقى الله عز وجل في قلبه الطمأنينة وأنه لن يهلك في هذه البئر، وأنه سيرى إخوانه الحسدة هؤلاء مرة أخرى، وأنه سيخبرهم بهذا الذي فعلوه معه في وقت يكون فيه عزيزاً وهم أذلاء، وكانوا قد جرَّدوه من قميصه قبل إلقائه في الجُب، فوضعوا على قميصه دماً كذباً، أي دماً مكذوباً مفتعلَا ليس بدم يوسف، ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ وما أنت بمصدق ما نقول ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يصدقهم يعقوب عليه السلام في أكل الذئب له ولا أنه قتل ليقينه أنه سيكون ليوسف شأن، ولذلك قال لهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق ما كان من إخوة يوسف عليه السلام وكيدهم له، والاحتيال على أبيهم في أخذهم يوسف منه وإلقائه في الجُب، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ «أي بعض المسافرين المارين من القوافل، والسيارة جمع سيَّار، أي الكثير السير المبالغ فيه» ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠]. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٨].

وكان موقف يعقوب عليه السلام عندما أخبره بنوه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف مع يقينه بكذب بنيه هؤلاء وأن يوسف قد تعرَّض لامتحان عسير كان موقف يعقوب عليه السلام هو هذا الموقف الكريم من الصبر على البلاء، وتفويض الأمر لله وعدم الجزع، وفي ذلك قدوة لكل عبد صالح يُبتلى ويُمتحن.

ولذلك روى البخاري أن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين الحصان الرزان

عائشة رضي الله عنها لما رُميت بالإفك قالت: «والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]».

وقد وصف الله تبارك وتعالى ما حدث ليوسف بعد أن ألقاه إخوته في الجُب بما يفيد أن وحشته في الجُب لم تطل، وأن الله تعالى هيَّأ له قوماً من المسافرين نزلوا قريباً من الجُب، وبعثوا واردهم، أي شخصاً يَرِد الجُب ليستقي لهم، فألقى دلوه في الجُب فتعلق بها يوسف عليه السلام، فلمّا أحسَّ به الوارد أخرجه وقال: يا فرحتي هذا غلام، واتفق في السر مع بعض رفقته أن يزعموا أنه عبد استبضعناه لبعض أهل المال القريبين من الجُب لنبيعه لهم في مصر، وكأن يوسف عليه السلام رأى أنه لا يستطيع رد دعواهم هذه في عبوديته، فاستسلم، وكأن الذين جعلوه بضاعة أحسوا بأنهم أمام إنسان كريم، لا ينبغي أن تتداول مثله الأيدي، ورأوا أنه لا يصلح أن يضعوه إلا عند كبير وزراء ملك مصر تكرمةً له، فما إن قَدِموا مصر حتى قدَّموه لعزيزها وباعوه له بثمن «رمزي» ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، يقيناً منهم أن هذا الإنسان الكريم حريٌّ أن يستقر في بيت العزيز على أي حال، وأنهم ليسوا أهلاً لجعله تحت أيديهم أو أيدي سواهم ممن دون العزيز، وبدأت مراحل التكريم والإكبار والإجلال والإعزاز تترادف على يوسف عليه السلام، وكانت فرحة العزيز به غامرة، وقال ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وأنزليه أحسن المنازل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وهكذا فرُبَّ ضارة نافعة، فقد انتقل من شظف العيش في البادية إلى أكبر القصور المتحضرة، وكان إلقاؤه في الجُب سبباً لوصوله إلى مصر وتنقله في أطوار الكرامة حتى صار ملكها، فرحم الله به العباد والبلاد وبخاصة في سِنِي القحط والجدب، حتى امتد ما أفاء الله به بسببه إلى أبويه وإخوته، وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، ولكن الفرج قريب، فسأجعل لك حُسن العاقبة والتمكن منهم، وكذلك فعل الله عز وجل، فلم يطل الأمر حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبعد سنين قريبة من سني ابتعاد يوسف عن أبيه فتح رسول الله ﷺ مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وقد أثر أن رسول الله ﷺ قال لأهل مكة

الذين آذوه وأخرجوه: «**ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟**» قالوا: أخٌ كريم، وابنُ أخ كريم. قال: «**لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وقد وصف الله تبارك وتعالى انتقال يوسف إلى بيت عزيز مصر بأنه تمكين له في الأرض، وقد بلغ فيه أَشُدَّه، وآتاه الله الحكم والعلم، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ﴾ «أي باعوه» ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ «كان زهدهم فيه زهد إجلال وإكبار لا زهد ازدراء واحتقار» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٢].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن زوجة العزيز أنها تَعلَّق قلبها بيوسف، وقد ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حبه شغاف قلبها، أي غلافه أو حجابه أو حبته أو سويداءه، فصار في قلبها كأنه ملك وهي أمته، تبذل كل ما تطيق لإسعاده وإعزازه وإكرامه، حتى بلغ بها الحال أن فكرت في مخالطته، فبذلت كل ألوان الإغراء بها أمامه، وهو منصرف عنها غير عابئ بتصرفاتها، فلما أيقنت أن مراودتها له لم تصرف وجهه إليها رأت كما قيل:

فما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

وأن التلويح لم يفدها بشيء وأنه لا بد من التصريح ليوسف بحاجتها، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تهيئت وتجملت من أجلك أنت فأَقْبِل عليَّ، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أتحصن بالله وأستجير به من أن أرتكب جريمة الزنا، وهي أفحش الجرائم، وقد أحسن الله إليَّ كثيراً وهيَّأ لي المنزل الحسن والمرجع الكريم فكيف أقابل إحسانه بمعصيته، والزناة لا يسعدون ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يسعد الزناة، فإن الزنا مجلبة لزوال النعمة في الدنيا وعذاب الله في الآخرة،

ولما كان الطيش والثورة الجنسية قد بلغت بالمرأة كل مبلغ فلم تعبأ بامتناعه واعتصامه عن السوء فأقبلت عليه، ولولا أن الله تعالى يعصم أنبياءه ورسله من السوء لأقبل عليها، ولكن يوسف عليه السلام قد تجلت له نعم الله عليه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، وخرج إلى جهة الباب هارباً منها، فلحقته وأدركت قميصه من خلفه فجبذته فانقطع القميص من دبر «أي من خلف»، لكنه تمكن من الباب، وكان العزيز عند هذا الباب، فسارعت إلى إلصاق التهمة بيوسف، وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدافع يوسف عن نفسه وقال للعزيز: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فأنطق الله شاهداً من أهلها فقال للعزيز: انظر القميص إن كان قطعه من جهة صدره فهي بريئة؛ لأنها تكون قطعته وهي تدافع عن نفسها وهو مقبل عليها، وإن كان القميص قطع من جهة الخلف فهو بريء؛ لأنها قطعته وهو يحاول الفرار منها وهي تلاحقه، فلما رأى أن قطع القميص كان من الخلف أيقن ببراءة يوسف عليه السلام.

ومن الملاحظ هنا أن الشاهد بدأ بالنظر في قطع القميص من أمام ليكون أدعى لمحاولته براءتها حتى لا يتهم بمحاباة يوسف عليه السلام، وإن كان هذا الشاهد من أهلها، كما أن ذلك يكون أوقع في قبول شهادته عندهما، وهذا شبيه بما قال مؤمن آل فرعون لفرعون وقومه في موسى عليه السلام: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]. فإن هذا المؤمن بدأ فرض المسألة باحتمال أن يكون كاذباً، وثنى باحتمال أن يكون صادقاً ليكون كلامه أوقع في قلوبهم، وأقرب لتصديق نصحه لهم، ولم يسم الله تبارك وتعالى امرأة العزيز ولم يسمها رسول الله ﷺ والناس يقولون فيها: زليخاء أو زُلَيْخاء أو راعيل، ولما لم يكن لتعيين اسمها كبير فائدة لم يسمها الله عز وجل لنا، وإنما ذكر الأمر المهم الدال على رفعة قدر يوسف ونزاهته بأنه في بيتها، وأنها غلقت الأبواب، وأنها قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأنها ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] ومع ذلك صرف الله عنه ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

وفي ذلك كله يقول الله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله عز وجل من محاولة العزيز استكتام قصة مراودة زوجته ليوسف عليه السلام، وأنه طلب منها أن تستغفر الله لذنبها، وأنها من الخاطئين، حيث قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

غير أن استكتام هذه الحادثة لم يتم، فتناقلته بعض الألسن، وتحدثت به نسوة في المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء، وطعنَّ على امرأة العزيز وعِبْنَهَا وبشَّعن عملها، وشنعن عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له وتشوقن لرؤيته، فلما سمعت بتشنيعهن عليها، والتَنَقُّص لها، وعَيبها ومَذَمَّتِها بحب مولاها، ولم يعرفن أن جمال يوسف يفتن ذات اللب، فأحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتُبَيِّن أن هذا الفتى لا وجود لمثله في الفتيان، فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، وأعتدت لهن ضيافة، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يُقَطَّع بالسكاكين كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، فلما بدأن بتقطيع ما بأيديهن بالسكاكين أمرته بالخروج عليهن، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، فلما رأينه أعظمنه وأجللنه وهبنه واندهشن لرؤيته وبهرهنَّ حسنُه حتى اشتغلن عن أنفسهن به، وجعلن يقطعن ويحززن في أيديهن بالسكاكين بدل تقطيع الفاكهة ولا يشعرن بالجراح، وظننَّ أنه لا وجود لمثل هذا في بني آدم، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، أي معاذ الله أن يكون هذا من بني آدم، ما هذا إلا ملك كريم.

وأهل مصر يومها وإن كانوا وثنيين إلا أنهم كانوا يقرون برب السموات والأرض كمشركي قريش وغيرهم، وإن كانوا يعبدون غير الله، وعندئذٍ أبرزت

امرأة العزيز مكنون ما في قلبها من عشقه والهيام به، و﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وأظهرت عفته وبراءته التامة، وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ «أي امتنع وأبى» ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ولا شك أنها كانت قد وصلت من الهيام به والجنون فيه إلى حد أنها أصبحت تصرح بهذا الذي قالته عند هذا الملأ من الناس، فلما سمع يوسف عليه السلام ما توعدته به من السجن ومذلته إن لم يخضع لما تريده منه ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ «أمل إليهن» ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فإنه لا يصرف عني السوء أحد سواك يا أرحم الراحمين، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، فإنك إن وكلتني لنفسي وكلتني إلى عجز وضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فاعصمني من السوء واحفظني من الشر، وحُطْني بحولك وقوتك يا رب العالمين، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

واستحق يوسف عليه السلام أن يكون بهذا على رأس السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فمنهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين.

وبعد أن ذاع وشاع براءة يوسف عليه السلام رأى العزيز وزوجته أنه من المصلحة سجن يوسف؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وليغالبوا الناس بأنه هو الذي راودها عن نفسها فسُجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان السجن أحب إلى يوسف من مخالطتها، وأبعد له عن معاشرتهم وقربهم.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ

ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٥].

وقد قيَّض الله ﷻ ليوسف الصديق أن دخل مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، فلما رَأَيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه وما كساه الله ﷻ به من الجلال والبهاء، وأبصرا في سلوكه النجابة والكرامة وكثرة عبادته لله وإحسانه إلى خلق الله، فكان سلوكه أفصح دعوة إلى الله، فتعلق قلبهما به، وقد رأى كل واحد منهما رؤيا، ورأيا أن خير من يعبر لهما رؤياهما هو يوسف الصديق، فأقبلا عليه وقص كل واحد منهما عليه رؤيا، قال أحدهما: إني أراني أعصر عنباً لأتخذه خمراً، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي سلة خبز وأن الطير تأكل من هذا الخبز، ففسِّر لنا رؤيانا وعرِّفنا بحقيقة ما تدل وتؤول إليه هذه الرؤيا، إنا نرى في وجهك الخير والعلم والمعرفة والإحسان. وقبل أن يفسر لهما رؤياهما، استغل فرصة إقبالهما عليه هذا الإقبال الصادق، فدعاهما إلى الله ﷻ إلا أنه قبل دعوتهما إلى الله تعالى بدأ بتعريفهما بنفسه وبمنة الله تعالى عليه وعلى آبائه، فأخبرهما أنه عليم بتعبير الرُؤى والأحلام، فمهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول، وأخبركما بما يأتيكما من طعام قبل مجيئه، وليس هذا مني، إنما هو من الله الذي علمنيه، وقبل أن يجرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ سلك أجمل الطرق في الدعوة إلى الله بترك عبادة الأصنام والأوثان، وأنه لا يجوز لأحد أن يتعلق بها فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٣٨]، وأن أفضل ما يُعطى العبد ترك عبادة الأصنام والأوثان ومعرفة حق الله ﷻ، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

ولما وصل إلى هذا المقام جرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠].

وبيَّن أن الخلق كله لله، وأن الأمر كله لله، وأنه لا يجوز لأحد أن يحتكم لغير شرع الله، فلله الخلق والأمر، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبعد أن دعاهما إلى الله فسَّر لكل واحد منهما رؤياه، وأن الذي رأى أنه يعصر خمراً سيخرج من السجن ويسقي سيده خمراً. وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه فإنه يُصلب فتأكل الطير من رأسه، ولكنه لم يحدد لهما مَنْ الذي يُصلب؟ بل قال: أحدكما يسقي ربه خمراً والآخر يُصلب فتأكل الطير منه. وتم تعبير رؤياكما، يعني: فليصبر الذي قُضِي عليه بالصَلب وليشكر الذي سينجو من السجن، ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى﴾ [يوسف: ٤٢] عند الملك واذكر أني مظلوم، والظن قد يأتي بمعنى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٥].

وقد أنسى الشيطان الناجي بعد خروجه من السجن ذكر يوسف السجين المظلوم، فمكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، أي عدداً من السنين، والبضع قيل ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى الخمس أو من أربع إلى تسع أو هو سبع، وقد قص الله تبارك وتعالى ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤٢].

هذا وقول يوسف عليه السلام: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يدل على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، وقد زعم بعض الناس أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢] عائد على يوسف، وأنه إنما عُوقب بلبثه في السجن بضع سنين لطلبه الفرج من غير الله، وهذا كذب على الله وعلى يوسف عليه السلام، وأما ما ذكره ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبي ﷺ: «**لو لم يقل** ـ يعني يوسف ـ **الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طويلاً، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله**». فإن هذا الخبر لا يصح عن رسول الله ﷺ. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى نسيان الناجي من صاحبي سجن يوسف عليه السلام ذكر شأن يوسف للملك، وقد أسند الله عز وجل أمر هذا النسيان إلى الشيطان حيث قال: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

وهذا الأسلوب في إسناد الشر إلى الشيطان قد كرر الله تبارك وتعالى ذكره في القرآن العظيم حيث قال في قصة أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ وذلك لأن كل شر وضير يصيب الإنسان إنما هو بسبب الشيطان الذي أخرج أبوينا من الجنة، وهو من الأدب مع الله عز وجل في إسناد الخير إليه وإسناد الشر إلى الشيطان وإلى النفس الأمَّارة بالسوء؛ مع الاعتقاد الجازم بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الكل من عند الله، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وعندما أراد الله عز وجل إعلاء شأن يوسف وتثبيت كرامته في قلوب ملك مصر وعموم شعبها رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان وسبع بقرات هزيلة، وأن السبع البقرات الهزيلة تأكل السبع السمان، كما رأى في منامه سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، وقد اهتم الملك بأمر رؤياه هذه وطلب من أشراف قومه ومن يظن فيهم المعرفة بتأويلها أن يؤلوها ويعبروها له ويفتوه فما تقتضيه هذه الرؤيا، فقالوا: هذه أخلاط منامات وأضغاث أحلام، وأصل الضغث قبضة الحشيش المختلط الرطب باليابس، أي هذه رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها، ونحن غير قادرين على تعبيرها، وغير عارفين بتفسيرها، وعندئذٍ تَذَكَّر الناجي من صاحبيه في السجن بعد هذه المدة الطويلة، وقال: أنا آتيكم بتفسيرها وتعبيرها من الخبير بذلك يوسف السجين، فأرسلوني إليه، فأرسلوه إلى يوسف عليه السلام، وبمجرد

ما عرض عليه الرؤيا سارع إلى تفسيرها، ففسَّر السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بسبع سنوات رغيدة مخاصيب، وفسر السبع البقرات العجاف الهزيلة والسبع السنبلات اليابسة بسبع سنوات مجدبة، ولم يكتف بهذا التفسير العظيم لرؤيا الملك، بل وضع لهم خطة تجاوز محنة السبع السنوات المجدبة، فقال: تزرعون السبع السنوات مغتنمين فرصة رغدها وجودة محاصيلها دون تضييع شيء من هذه الفرصة، وإذا نضج الزرع فلا تدوسوه واتركوه في سنابله إلا بقدر حاجتكم الضرورية من الطعام منه، ولا تتوسعوا في النفقة وادخروا كل ما يمكنكم ادخاره في هذه السنوات المخصبة، حتى يبقى لكم ما تحتاجون إليه في السنوات السبع المجدبة، وبشرهم بأن الله سيغيثهم في أول عام بعد هذه السبع بخير كثير يغاث الناس ويذهب الجدب عنهم، وتعود معاصر الزيت ونحوه إلى عملها كما كانت قبل هذه السنوات.

ولا شك أن ما أشار به يوسف الصديق عليه السلام من حفظ الحبوب في سنابلها لا يزال محل إعجاب وتقدير من علماء الزراعة في القديم والحديث؛ فإن بقاء الحبوب في سنابلها أدعى لصيانتها من السوس والفساد وأبقى لها على طول الزمان دون حاجة إلى صوامع أو نحوها، وعندما سمع الملك بهذا التعبير عظم يوسف في قلبه وظهر له أنه في أمس الحاجة إلى قربه؛ فقال: ائْتُوني به، فلما جاءه الرسول وعرَّفه أن الملك يدعوه لتكريمه وإجلاله لم يسارع إلى الخروج من السجن، بل طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويسأله عن خبر النِسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ليكون ذلك أظهر لبراءته وأعز لمكانته، وقطعاً لألسنة السوء، والله لا تخفى عليه خافية، وقد ذهب عامة العلماء إلى أن المراد من قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**». أي لسارعت إلى الخروج من السجن دون تريث، ولأجبت رسول الملك في الحال وخرجت من السجن، وعلى أي حال فإن المقصود من هذا الحديث كما أشرتُ في سرد قصة إبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام هو بيان علو منزلة يوسف عليه السلام لا أنه أفضل من رسول الله ﷺ فإن من المتفق عليه عند العقلاء أن تواضع الرفيع القدر

لمن دونه لا يُنزل من قدره، ورسول الله ﷺ هو أفضل خلق الله قاطبة، فهو شيخ المرسلين وإمام الأنبياء، وهو العالي الدرجات المشار إليه في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فرسول الله محمد ﷺ في المرسلين سماء ما طاولتها سماء.

وقد سأل الملك النسوة اللاتي أُخبر أنهن قطعن أيديهن: هل رأيتن من يوسف شيئاً يسوء؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ما رأين عليه من سوء، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ واتضح وبان وانكشف، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي أعترف له بفضله وهو غائب عني، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، وقالت امرأة العزيز أيضاً: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وعندما تأكد الملك أن يوسف سُجن ظلماً، وأنه أحد الأمناء الكرام، والعلماء العظام فلم يطق الملك صبراً، وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾؛ ليكون خاصتي، فلما جاء يوسف وكلمه قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فأراد يوسف عليه السلام نفع البلاد والعباد، فقال للملك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فمكّن الله عز وجل ليوسف في أرض مصر ينزل فيها حيث يشاء حراً كريماً سيداً مطاعاً من فضل الله عليه وعلى كل محسن، وهذا في الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ

فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ «أي إن إلهي وخالقي وسيدي رب السموات والأرض لا تخفى عليه خافية من كيد النساء ومكرهن الذي أوصلني إلى السجن» ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٥٧].

وقد أورد بعض المفسرين هنا أحاديث باطلة، وأخباراً مردودة عاطلة في تفسير بعض هذه الآيات يحمي الله تعالى أنبياءه ورسله عن مثل ما روي في هذه التفاسير كمثل ما روى في قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أنه حلَّ الهِمْيَان، أي تكة سراويله وجلس منها مجلس الرجل من زوجته. وهذا ولله الحمد لم يثبت بخبر عن رسول الله ﷺ، وإنما هو قول مدسوس من اليهود وأخبار بني إسرائيل، وصريح الآية علق الهمَّ بها على رؤيته برهان ربه بصيغة الماضي، فكأنه قال: ولولا أنه رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه لم يهم بها؛ لأنه رأى برهان ربه، وسياق الآية يكذِّب ما زعموا، كقوله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾. معطوفاً بالفاء الدالة على التعقيب، وأنه بمجرد مراودتها له استعصم وهذا ظاهر.

وكذلك تفسيرهم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ بأنه أراد بربه عزيز مصر، وهذا ولله الحمد لم يثبت بخبر صحيح ولا حسن عن رسول الله ﷺ، والسياق يدل على أن الذي رأى يوسف برهانه وأحسن مثواه هو رب العالمين.

كما زعموا أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ من كلام يوسف لامرأة العزيز، وأن جبريل قال له: ولا حين هممت بها، أو أن امرأة العزيز قالت له حينئذٍ: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف.

فهذا كله مفترى على يوسف الصديق وقد صانه الله وعصمه من كل سوء كما عصم إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والثلاثون

تابع يوسف الصديق عليه السلام

بعد أن مكن الله عز وجل ليوسف وقرر ملكها جعله عزيزها، وأطلق له حرية التصرف في خزائن الأرض، واحتاج القاصي والداني إلى الميرة من عنده، وكانت الأقطار المجاورة لمصر ولا سيما أرض كنعان في حاجة شديدة إلى الطعام وقتئذٍ، فصاروا يجيئون إلى يوسف عليه السلام يمتارون لأنفسهم وعيالهم وأهلهم. يحملون معهم إلى مصر ما عندهم من بضائع وأثمان، وكان يوسف عليه السلام قد قرر أنه لا يُعْطَى أحدٌ من هؤلاء إلا مقداراً معيناً من الكيل في النوبة الواحدة، وله أن يرجع في وقت آخر في المستقبل ليأخذ مرة أخرى على الطريقة المعروفة في العصر الحديث، وفي بعض أمصار العالم بنظام التموين.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ليمتاروا عندما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وقد أبقى يعقوب عليه السلام ولده بنيامين عنده، فلما وصلوا إلى يوسف عليه السلام ودخلوا عليه عرفهم لأنهم عندما رموه في الجُب كانوا كباراً بالغين فلم تتغير صورهم؛ أما يوسف عليه السلام عندما رُمي في الجب كان صغيراً، والصغير إذا شب وبلغ أشده لا يكاد يعرفه من رآه في الصغر فقط؛ لأنه في الغالب تتغير ملامحه؛ ولذلك لم يعرفه إخوته ولم يخطر على بالهم أنه يوسف الصديق، والظاهر أن يوسف عليه السلام أخذ يسألهم عن أحوالهم وأهليهم ليصل من وراء ذلك إلى الاطمئنان على حال أبيه وأخيه بنيامين، فعرَّفوه بحالهم وأن لهم أخاً من أبيهم؛ وأن أباهم هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فأكرمهم يوسف عليه السلام وأظهر العناية بهم، وأمر بجهازهم ووفى لهم كيلهم كأنه قال لهم: لقد شوقتموني إلى أخيكم من أبيكم وأنا حريص على رؤيته، ولن تحصلوا على كيل منا في المستقبل في النوبات القادمة إلا إذا جئتموني بأخيكم

من أبيكم ولكم مني زيادة في تكريمكم حينئذٍ بأني أزيدكم كيل بعير، وأضاعف لكم الميرة، وأوعز إلى غلمانه أن يدسوا في رحالهم جميع ما جاؤوا به من بضاعة زيادة في صلة رحمهم وإحساناً إليهم، وإبقاءً لثرواتهم معهم ليعودوا بها إلى يوسف تحنثاً، وإنما لم يضع بضاعتهم في رحالهم علناً لأنه ربما يؤدي ذلك إلى امتناعهم عن أخذها.

وقد قالوا ليوسف عليه السلام: سنبذل كل جهدنا في إحضار أخينا من أبينا معنا في المرة القادمة، وسنحاول أباه في ذلك بكل ما نطيق، ولن نُقصِّر في ذلك.

فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروه بقصتهم مع عزيز مصر وأنه قرر ألا يكيل لنا في المستقبل إلا إذا أحضرنا أخانا بنيامين معنا، فنرجو أن ترسله معنا لنكتال، وسنحافظ عليه أشد المحافظة، قال يعقوب عليه السلام: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وزعمتم أنكم ستحافظون عليه عندما قلتم في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] لكن الله تعالى هو الحافظ له، وهو خير الحافظين، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ [يوسف: ٦٥] ما نريد؟ لقد أوفى لنا الكيل ورد إلينا بضاعتنا، وأحسن مثوانا فأرسل معنا بنيامين في المرة القادمة لنمير أهلنا أي نأتيهم بالميرة وهي الطعام، وسنحفظ أخانا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ، ذلك العطاء الجزل سهل على هذا العزيز الكريم، فقرر يعقوب عليه السلام أن يرسل معهم بينامين بشرط أن يؤتوه عهد الله وميثاقه أن يحافظوا عليه، وأنهم لا يقصرون في حفظه إلا إذا بُلوا بشيء لا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم على دفعه، فلما حلفوا له ووثقوا عهدهم أشهد يعقوبُ الله تعالى على عهدهم وميثاقهم و﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

ولما تقرر سفرهم للميرة نصحهم يعقوب عليه السلام بأنهم لا يدخلون من باب واحد. وإنما يدخلون من أبواب متفرقة إما من خوف العين عليهم إذا كانوا مجتمعين وعُرف أنهم أبناء رجل واحد، وإما من خوف أن يحصروا جميعاً إذا كان أُريد بهم شر، غير أن يعقوب عليه السلام بيَّن أن الحذر لا ينجي من القدر، وأن حرصه على سلامتهم لن ينفعهم إذا كان الله عز وجل أراد أن يضرهم، فقضاء الله

نافذ. وحكم الله غالب، ولله وحده الحكم، وعليه أتوكل وأعتمد، ويجب على كل مؤمن أن يكون توكله على الله واعتماده عليه وحده لا إله غيره ولا رب سواه، وسارت القافلة ووصلوا إلى مصر، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ [يوسف: ٦٨] من الأبواب المتفرقة مع صدق ما قال يعقوب عليه السلام أنه ما يُغني عنهم من الله من شيء؛ لأن الله وحده هوالحافظ، لكن الله تبارك وتعالى نفعهم بما علمهم أبوهم، وقد علمه الله عز وجل، فوصية يعقوب لبنيه وصية حق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، والعين حق، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**العين حق**»، كما أخرج مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**».

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ما كان من مجيء إخوة يوسف إليه ودخولهم عليه، وما صار من جهة الكيل ودس البضاعة في أوعيتهم ورحالهم، وطلب أخيهم غير الشقيق، ورجوعهم إلى أبيهم. ومراودته في بنيامين حتى قرر إرساله معهم، ووصية أبيهم لهم عند دخولهم، وتقرير أن الأمر كله لله، وأن الحذر لا ينجي من القدر، والإشارة إلى أن العين حق، حيث يقول عز وجل:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا

تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٨].

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه ومعهم أخوهم بنيامين وتلقاهم يوسف عليه السلام بما يثلج صدورهم ويطمئن نفوسهم أسرَّ إلى بنيامين وقال له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف، فلا تحزن بما أصابك من إخوتك بسبب الحسد، وأمره ألا يخبرهم بأن هذا العزيز هو أخوهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، وأفهمه أن جمع جميع الأحبة قريب، لما خططه يوسف عليه السلام ودبَّره حتى يجيء إليه أهله أجمعون، وعلى رأسهم أبوه يعقوب عليه السلام، وأنه لما جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ووفَّى لهم كيلهم وزادهم كيل بعير دسَّ السِّقَايَةَ «وهو صواع الملك»، في رَحْلِ أَخِيهِ بنيامين دون أن يراه أحد من غلمانه أو غيرهم، ولما افتقد فتيان يوسف الصواع وشاع أنه سُرق نادى منادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ يا أهل القافلة! ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قال أهل القافلة بمن فيهم من إخوة يوسف وقد انزعجوا: ماذا ضاع منكم؟ ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. ولم يكن يوسف عليه السلام هو الذي نادى، ولا هو الذي أمر المنادي، وإنما المسؤول عن المحافظة على أمواله هو الذي نادى أو أمر المنادي، فلا يقول قائل: كيف يليق بيوسف عليه السلام مع علوِّ منصبه وشريف مرتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً بالسرقة وهم براء؛ لأن عمل يوسف عليه السلام اقتصر على جعله ﴿ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهذه لا حرج فيها، أما المنادي أو الآمر بالنداء فلم يكن يوسف عليه السلام، وقد قال أهل القافلة للمنادي بفقد الصواع: والله لقد علمتم أننا في أمس الحاجة للتردد عليكم، ومثلنا مع حاجته إليكم لا يفسد في أرضكم، ولا يسرق منها، فقال المسؤلون عن المحافظة على الغلال والأمتعة: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين في دعواكم أن الصواع ليس معكم، وثبت أن صواع الملك في رحل بعضكم؟ قالوا: جزاء من وُجد في رحله صواع الملك أن يؤخذ ويصير في خدمة الملك جزاء له على ذلك، كذلك النظام الذي نجازي به السارقين.

وهنا بدأ يوسف عليه السلام بالتفتيش والبحث في رحالهم قبل التفتيش في رحل أخيه ووعائه؛ لأنه لو بدأ برحل أخيه لخطر ببالهم أنها حيلة لأخذ أخيهم، فأخَّر تفتيش رحل أخيه ليدفع هذه الخاطرة عنهم، ثم استخرجها من وعاء أخيه، يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كذلك ألهمنا إخوة يوسف أن يحكموا على من سرق الصواع بأن يؤخذ به كما ألهمنا يوسف بدس الصواع في رحل أخيه، وهذا الذي فعله يوسف عليه السلام من الكيد المحبوب الذي يحبه الله ويرضاه، ولكن الله عز وجل يرفع من يشاء من عباده درجات، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وإلى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس والثلاثون

تابع: يوسف الصديق عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق ما كان من تدبير يوسف عليه السلام لاستبقاء أخيه بنيامين عنده وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٦].

ولما رأى أخوة يوسف أن الصراع وُجد في رحل بنيامين أطلقوا ألسنتهم بسبه وسب يوسف، وقالوا: إن يكن قد سرق الصواع فقد سرق أخ له من قبل، وكأنهم أرادوا أن يوسف سرق قلب أبيه منهم، أو أنهم لبغضهم ليوسف عليه السلام بسبب حب أبيه له رموه وسبوه ولم يتركوا الإساءة إليه؛ ولذلك قال يوسف عليه السلام في نفسه وسِره عن إخوته هؤلاء: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ إن أخانا هذا له أب شيخ كبير لا يطيق فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ وأعطنا بنيامين لنوصله إلى أبيه، فقال يوسف: أعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ إنا إذاً لواضعو الأمر في غير موضعه، فيوسف عليه السلام لا حاجة له في واحد منهم سوى بنيامين، فلما يئسوا من تخليص بنيامين الذي قد التزموا لأبيه بردِّه إليه وعاهدوه على ذلك ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي

انفردوا عن الناس ليتناجوا فيما بينهم: ماذا يفعلون؟ فقال أسنهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠] برده إليه إلا أن يحاط بكم، فأنا سأبقى في هذه البلدة قريباً من بنيامين حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني أو يحكم الله لي، أي أو أن يقضي الله لي قضاء إما بموتي أو تخليص أخي والله خير الحاكمين.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون ذلك عذراً لهم فيقولوا له: إن ابنك نسب إلى السرقة وأُخذ بذلك. وما شهدنا إلا بما علمنا وشاع عند جميع من حولنا من أهل العير والقرية، وما كنا ندري أنه سيقع في هذا الأمر؛ لأننا لا نعلم الغيب، واسأل القافلة التي أقبلنا فيها والقرية التي كنا فيها، وإنا لصادقون، فوصلوا إلى أبيهم وأخبروه بما نصحهم به أخوهم الكبير، فأجابهم يعقوب عليه السلام بمثل ما أجابهم به حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب وقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ورجا الله عز وجل أن يرد عليه يوسف وبنيامين وأخاهم الكبير، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، وأعرض يعقوب عن هؤلاء ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، واشتد حزنه حتى ابيضت عيناه من الحزن، إذ جدد حزن الأخيرين حزن يوسف، لكنه كظم غيظه وسكت عن الشكوى لغير الله عز وجل، ومع ذلك فقد هيج حزنه على يوسف كوامن حقدهم فقالوا: تالله لا تزال ولا تبرح تذكر يوسف ولا تنسى حبه حتى تكون حرضاً أي مشرفاً على الموت والهلاك، أو تكون من الهالكين، قال إنما أشكو بثي أي عظيم حزني وغمي إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، من أن يوسف حي وقد يكون في مصر، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واطلبوا خبرهما، ولا تيأسوا من روح الله أي لا تقنطوا من رحمة الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فانطلقوا مرة أخرى إلى مصر بحثاً عن يوسف وشكوى إلى عزيز مصر مما أصابهم من الضر وطلباً للميرة؛ فلما دخلوا على يوسف قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أي مدفوعة لا يقبلها أحد لردائتها، فأحسن إلينا من فضلك، وأوف لنا وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين.

فقال لهم يوسف عليه السلام: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وقت جهلكم، فلما سمعوه يذكر ما فعلوه بيوسف تفرسوا فيه، ووقع في نفوسهم أنه يوسف عليه السلام فقالوا: أإنك لأنت يوسف، قال: أنا يوسف وهذا بنيامين أخي قد منَّ الله علينا بالإعزاز والإكرام، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فأظهروا الندم على ما كان منهم، وقالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وفضلك، وإنا كنا خاطئين آثمين فيما فعلناه بك. قال: لا عتب ولا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وقد علم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن فقال لإخوته: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين. وهذا يدل على أن الحزن يؤثر على العين ويؤذيها، وأن السرور يؤثر على العين صحة وعافية؛ ولذلك قالت الخنساء في صخر عن نفسها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وبمجرد خروج العير من أرض مصر ومعهم قميص يوسف شم يعقوب ريح يوسف عليه السلام، فقال لمن حضره من بنيه وأولادهم: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تنسبوني إلى السفه لصدقتموني، قالوا تالله إنك لفي ضلالك وهيامك القديم في حب يوسف. فلما جاء البشير بالقيمص وألقاه على وجه يعقوب عليه السلام رجع بصيراً. وقال لهم: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فطلبوا من أبيهم الصفح عنهم، وأن يستغفر الله لهم، وأنهم أخطؤوا في حق أبيهم وأخيهم. فوعدهم بأنه سيستغفر لهم ربه إنه هو الغفور الرحيم. ثم توجهوا جميعاً إلى مصر وجمع الله شملهم.

فلما دخلوا على يوسف ضم إليه أبويه أي أباه وخالته أو أباه وأمه على القول بأنها عاشت إلى ذلك الحين، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وأجلس أبويه على سريره، وسجدوا لله جميعاً شكراً من أجل يوسف على ما منَّ به الله عليهم وما أعز به يوسف. وقال يوسف لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد تفضل عليَّ إذ أخرجني من السجن وجاء بكم

من البدو من بعد أن نزغ الشيطان، فأفسد قلوب إخوتي عليَّ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وقد تمت على يوسف النعمة وآتاه الله الملك، وطلب من الله ﷻ أن يلحقه بالصالحين. وفي ذلك يقول:

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن

تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٧٧ ـ ١٠٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والثلاثون

شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ

نتحدث إليكم عن شعيب نبي الله ورسوله الموصوف بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأكثر أهل العلم ينسبونه إلى إبراهيم خليل الرحمن عليهما الصلاة والسلام، وبعضهم يذكر أنه من العرب العاربة، وقد بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ إلى قومه مدين، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت، على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام، كما هي على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد؛ كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة؛ وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والآراك، كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعدياً على الأموال، يطففون في المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ويسلكون كل سبيل معوجة، وينحرفون عن الصراط المستقيم، وقد سماهم الله عَزَّ وَجَلَّ مدين باسم قبيلتهم، كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة، وقد تَوَهَّمَ بعض الناس فزعم أن شعيباً أُرسل إلى أُمَّتين هما مدين وأصحاب الأيكة، وهذا قول مردود، وفهم غير سديد، وإنما مدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال في أصحاب الأيكة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. ولم يقل أخوهم؛ لأنه لما ذكر مدين ـ وشعيبٌ في نسبها ـ قال: أخوهم، ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيب غير مشارك معهم في أيكتهم قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم وهُمْ هُمْ، وجملة الأوصاف

التي وصف الله ﷻ بها أهل مدين هي جملة الأوصاف التي وصف الله ﷻ بها أصحاب الأيكة، وقد بعث الله ﷻ إلى مدين أصحاب الأيكة شعيباً عليه السلام، وهو من أهل بيت هم أعز بيوت مدين، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأمرهم أن يوفوا الكيل والميزان. وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يتركوا الإفساد في الأرض، وأن لا يقطعوا الطريق، وأن يستغنوا بالحلال من رزق الله عن الحرام، وأن يتركوا الظلم ويلتزموا بالعدل في معاملاتهم، وأنَّ ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين، وبيَّن لهم أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ولا يسألهم عن نصيحته لهم عوضاً، وأنه يخاف عليهم إن كذبوه أن يحل بهم ما حل بالمكذبين بالرسل، وتهددهم إن شاقوه أن يصيبهم ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٨٩]، وذكرهم بما أصاب قوم لوط لما كذبوا لوطاً عليه السلام، وهم غير بعيدين عنهم، يعلمون ما حل بهم.

وقد ساق القرآن قصة مدين بعد قصة قوم لوط مباشرة في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سورة الحجر، وفي سورة الشعراء، كما ذكّرهم شعيب عليه السلام بنعمة الله عليهم في أنفسهم وبلادهم، وكيف كانوا قليلاً فكثرهم، فما كان جواب قومه إلا أن سخروا منه، واستهزؤوا به وبصلاته. وقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، و﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، تماماً كما قال الكفار لرسول الله محمد ﷺ ولإخوانه الأنبياء من قبله، وقالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التي عبدها آباؤنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صلاتك تقيد حريتنا في التصرف في أموالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو رِبا أو رشوة أو تطفيف الكيل والميزان، كنا قبل دعوتك نظنك حليماً رشيداً، وجهلوا أن رسل الله صلى الله عليهم قد اتفقت دعوتهم على أنه يجب صيانة النفس والمال والعِرض والعقل مع صيانة الدين، وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ من مال غيره شيئاً من غير طريق مشروع، كما جهل هؤلاء أن طيب المطعم أو خبثه له أثر خطير على سلوك الإنسان استقامة أو انحرافاً، وقد أجابهم شعيب عليه السلام بأن الله تفضل عليه وهداه إلى هذا الدين الذي يسلك بهم سبل السلام ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

والسعيد من سارع إلى اتباعه والعمل بما يرسمه، وهذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنا أول المؤمنين الملتزمين بهذا الدين، ولن ﴿أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ولا أريد لكم إلا الخير. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد هذا البيان الواضح والدعوى المشرقة من شعيب عليه السلام قالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، ولا ندري حكمة هذه الأوامر والنواهي التي جئت بها، وأنت رجل ضعيف نستطيع القضاء عليك، إلا أننا من أجل رهطك وعشيرتك تركناك ولم نرجمك، ولن ترى منا بعد اليوم كرامة ولا إعزازاً، فقال لهم شعيب: أمقام رهطي أهيب في قلوبكم من الله المحيط بكم الآخذ بنواصيكم الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، ومع ذلك لم تخافوه ولم تعظموه وهو رب كل شيء وسيده ومليكه المحيط بأعمالكم، وقد أجابه إلى الله تبارك وتعالى جماعة من قومه فأغاظ ذلك الكافرين وهددوا شعيباً والمؤمنين بطردهم من البلاد إذا لم يرجعوا عن هذا الدين وحاولوا التلبيس على المؤمنين فقالوا لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. فأجابهم شعيب والمؤمنون معه: كيف تطلبون منا أن نرجع من النور إلى الظلمات ومن الهدى إلى الضلالة، وقد تفضل الله علينا فهدانا إلى صراطه المستقيم. ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وانصرنا عليهم ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، وسيد الحاكمين، وخير الناصرين، وليس في قوله تعالى عن شعيب والمؤمنين: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾. دليل على أن شعيباً كان على ملتهم، بل المراد بالعود هنا الصيرورة، أي إن صرنا في ملتكم بعد أن صاننا الله عن الوقوع فيها. وكذلك ما حكاه الله عن قوم شعيب في قولهم له وللمؤمنين به: ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا، فكلمة عاد قد تستعمل بمعنى صار، وقد بلغ الحال بقوم شعيب أن استعجلوا عقوبة الله وطلبوا من

شعيب أن يأتي بها وأن يُسقط عليهم كسفاً من السماء إن كان من الصادقين. فبيَّن لهم شعيب أن عقوبتهم بيد الله وحده يأتي بها إن شاء متى شاء، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه عليم بأقوالكم واستهزائكم ولن تفلتوا من عقوبته، ثم تحداهم عليه السلام وقال لهم: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي ابذلوا كل جهدكم وطاقتكم لمقاومة عذاب الله إذا نزل بكم، وأنا عامل على طاعة الله أبذل كل جهدي في مرضاته، وسترون قريباً لمن تكون العاقبة الحميدة، وانتظروا وإني منتظر، وستندمون حيث لا ينفعكم الندم، ولما جاء أمر الله نجَّى الله تعالى شعيباً والذين آمنوا معه برحمة من الله، وسلَّط الله تبارك وتعالى على الكافرين من قومه العذاب؛ فجاءتهم رجفة وزلزلة من تحتهم، وصيحة زلزلت قلوبهم، وظُلَّةٌ أمطرتهم كِسفاً من عذاب الله، وقطعاً من النار، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فأصبحوا في بلادهم وديارهم جاثمين صرعى هالكين كأن لم يغنوا في هذه الديار ولم يقيموا فيها، وألحقهم الله عز وجل بالكافرين المكذبين، فبُعداً لمدين كما بعدت ثمود، هذا وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم، فذكر قصتهم في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الشعراء، وذكرها على سبيل الإيجاز في سورة العنكبوت وفي سورة الحجر.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والثلاثون

تابع شعيب عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم؛ فذكرها في سورة الأعراف حيث يقول:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟

ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٩٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١].

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦ ـ ٣٧].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩].

كما قرن ذكر مدين بمجموعة من الأُمم التي كذبت رسلها وأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد حيث يقول في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠] وكما قال في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

وفي قوله تعالى في قوم لوط وقوم شعيب: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]. أي إن قرى قوم لوط وأهل مدين على طريق مشهور مسلوك يعرفه المسافرون إلى تلك الجهات، ويتوارث العلم به جيل بعد جيل، فلا يزال الناس إلى اليوم يعرفون قرى قوم لوط وأرض مدين.

وقد وهم كثير من المنتسبين للعلم فزعموا أن شعيباً هو الشيخ الكبير الذي زوّج موسى عليه السلام ابنته لما توجه موسى إلى أرض مدين هارباً من فرعون والقوم الظالمين قبل أن يبعثه الله عز وجل نبياً رسولاً، ويفسرون بذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ

عَلَىٰٓ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢٩].

فإن شعيباً عليه السلام متقدم على موسى عليه السلام بقرون كثيرة وأزمان متباعدة، ولا يلزم من ورود موسى أرض مدين ووجود شيخ كبير صالح فيها يزوِّج موسى إحدى ابنتيه أن يكون هذا الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام. ولم يرد خبر صحيح عن رسول الله ﷺ يذكر أن الرجل الذي صاهر موسى بمدين هو شعيب عليه السلام، بل القرآن يشير إلى أن الله تعالى بعث موسى بعد قرون متطاولة من إهلاك قوم شعيب، حيث يقول عز وجل في سورة الأعراف بعدما ذكر قصة شعيب مع قومه وهلاكهم: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١ ـ ١٠٣].

وقال في سورة القصص: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

وقال شعيب لقومه: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩].

وقوم لوط أهلكوا في حياة إبراهيم خليل الرحمن، وبينهم وبين موسى أمم متطاولة وأجيال متباعدة، أما الذي زوَّج موسى عليه السلام ابنته فهو رجل مؤمن، من ذرية أحد المؤمنين الذين نجاهم الله من قوم شعيب. والله أعلم.

هذا وظاهر سياق القرآن لقصة قوم شعيب عليه السلام يشعر أن أكبر جرائمهم بعد الشرك بالله كان التطفيف في الكيل والميزان؛ مما ينبه الناس إلى الاحتراز من هذه الجريمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والثلاثون

أيوب عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله قدوة الصابرين المضروب به المثل في الصبر على البلاء أيوب عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٤]. بناءً على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ عائد على إبراهيم عليه السلام؛ لأن الكلام سيق من أجله، وقال بعض أهل العلم إنه ليس من ذرية إبراهيم وجعل الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ راجعاً إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور. على أن الله تبارك وتعالى قد حصر النبوة بعد إبراهيم في ذريته حيث قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [٢٧].

وقد اشتملت قصة أيوب عليه السلام في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على نقاط: منها ابتلاؤه وأنه مسه الضر، وأن هذا الضر أصابه في نفسه وأهله، فأحس بِنُصْبٍ وعذاب، أي بتعب وألم ومشقة، ومنها أنه ابتلي فحلف على فعل شيء يؤلمه تنفيذه ويشق عليه، كما أنه ابتلي بالغنى الواسع والمال الوفير، ولم يثبت عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم تحديد نوع البلاء الذي أصيب به أيوب عليه السلام في جسمه؛ إلا أن القرآن العظيم يشير إلى أنه أُصيب بنوع من الحمى الشديدة، إذ جعل الله تبارك وتعالى علاجه من مرضه أن يغتسل بماء بارد، وأن يشرب منه، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ أُصيب بنوع من الحمى أن يغتسل بالماء البارد؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء**»؛ وفي لفظ للبخاري من حديث

عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما كانت إذا أتيت بالمرأة قد حمت تدعو لها، أخذت الماء فصبته بينها وبين جيبها وقالت: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبردها بالماء.

وليس كل مرض أو كل حمى يعالجها التبريد بالماء، إنما هو نوع خاص من الحمى، إذ إن بعض أمراض الحمى قد يقتل المريض أن يغتسل بالماء.

والظاهر أن نوع المرض الذي أصاب أيوب عليه السلام كان غاية في الشدة والوجع والألم، وليس ذلك بغريب، فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**» فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَجَل**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**».

وقد أخرج الدارمي والنسائي في الكبرى وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**». وقال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**».

أما ما يذكر من أن أيوب مرض وطال مرضه حتى عافه الجليس وأُخرج من بلده وأُلقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، وأن الدود صار يسرح ويمرح في جسده، وأنه تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، وأنه مر عليه في هذا المرض ثلاث سنوات أو سبع سنوات أو ثلاث عشرة سنة أو ثماني عشرة سنة، وأنه كان له أخوان صديقان

فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب جزعاً شديداً إلخ. وأنه لما شفاه الله جاءته امرأته إلى المزبلة فلم تعرفه، فقالت له: أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ هذا القصص المختلق لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ وعامة أهل العلم، على أن الله تبارك وتعالى يحمي أنبياءه من الأمراض المنفرة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى أعطى أيوب غنًى واسعاً، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رِجْل جرادٍ من ذهب فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك**».

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصته في موضعين من كتابه الكريم، فقال في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]. وقد عقَّب ذلك في هذا المقام ببيان أن الصبر من شيما المرسلين فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في هذا المقام أنه تفضل على أيوب فاستجاب له وكشف الضر عنه وأعطاه أهله ومثلهم معهم رحمة من الله وذكرى للعابدين.

وقال في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

وفي هذا المقام الكريم يسند أيوب الضر الذي أصابه إلى الشيطان تأدباً مع الله عز وجل في إسناد الشر إلى الشيطان؛ لأنه سبب كل بلاء يصيب ابن آدم في

الدنيا، حيث إنه هو المتسبب في إخراج آدم من الجنة وإهباطه إلى هذه الأرض للامتحان والابتلاء. وقد أشار الله تبارك وتعالى بقول: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ الآية. والضغث قُبضة الحشيش المختلطة الرطب باليابس، وهو يشعر أنه حلف في حالة غضب أن يضرب حبيباً له عدداً معيناً، وقد أمره الله عز وجل أن يبر بيمينه فيضرب من حلف على ضربه بهذه القبضة، مكافأة له على صبره وإحسانه؛ لأنه لو ضربه بسوط أو نحو لآلم ذلك الضارب والمضروب؛ ففرج الله كربته، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع والثلاثون

إدريس وإلياس عليهما السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما إدريس وإلياس عليهما الصلاة والسلام، وقد أشار البخاري في صحيحه إلى أن إدريس هو إلياس، حيث قال: يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، كما أشار البخاري رحمه الله إلى اختلاف الناس في نسب إدريس عليه السلام، حيث قال في صحيحه: باب ذكر إدريس عليه السلام، وهو جد أبي نوح، ويقال: جد نوح عليه السلام، ولم يجزم البخاري بشي من نسب إدريس عليه السلام، ولم يرد عن رسول الله ﷺ خبر ثابت يؤكد أن إدريس قبل نوح عليه السلام، وقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله إلى أن إدريس عليه السلام لم يكن جداً لنوح عليه السلام، وإنما هو من بني إسرائيل بناءً على أن إدريس هو إلياس، وأن إلياس من أنبياء بني إسرائيل، ومما يرجح ذلك الذي ذهب إليه ابن العربي ما رواه البخاري في صحيحه في حديث الإسراء والمعراج بلفظ: فلما مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فقلت: من هذا قال: هذا إدريس، وفي لفظ للبخاري من طريق قتادة: **ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس. قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.** فقوله: بالأخ الصالح، يشعر بأن رسول الله ﷺ ليس من ذريته، ولو كان إدريس جداً لنوح لكان رسول الله ﷺ من ذريته قطعاً، ولقال له كما قال له آدم وإبراهيم عليهما السلام في ليلة الإسراء والمعراج في هذا الحديث الصحيح: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

وكون إدريس عليه السلام قبل نوح أو بعده لا يتعلق به عظيم قصد، ولذلك لم يرد تحديد تاريخ وجوده وزمان بعثته في خبر ثابت صريح، وإنما المهم هو أنه من أنبياء الله تعالى، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وأنه كان صديقاً نبياً.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧]. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقد ذكر كثير من المفسرين والإخباريين كثيراً من الأساطير عن إدريس عليه السلام، فزعموا أنه طلب من أحد الملائكة أن يتوسط له عند ملك الموت أن يؤجل قبض روحه ليزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال له ملك الموت: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بُعِثْتُ وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك.

كما زعموا له أوليات كثيرة فقالوا: إنه أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، وأول من خط بالرمل.

وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء: ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.ا.هـ.

أما إلياس عليه السلام فظاهر القرآن الكريم يشير إلى أنه من ذرية نوح عليه السلام، حيث يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥]، فهذا يدل على أن إلياس من ذرية نوح سواء قلنا: إن الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ يعود على نوح أو على إبراهيم؛ لأن إبراهيم؛ من ذرية نوح، فمن كان من ذريه إبراهيم فهو من ذرية نوح لا محالة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إلياس في سورة الأنعام كما ذكرت قريباً، كما ذكر قصته في سورة الصافات، وقد تضمنت هذه القصة صورة مشرقة من صور دعوته إلى الله ﷻ، ووجوب إخلاص العبادة لله وحده، وحض قومه على تقوى الله تبارك وتعالى وتحذيرهم من أسباب سخطه، وأنه لا ينجيهم من عذاب الله إلا الفرار إلى الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وسلوك صراط الله المستقيم، ونفَّرهم من عبادة صنمهم «بعل»، وأشعرهم بأن هذا الصنم لا يستحق تقديساً ولا تكريماً، وأن الله تبارك تعالى قد أيَّد إلياس بالحق ونصره على قومه المكذبين، وأن الله تعالى قد جعل العاقبة الحميدة لإلياس ﵇ ومن آمن به، وأنه ترك له ذكراً حسناً وثناءً جميلاً وسلاماً في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

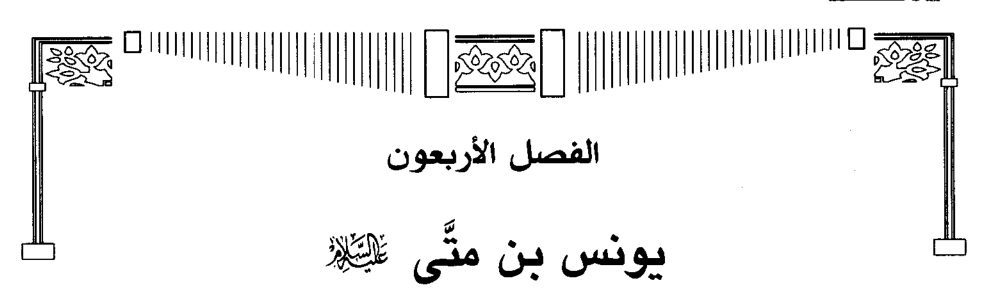
وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٢].

وفي هذه القصة تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وعبرة لأولي الألباب، وأن العاقبة الحسنة لعباد الله الصالحين، وأن عاقبة السوء للمكذبين المنحرفين، وإلياس اسم عبراني، وقد تزاد في آخره ياء ونون، فيقال فيه: إلياسين كما قالوا في إدريس: إدريسين، وقد قرأ أكثر القراء السبعة: سلام على إلياسين. وهذا يحتمل أن المراد إلياس وحده بزيادة الياء والنون على اللغة التي ذكرتها، ويحتمل أن المراد به: سلام على إلياس ومن معه من المؤمنين، فجُمِعوا معه تغليباً كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وللأشعري وقومه أشعرون بحذف ياء النسب، وقد قرأ نافع وعبد الله بن عامر: سلام على آل ياسين. وهذا يحتمل أن يكون اسم والد إلياس ياسين، فكأنه قيل: سلام على إلياس ولد ياسين، ويحتمل أن يكون ياسين اسماً ثانياً لإلياس ﵇، والمراد بآله رهطه وقومه المؤمنون معه ﵇، فكأنه قيل: سلام على إلياس ومن معه من المؤمنين، والعلم عند الله ﷻ.

هذا وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل، وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة، وبينا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليه السلام.ا.هـ. كلام ابن كثير.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الأربعون

يونس بن متَّى عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله ذي النون يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام، وقد أرسل الله تبارك وتعالى يونس إلى أهل نينوى من الموصل بالعراق، فدعاهم إلى الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، وقد بذل لهم النصح، وبلغهم رسالة ربه، ولما لم يكن يونس عليه السلام من أولي العزم من المرسلين لم يتحمل ما يتحمله أولو العزم من الرسل من الصبر على تكذيب قومه له، وإيذائه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قومه أغضبوه، وأنه أحسَّ منهم الكفر، فتهددهم بعقوبة من الله عز وجل تحل بهم إن لم يؤمنوا به، وبدأت أمارات العذاب تظهر في جوهم، وأخذت مقدمات العذاب تتجه نحوهم، فظن يونس عليه السلام أنه قد أدى ما عليه من أعباء الرسالة، ما دام قد أوضح لقومه الطريق وعرفهم صراط الله المستقيم، وحذرهم من أسباب سخط الله وغضبه، وأن الله تعالى لن يضيق عليه إن هاجر من أرض قومه، وأن له أن يذهب حيث يشاء، فاتجه نحو البحر، وركب سفينة مشحونة، ويظهر أن أهل السفينة عندما رأوه، وشاهدوا ما علاه من الوقار والبهاء لم يحاولوا ردَّه عن ركوب سفينتهم.

غير أن البحر لما هاج، اضطر ركاب السفينة إلى تخفيف حمولتها من الركاب، فعملوا قرعة ليلقوا في البحر من تقع عليه القرعة، فكان يونس عليه السلام: ﴿مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، أي ممن وقعت عليهم السهام، فألقي في البحر وهو في كربه وغمه وهمه الذي فارق عليه قومه، فهيَّأ الله عز وجل له حوتاً أي سمكة فابتلعه الحوت، وصان الله تبارك وتعالى يونس من أذى الحوت فلم يكسر له عظماً، ولم يخدش له لحماً، وإنما صار بطن الحوت كالسجن المؤقت ليونس عليه السلام، وأحاطت به ظلمة بطن الحوت داخل ظلمات البحر، فصرخ يونس

ينادي ربه متوسلاً إليه بكلمة التوحيد التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل ومن أجلها يقام سوق الجنة والنار، وقد نزَّه الله ﷻ عن كل نقص، واعتذر إلى الله ﷻ من فراره من قومه، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاستجاب الله له، ونجاه من الغم، فأسرع الحوت إلى شاطئ البحر، وقذف بيونس في العراء، وهو مريض من شدة ما أصابه من الهول والكرب والهم والغم، وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين، واليقطين هو ما لا ساق له من النبات، ويقال لحمله القرع أو هو الدباء، وهو نوع من القرع.

وقد ذكر العلماء في حكمة إنبات اليقطينة على يونس عليه السلام أن ورقة شجرة القرع في غاية النعومة، وأنه كثير، وأنه ظليل، ولا يقربه الذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيّاً ومطبوخاً، ويؤكل بقشره وببذره أيضاً، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ وللبدن إلى غير ذلك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتتبع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذٍ.

وقد ردَّ الله تبارك وتعالى ليونس كمال صحته، وأخبره بأن قومه آمنوا لما رأوا عذاب الله متجهاً نحوهم، وأن الله قبل منهم إيمانهم وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وأمره الله تبارك وتعالى بالرجوع إليهم والاستمرار في توجيههم إلى صراط الله المستقيم، فرجع إليهم يونس عليه السلام، وكانوا أكثر من مئة ألف إنسان، وقد أفاض الله عليهم من الخيرات والبركات، فعاشوا آمنين في ظل شريعة الله التي بعث بها يونس عليه السلام.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى جوانب من قصة يونس عليه السلام في مواضع من كتابه الكريم، وقد ذكر في كل مقام منها مقاله الذي يناسبه، فذكر في سورة سُميت بكاملها سورة يونس أنه امتنَّ على أمة يونس بمنة تفردوا بها من بين الأمم السابقة، وأنه استثناهم بها من قاعدة: أن من آمن من الكفار عند رؤية العذاب لا

ينفعه إيمانه على حد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. فقد استثنى الله تبارك وتعالى أمة يونس من هذه القاعدة، فإنهم عندما رأوا مقدمة العذاب مقبلة عليهم آمنوا بالله وصدقوا يونس عليه السلام وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وفي سورة الأنبياء يقول عز وجل: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]. فقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي واذكر في المرسلين صاحب النون، والنون الحوت والمراد به يونس عليه السلام، فقد لقبه الله تعالى بصاحب النون وصاحب الحوت لالتقام الحوت له، ورحمته به، وملازمته له فترة من الزمن، وتخليصه إياه من الغرق، حتى طرحه على الساحل، وقوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي فارق قومه وهو ممتلئ من الغضب عليهم لكفرهم به، وتكذيبهم له، فهو غاضب عليهم وهم عليه غضاب. وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي فحسب أن الله تعالى لن يُضيق عليه إذا فارق قومه الكافرين بعد أن بلغهم رسالة ربهم، وكان هذا عن اجتهاد منه عليه السلام، فمعنى نقْدر: نضيِّق على حد قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا ينبغي أن يخطر ببال مسلم أنَّ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ هنا بمعنى يستطيع، فإن أحاد المؤمنين من غير الأنبياء لا يخطر بباله أن الله يعجز عن شيء ولا يستطيعه، إذ هو على كل شيء قدير.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والأربعون

تابع: يونس بن متّى عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أما قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. أي فصرخ مستغيثاً بربه في ظلمات بطن الحوت في البحر اللجّي متوسلاً إليه بكلمة التوحيد، مُنَزِّهاً الله تعالى عن كل نقص، واصفاً له بكل كمال، مستغفراً الله عز وجل من مفارقة قومه دون إذن من الله عز وجل قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يدل على أنه ارتكب ذنباً أو أتى معصية، فقد ثبت أن نوحاً رسول الله عليه السلام وأحد أولي العزم من المرسلين لما قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] أي فأجبنا يونس لما دعانا وهو في بطن الحوت، وخلصناه من الغم والهم والحزن والكرب الذي وقع فيه، فوضعه الحوت على ساحل البحر، وأتممنا عليه النعمة، وكذلك ننجي كل مؤمن يقع في غم وكرب فيلتجئ إلينا فإنا نخلصه مما هو فيه من الغم والكرب ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى

ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿أَبَقَ﴾ أي ذهب بلا خوف أو استخفى ثم ذهب، وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي اشترك في القرعة مع ركاب السفينة، واقترع معهم فيمن يُلقى من الركاب في البحر لتخفيف حمل السفينة ولتنجية من لم يقع عليه السهم من الركاب. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة ليُلقى بهم في البحر.

وقوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلع الحوت يونس عليه السلام، وهو مليم، أي معاتب نفسه على فراق قومه بلا إذن من ربه، أو وهو آت بما يلام عليه أي يعاتب عليه، فاللوم العذل والعتب، وكون بعض الأنبياء يفعل ما يعاتب عليه عن طريق الاجتهاد لا ضير فيه، وقد وقع ذلك لأكمل خلق الله وسيد المرسلين محمد ﷺ يوم بدر حينما استشار أصحابه فيما يفعله بالأسرى فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه باستبقائهم وقبول الفداء منهم، وأشار عليه عمر رضي الله عنه بقتلهم لإضعاف شوكة المشركين، وكان رسول الله ﷺ لا يخيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فمال إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه وقَبِلَ الفداء من الأسرى، فعاتبه الله تعالى على قبول الفداء، وقال عز وجل في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]. أي فلولا أن يونس عليه السلام كان من الذاكرين الله كثيراً المسبحين بحمده في السرَّاء والضرَّاء لجعلنا بطن الحوت مقبرة له، لكنه كان يتعرف إلى الله في الرخاء، ففرَّج الله كربته في الشدة؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ

قال لابن عباس رضي الله عنهما كما رواه أحمد وبعض أهل السنن: «**يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. أي فأمرنا الحوت بطرحه على ساحل البحر في الفضاء، وكان قد سقِم ومَرِضَ مما أصابه من الغم والكرب وبطن الحوت، و﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ليست للشك في عدد المرسل إليهم، بل هي للإضراب بمعنى بل، فقد أثبت مئة ألف، فاستقر هذا العدد الكثير في نفوس السامعين، ثم ذكر أنهم يزيدون على ذلك، فيكون زيادة في تعظيم عدد المرسل إليهم، وهو أبلغ من قول القائل: أُرسل إلى أكثر من مئة ألف، وأجمل وأفصح وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ بما منَّ الله تعالى به على يونس عليه السلام، والزائد من عدد هؤلاء عن مئة ألف لا يعلمه إلا الله إذ لم ينقل عن المعصوم ﷺ تحديد لهذه الزيادة.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي فاستمروا على إيمانهم، وازدادوا إيماناً بما رسمه لهم يونس عليه السلام، ففتح الله عليهم من البركات والخيرات مدة استمساكهم بالدين الذي جاءهم به يونس عليه السلام.

وقال تعالى في سورة (ن): ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [٤٨ ـ ٥٠] وفي هذا المقام الكريم من مقامات ذكر يونس عليه السلام يبدأ الله عز وجل بأمر حبيبه ورسوله محمد ﷺ بالصبر على أذى قومه له مهما كان منهم، لأنه سيد أولي العزم من المرسلين، ثم نبهه إلى أنه لا ينبغي له أن ينفد صبره كما نفد صبر أخيه يونس عليه السلام بعد أن امتلأ كرباً وغماً من أذى قومه له، فإن يونس عليه السلام ليس من أولي العزم من المرسلين، فهو من جملة النبيين المرسلين من غير أولي العزم، وقد قال الله تعالى في واحد منهم وهو أبوهم آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وقال لشيخ المرسلين محمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهذا لا يمنع أن يقتدي رسول الله ﷺ بإخوانه النبيين فيما جاؤوا به من الهدى بما فيهم يونس عليه السلام؛ ولذلك لما ذكر الله تعالى جملة من النبيين والمرسلين في سورة الأنعام وفيهم يونس عليه السلام قال الله لرسوله ﷺ بعد ذكرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والأربعون

تابع: يونس عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس عليه السلام من سورة «ن»: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] ليس داخلاً في حيز النهي، فإن نداء المكظوم ودعاءه ربه محبوب مطلوب، ومعنى إذ نادى وهو مكظوم، أي دعا ربه وهو ممتلئ كرباً وغماً، حيث قال وهو في بطن الحوت، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، أي لولا أن أدركته رحمة الله وعنايته لطرح بالأرض الفضاء وهو ملوم، وما دام قد أدركته رحمة الله فقد ألقاه الحوت على الساحل غير ملوم، وكأن الله تبارك وتعالى تفضل على يونس عليه السلام فلم يؤاخذه باجتهاده في فراق قومه حين ذهب مغاضباً بلا إذن من ربه، كما تفضل على محمد ﷺ حينما لم يؤاخذه على قبول فدية الأسارى يوم بدر حيث قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] و﴿لَّوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، فقد امتنع جوابها هنا لوجود شرطها، وكل من لم تدركه رحمة الله مذموم، لكن يونس لم يذم؛ لأنه أدركته رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] زيادة في فضل الله تعالى على يونس عليه السلام أن الله تعالى اجتباه، أي أعلى درجته في المصطفين الأخيار، وجعله من الكاملين في الصلاح، وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة تُشْعِر بفضل يونس عليه السلام وتنهى عن تفضيل سيد الأنبياء وشيخ المرسلين محمد ﷺ على يونس بن متى، وهي محمولة على أنها من باب تواضعه ﷺ كما أشرتُ في قصة إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام إلى أن تواضع الرفيع القدر لا ينزل من قدره،

وقد جاء صريح القرآن في تفضيل بعض الأنبياء على بعض حيث يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولا شك عند أهل العلم أن أولي العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم جميعاً وسلم، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسبباً لإثارة الشر وإلحاق الضرر بالمسلمين، فإنه ينبغي الكف عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فإن الأصنام والأوثان تستحق السب، لكن إذا كان سبُّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه نُهي عن سبها لذلك.

وكذلك التفضيل على وجه الفخر أو الحمية أو العصبية، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع تفضيله على موسى أو يونس بن متى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سلعة له، أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه، قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسوله الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إن لي ذمةً وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «**لِمَ لطمتَ وجهه؟**». قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرِف الغضب في وجهه ثم قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى** عليه السلام **آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى**». وقوله ﷺ في هذا الحديث عن

موسى عليه السلام: «**فأكون أول من بُعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي**» لا يدل على أن موسى أفضل من محمد ﷺ، إذ القاعدة عند أهل العلم أن المزية لا تنافي الأفضلية. أي إن ثبت لأحد مزية على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أفضل من الآخر، ومثال ذلك أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «**يا بلال! حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة**» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي، وفي لفظ لمسلم: «**فإني سمعت الليلة**» وفي لفظ له بدل «**دف نعليك**» «**خشف نعليك**» والدف الحركة الخفيفة، والخشف الحركة الخفيفة أيضاً، فالدف والخشف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من حديث بريدة رضي الله عنه في حديث بلال هذا أن رسول الله ﷺ قال: «**يا بلال! بم سبقتني إلى الجنة؟**» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالاً أفضل من رسول الله ﷺ لهذه المزية.

ولعل أحداً يحسب أنه خير من يونس بن متى عليه السلام عندما يسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ويجهل أن المقصود من هذا الذكر الكريم تنبيه رسول الله ﷺ ـ كما أسلفت ـ إلى التأسي في باب الصبر بأولي العزم دون التأسي بمن ليسوا من أولي العزم في هذا الباب، وينسى كذلك أن الله أمر رسوله محمداً ﷺ بالاقتداء بالأنبياء والمرسلين بما فيهم يونس عليه السلام في باب الاهتداء إلى الصراط المستقيم كما جاء في سورة الأنعام كما أشرت؛ ولذلك كله حذر رسول الله ﷺ المسلمين من أي خاطر شيطاني في هذا الأمر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى**» ونسبه إلى أبيه، وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير**

من يونس بن متى». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**». سلام على يونس في المرسلين.

وإلى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







الفصل الثالث والأربعون

اليسع وذو الكفل عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما اليَسَعَ وذو الكِفْلِ عليهما الصلاة والسلام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى اليسع في كتابه مرتين، فذكره في جملة الأنبياء الذين أعطاهم الله تعالى الحُجة على قومهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم، فقال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦]، ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذكر اليسع مرة أخرى في جملة الأنبياء الذين أمر رسوله محمداً ﷺ أن يتأسى بهم في الصبر على أذى قومه له، فقال تعالى في سورة «ص»: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وبعد سياق قصة داود قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وبعد سياق قصته ذكر من كان أشد منهما ابتلاء وهو أيوب عليه السلام، وقال في آخر قصته: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

ثم ذكر ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] ثم قال: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

واليسع اسم يمكن أن يكون عبرانياً، ويمكن أن يكون عربياً، قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير سورة الأنعام: وقرأ الجمهور واليسع كأن أل أدخلت

على مضارع وسع، وقرأ الأخوان «يعني بهما حمزة والكسائي» واللَّيْسَع على وزن فيعل نحو الضيغم، واختلف في: أهو عربي أم أعجمي، فأما على قراءة الجمهور وقول من قال إنه عربي فقال: هو مضارع سمي به ولا ضمير فيه. فأعرب ثم نُكِّر وعُرِّف بأل، وقيل: سمي بالفعل كيزيد ثم أدخلت فيه أل زائدة شذوذاً كاليزيد في قوله: رأيت اليزيد بن اليزيد مباركاً. ولزمت كما لزمته في الآن. ومن قال: إنه أعجمي فقال: زيدت فيه أل ولزمت شذوذاً، وممن نص على زيادة أل في اليسع أبو علي الفارسي، وأما على قراءة الأخوين فزعم أبو علي أن أل فيه كهي في الحارث والعباس؛ لأنهما من أبنية الصفات، لكن دخول أل فيه شذوذ عما عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجئ فيها شيء على هذا الوزن، كما لم يجئ فيها شيء فيه أل للتعريف، وقال أبو عبد الله بن مالك الجياني: ما قارنت أل نقله كالمسمى بالنضر أو بالنعمان أو ارتجاله كاليسع، والسموءل فإن الأغلب ثبوت أل فيه، وقد يجوز أن يحذف، فعلى هذا لا تكون أل فيه لازمة؛ واتضح من قوله أن أليسع ليس منقولاً من فعل كما قال بعضهم. ا. هـ.

ثم قال أبو حيان: وهذه الأسماء الأعجمية لا تجر بالكسرة ولا تنون إلا اليسع فإنه يجر بها ولا ينون، وإلا لوطاً فإنه مصروف لخفة بنائه بسكون وسطه وكونه مذكراً وإن كان فيه ما في إخوته من مانع الصرف وهو العلمية والعجمة الشخصية. ا. هـ.

هذا وكون اليسع هو ابن أخطوب أو ابن العجوز أو كان اسمه الأسباط ابن عدي من ذرية يوسف بن يعقوب عليه السلام، أو هو ابن عم إلياس، وكان مستخفياً معه بجبل قاسيون، وأنه خلف إلياس في قومه أو كان ببانياس من أرض الشام فإن هذه الأقوال كلها لا تستند إلى دليل صحيح، وفيما ذكره الله عز وجل عنه في محكم كتابه كفاية. والعلم عند الله عز وجل.

أما ذو الكفل فقد ذكره الله تبارك وتعالى كذلك مرتين في كتابه الكريم، فذكره في سورة الأنبياء في جملة من المرسلين بعد قصة أيوب عليه السلام ليتأسى بهم رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم في الصبر على أذى قومه، فقال عز وجل: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ

وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

كما ذكره الله عز وجل في سورة «ص» بعد قصة أيوب أيضاً حيث قال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

وقد زعم بعض الناس أن ذا الكفل لم يكن نبياً، ونسبوا هذا القول المردود إلى بعض السلف، معتمدين على أخبار مدسوسة إسرائيلية، لم يصح منها خبر عن رسول الله ﷺ، والمتبادر من سياق القرآن العظيم يثبت أنه من الأنبياء العظام الذين أمر الله رسوله ﷺ أن يتأسى بهم، إذ قرنه في سورة الأنبياء بجملة من عظماء المرسلين، ثم قرنه في سورة (ص) بجملة من هؤلاء السادة المرسلين بعد أن أمر محمداً ﷺ بالصبر تأسياً بهؤلاء، ومنهم ذو الكفل عليه السلام، والقاعدة عند الأصوليين أن الأصل وجوب العمل بظاهر اللفظ حتى يرد دليل يصرفه عن هذا الظاهر، ولم يرد دليل صحيح يثبت أن ذا الكفل لم يكن من جملة الأنبياء.

أما ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد بأن اليسع عليه السلام استخلفه بعد أن كبر اليسع واشترط عليه أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، وأنه كان تزدريه العين، وأنه وفَّى بما اشترطه عليه اليسع. فهذا من أساطير بني إسرائيل، وكذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري بأنه خطب فقال: لم يكن ذو الكفل نبياً، فهو خبر في سنده اضطراب وعليه الشنشنة المعروفة عن بني إسرائيل.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد من طريق أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر أنه سمع من رسول الله ﷺ سبع مرات أو أكثر قال: «**كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، وأنه جاءته امرأة محتاجة، وأنه أعطاها ستين ديناراً ليقارفها، وأنها بكت عندما جلس منها مجلس الرجل من زوجته، فقام وتاب وأعطاها الدنانير،**

وأنه مات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل». وقد رواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر، فهو كذلك من دسائس بني إسرائيل ضد أنبياء الله ورسله، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: هو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والأربعون

موسى عليه السلام

نتحدث إليكم عن كبير أنبياء بني إسرائيل، أحد أُولي العزم من المرسلين، كليم الله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وعمران والد موسى عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وليس هو عمران المذكور في سورة آل عمران المسمَّاة باسمه، حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإن عمران هذا هو والد مريم أم عيسى عليه السلام، وقد بيَّن الله عز وجل ذلك في قوله بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٤ ـ ٣٦].

وبين عمران والد موسى وعمران والد مريم قريب من ألفي سنة.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى الحالة التي كانت سائدة بمصر عند ميلاد موسى عليه السلام، إذ كان ظلم فرعون وبغيه على بني إسرائيل وفساده في الأرض قد بلغ أقصى حدود الطغيان، فجعل أهلها شيعاً، يقرب بعضهم، ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل، يُذَبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستعمل معهم صنوف الذلة، وأنواع الهوان والعذاب، وأراد الله عز وجل أن يمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض من بني إسرائيل، وكانوا يومها محصورين في مصر، وأن يبدل خوفهم أمناً، وأن يُمَكِّن لهم في الأرض، وأن يجعل منهم أئمة هدى، ويجعلهم الوارثين، وقد كان الحقد والبُغض لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقي في روعهم أن زوال ملكهم، وتدميرهم سيكون

على يد رجل من بني إسرائيل، ولكن الحذر لا ينجي من القدر، فأراد الله ﷻ أن يُرِي ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

فَوُلِدَ موسى عليه السلام في هذا الجو الخانق، وخافت أمه أن يذبحه فرعون؛ لأن ميلاد موسى عليه السلام صادف إحدى النوبات التي يقوم بها فرعون بتذبيح أطفال بني إسرائيل الذكور، فأوحى الله تعالى إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خشيت عليه من فرعون أن يذبحه فاصنعي له صندوقاً محكماً كأنه سفينة، وضعيه في الصندوق وألقيه في نهر النيل، وأبعدي الخوف عن نفسك فلا تخافي ولا تحزني، فإن الله ﷻ سيحفظه لك، ويرده عليك، وسيكون ولدك هذا من المرسلين، قال بعض أهل العلم: المراد بالوحي هنا وحي إلهام أو منام. قلت: لا مانع أن يكون الله تبارك وتعالى أرسل لها ملكاً بهذا الوحي فآمَنَتْ به وصَدَّقَتْ بوعده. ولا يلزم من مجيء الملك لها بهذه النصيحة أن تكون نبيَّة، فقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لوْنٌ حسن وجلد حسن ويذهبُ عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأُعطي لوناً حسناً، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر، شك الراوي، فأُعطي ناقةً عُشراء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع. فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: شعر حسن ويذهبُ عني الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر فأعطى بقرةً حاملاً. قال له: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرُدَّ الله إليَّ بصري فأُبْصِرَ الناس؛ فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعْطِي شاةً والداً. فأنتج هذان وولّد هذا؛ فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ به في**

سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته. فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغُ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري. فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقال: **أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**».

فهذا الحديث الصحيح المتفق عليه يثبت أن الله قد يبعث ملكاً لأحد من عباده وليس بنبي ولا برسول، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة ترُبُّها عليه؟ قال: لا غير أنني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.**

فهذا يثبت أن الله تعالى قد يرسل ملكاً إلى بعض الناس ويخاطبهم وليس بأنبياء.

وقد أرسل الله تعالى الملائكة لمريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣]، ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦]، ولم تكن مريم نبيَّة وإنما كانت امرأة صالحة صدِّيقة من القانتين.

وفي ميلاد موسى عليه السلام وبيان الجو الذي وُلِدَ فيه وما كان من طغيان فرعون وإذلاله لبني إسرائيل والإيحاء إلى أم موسى بإلقائه في اليم مع الوعد برده إليها،

يـقـول الله ﷻ: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٣ ـ ٧].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس والأربعون

تابع: موسى عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق ما قصَّه الله عز وجل عن ميلاد موسى عليه السلام وإيحاء الله تعالى لأمه أن ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وقد اشتمل هذا الوحي على أمرين ونهيين وخبرين، وقد أجمل الله تبارك وتعالى ذلك في سورة طه حيث يقول ممتناً على موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٨]، ثم فصَّل ذلك الوحي المجمل فقال: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وقد قامت أم موسى عليه السلام بما أمرها الله تعالى به فألقت ولدها في اليم بعد أن وضعته في التابوت أي الصندوق. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن اليم ألقى بالصندوق وفيه موسى عليه السلام إلى الساحل، أي شاطئ النهر أمام بيت آل فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] وفرحوا به لِمَا ألقى الله عز وجل على موسى من المحبة في قلب من يراه، غير أن فرعون خشي أن يكون من بني إسرائيل، وفكَّر في قتله، فقالت زوجته آسيا رضي الله عنها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] أنهم التقطوا من يزول ملكهم على يديه، وأنه سيكون لهم عدواً وحَزَناً، فقيَّض الله له عليه السلام أعدى أعدائه أن يربوه، وأن ينشأ في بيتهم على حد قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهيَّأ الله تعالى له المرأة الصالحة آسيا زوجة فرعون عدو الله ورسله لتشرف على تربيته، غير أن الله عز وجل منعه من التقام أي ثدي غير ثدي أمه. فكلما قدموه

لمرضعة رفض الامتصاص من ثديها، وقد بلغ الحال بأم موسى مع شدة كظم ما بها من الخوف عليه أن أصبح فؤادها كالهواء، كأنها كادت أن تُجَنَّ لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته: تتبعي أثره وانظري ماذا يفعل به ملتقطوه، وإياك أن يعرفوا أنك أخته أو أنك تحاولين معرفة شيء عنه، فانظري عن بُعْد وبطريقة جانبية لا يُعْرفُ منها أنك مشغولة به، فقامت أخته بتنفيذ وصية أمها، ومروا بها يبحثون عن مرضعة له، فقالت: أنا أدلكم على مرضعة لعله يقبل منها، فجاؤوا به إلى أمه فالتقم ثديها ففرحوا فرحاً عظيماً. وجعلوا يترددون به عليها، وقد قرت عينها به وخلّصها الله تعالى من الحزن عليه. وعَلِمت أن وعد الله حق، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه إذا أراد أمراً هيَّأ له الأسباب وأزال الموانع. وقد استمر موسى عليه السلام في بيت فرعون كأنه ولد لهم، يحوطونه بمحبتهم حتى بلغ أشده واستوى، وملأ الله قلبه حكمة وفقهاً وعلماً.

وفي هذا تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ والمؤمنين، وأن الله تعالى ينصر أولياءه، ويخلصهم من المِحَن وينجيهم من السوء.

وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى في سورة القصص: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ٨ ـ ١٤].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ [طه: ٤٠]، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾

لام العاقبة. أي ما دروا أنهم بالتقاطه ستكون العاقبة أن يكون لهم ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وكم من عمل يعمله الإنسان لأمر فتكون عاقبته على عكس ما أراد من عمله؛ لأن الأمر كله لله وحده.

والإنسان مهما ادَّعى القدرة والمعرفة فإنه يجهل عاقبة أمره.

وهامان هو وزير فرعون لعنهما الله، وفي تنشئة موسى في بيت فرعون يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وبعد أن بلغ موسى عليه السلام أشدَّه وتم نضجه وشبابه وتكامل عقله وأفاء الله تعالى عليه من الحكمة والفقه والعلم، وأراد الله عز وجل أن يقيم على يديه سبباً يدعوه للخروج من مصر، والهروب من آل فرعون والبُعد عن تقاليدهم وعاداتهم قدَّر الله له أن يدخل وسط المدينة في وقت غفلة أهلها، إما في وقت نومهم أو في وقت اشتغالهم بلعبهم ولهوهم، حيث تكون الطرقات شبه خالية من المارة، فوجد فيها رجلين يتصارعان يريد كل منها الفتك بصاحبه، وموسى عليه السلام قد عرف أن أحدهما إسرائيلي وأن الآخر قبطي، وكأنه رأى أن القبطي أشد بأساً من الإسرائيلي؛ ولذلك استغاثه وطلب منه العون، فأراد موسى عليه السلام أن يدفع القبطي عن الإسرائيلي، فوكزه بيده ودفعه بِجُمْع كَفِّه ليدفعه عنه. ولم يكن موسى عليه السلام يدري أن هذه الوكزة ستقضي عليه وتقتله؛ ولذلك أحسَّ بندم شديد وأسند هذا الشر للشيطان فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ ـ ١٦] وعزم على أنه لن يعود لمثلها وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] أي نصيراً لأحد من الكافرين المجرمين.

وقد أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] ماذا سيؤدي إليه قتلُ هذا القبطي، وهل سيعرفون أنه موسى فيأخذونه به، وبينما هو كذلك في طريق قريب من موضع قتل القبطي وإذا بالإسرائيلي الذي ساعده بالأمس (يستصرخه) ويستغيث به على قبطي آخر، فأجابه موسى عليه السلام بأنك شديد الغواية بيِّن الأذى، ولمَّا أشار موسى عليه السلام بيده إلى الإسرائيلي إشارة غضب مؤدباً له على سوء سلوكه

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فعلم موسى عليه السلام أن الخبر لا بد وأن يصل إلى فرعون من هذا القبطي، وأنهم لا بد قاتلوه، وفعلاً أعلم القبطي آل فرعون بأن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فتآمروا على قتل موسى عليه السلام.

وإلى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والأربعون

تابع: موسى عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن القبطي أخبر آل فرعون أن موسى عليه السلام هو الذي قتل القبطي، وأنهم تآمروا عليه، وقد أحسَّ موسى عليه السلام بغمٍّ شديد، وامتحان عسير وفتنةٍ شديدة، وقد سخَّر الله تعالى لموسى عليه السلام رجلاً قريب المنزل من آل فرعون يسكن معهم في أقصى المدينة كالعادة في القديم والحديث أن الأشراف يسكنون الأطراف، ويعرف أخبارهم، ويُكنُّ لموسى عليه السلام محبة قوية، فسارع يبحث عن موسى عليه السلام حتى وجده في داخل المدينة، وأخبره أن آل فرعون يأتمرون بموسى ليقتلوه، وأمره أن يسارع بالفِرار من مصر ليسلم من شرهم، وينجو من مكرهم، وبيَّن له أن الحامل له على ذلك هو حُبُّه ونصحه له، فخرج موسى عليه السلام مسرعاً متجهاً إلى سيناء وهو يدعو ربه أن ينجيه من القوم الظالمين الذين يقررون قتل من لا يستحق القتل، وقد عزم عليه السلام أن يتجه تِلْقَآءَ مَدْيَنَ، غير أنه غير خبير بالطريق إليها، فتضرَّع إلى الله تعالى أن يهديه إلى طريقها، وأن يوفقه إلى سلوك طريق قصد وأن يرشده إلى سواء السبيل.

واستمر في سَيرِهِ عليه السلام حتى ﴿وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ووجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد أمامه قبل هؤلاء الجماعة الذي يسقون مواشيهم امرأتين تدفعان غنمهما حتى لا ترد الماء مع رؤية موسى عليه السلام للغنم في حاجة إلى الماء، فقال موسى عليه السلام للمرأتين ما شأنكما؟ لماذا تدفعان غنمكما عن الماء وهي في حاجة إليه، قالتا: نحن لا نحب أن نختلط مع الرجال الرعاء، ولنا أب شيخ كبير لا يستطيع أن يتولى سقي أغنامنا، فتقدم موسى عليه السلام وسقى لهما دون أن يطلب منهما أجراً على ذلك، ولمَّا سقى لهما أغنامهما تولى إلى ظل شجرة قريبة وجلس تحتها وناجى ربه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

فجاءته إحدى المرأتين والحياءُ بادٍ على محيَّاها ومِشْيتِها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ويكافئك على هذا الإحسان بالإحسان، فلما وصل موسى عليه السلام إلى الشيخ الكبير وقصَّ عليه قصته مع آل فرعون قال له الشيخ الكبير: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. فطلبت إحدى المرأتين من أبيها أن يستأجر موسى عليه السلام ليرعى الغنم، وأشعرت أباها أنه خير مَنْ يُسْتأْجَرُ؛ لأنه قويٌ أمين، يجمع أهم وأحسن وأوفى صفات الأجير، وكأنها عرفت ذلك من مراقبتها له وهو يسقي الغنم مع غض بصره وحسن سمته عليه السلام، فقال الشيخ الكبير: إني أحب أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تشتغل عندي أجيراً ثماني سنوات، فإن أتممت في الخدمة عشر سنوات فهذا من عندك، ولا أشق عليك ولا أجهدك، فوافق موسى عليه السلام على أن يتزوج إحدى المرأتين بمهر هو خدمة ثمانية أعوام، وإن شاء أتمها عشراً، ولا شك أنه مهر مرتفع، لكن حكمة الله واصطناعه لموسى عليه السلام، حتى يكون هذا الأجل هو الباقي لموسى عليه السلام حتى يبعثه الله رسولاً ويتم عليه نعمته ويجيء إلى الطور عَلَى قَدَرٍ.

وإلى ذلك كله يشير الله عز وجل حيث يقول في سورة طه مبيناً ما أصاب موسى من الهم والغم بعد مقتل القبطي واستصراخ الإسرائيلي به في اليوم الثاني وهروبه إلى أرض مدين ومكثه بها ما شاء الله أن يمكث فيقول: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤٠ ـ ٤١].

ويقول الله عز وجل في سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى

ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ١٥ ـ ٢٨].

وقد ذكرت في قصة شعيب عليه السلام أنه لم يكن صِهْر موسى عليه السلام، وأن الشيخ الكبير الذي زوَّج موسى عليه السلام ابنته في مدين هو رجل صالح من بقايا مَنْ آمن بشعيب عليه السلام، وذَكَرْتُ ما يدل على ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى في هذ المقام.

هذا وأما ما اشتهر عند الناس من حديث الفتون الذي ذكره النسائي في كتاب التفسير من سننه المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها الذي رواه النسائي فقال: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ فسألته عن الفتون ما هي؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى

ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فساق الحديث. قال ابن كثير في تاريخه بعد أن ساقه: هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون، والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، ثم قال: وفي بعض ما فيه نظر ونكارة. والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك. والله أعلم.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والأربعون

تابع: موسى عليه السلام

بعد أن قضى موسى الأجل الذي التزم به وأدّاه على أكمل وجه، ألهمه الله عز وجل أن يتجه بأهله نحو مصر، وهو لا يعلم أن مراسيم السعادة تنتظره في الطريق، وأن الله عز وجل سيناديه ويكلِّمه ويناجيه بالوادي المقدس طوى، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهاً إلى أرض مصر، وفي أثناء سيره مرَّت به ريح باردة في ليلة مظلمة، لم يتمكن معها من مواصلة السير، إذ اشتد بهم البرد، ولم يعرف اتجاه الطريق، وفجأة لاحت له نار أبصر عندها شجرة، فدخل عليه لذلك أُنْسٌ ومسرة، وقال لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: ١٠] سأذهب إليها، لعلي أجد عندها من يرشدنا إلى الطريق السوي والصراط المستقيم، أو آتيكم منها بقطعة من النار لعلكم تستدفئون بها، والظاهر أن زوجته عليها السلام لم تبصر هذه النار، وأن النار إنما تجلَّت لموسى وحده، كما يظهر أن موسى عليه السلام لم يعرف اسم المكان الذي رأى النار فيه، ولم يدرك أنه الوادي المُقَدَّس طُوىً، وأنه سيجد عنده أعظم الهدى، وما إن اقترب موسى عليه السلام من النار وبيده عصا حتى ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٤ ـ ١٦].

وبعد أن توَّج الله عز وجل موسى عليه السلام بمراسيم السعادة سأله وهو العليم الخبير عما بيده، ليدخل عليه الأنس وليثبِّت قلبه، وليُظهر له معجزة تبين له أن الله تعالى

سيؤيده وينصره ويجعل العاقبة الحميدة له ولمن آمن به، فقال ﷻ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨] ولم يقف موسى في الجواب إلى هذا الحد، فأخذ يبين بعض منافع عصاه زيادة في طول لذة المناجاة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٨] ثم قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] لعله يسأله عن هذه المآرب والمقاصد فيزداد لذة وتطول لذة المناجاة، فالحبيب يود أن لا ينقطع عنه صوت حبيبه على حد قول الشاعر:

ولا حسن إلا سماع حديثكم … مشافهة يملى عليَّ فأنقل

وعلى حد قول الشاعر الآخر:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها … أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها … إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

ولله المثل الأعلى، فأَمَره الله ﷻ بإلقاء العصا على الأرض، فألقاها فإذ هي حية تسير على بطنها في غاية السرعة كأنها جان. فلما رآها موسى ﷺ وهي تهتز وتتحرك مسرعة ولَّى مُدْبراً ولم ينتظر من شدة الخوف. فناداه الله ﷻ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]. وقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] فأخذها فعادت في يده عصا كما كانت أول مرة.

ثم أمره الله ﷻ أن يُدخِل يده في جيبه أي في طوق قميصه فأدخلها، فلمّا أخرجها إذا هي بيضاء من غير برص ولا مرض، مع أن موسى ﷺ كان أسمر اللون آدم، فهذه آية أخرى.

وأمره الله ﷻ بالذهاب إلى فرعون الطاغية الذي يقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويطالبه وقومه بإخلاص العبادة لله وحده، وأن يُسلمه بني إسرائيل، ويخلصهم من العذاب المهين، وطلب منه أن يتلطف في دعوة فرعون إلى الله، وأن يقول: ﴿لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فطلب موسى ﷺ من ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره، وأن يَحْلُلْ له عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يُرسل معه هارون أخاه لُيشد به أزره ويُشركه في

أمره؛ لأن هارون بن عمران عليه السلام مشهور بالفصاحة بين قومه، فأجابه الله عز وجل لذلك كله، وبيَّن له أن منَّة الله عليه عظيمة، وليست هذه أول منة، وذكَّره بمنة أخرى عند ولادته إذ أوحى إلى أمه أن تلقيه في اليم ليلتقطه آل فرعون ويُربى في حجر عدوه، الذي يصونه ويرعاه مع أنه لا يفتأ يذبح أبناء بني إسرائيل.

وقد ذكر موسى عليه السلام أنه يخاف من فرعون أن يقتله بالقبطي، فطمأنه الله عز وجل وعرَّفه أنه سيجعل له سلطاناً فلا يتمكن فرعون من قتله، وقال له: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٦ ـ ٤٧].

وقد وصف الله تبارك وتعالى مجيء موسى إلى الوادي المقدس طوى وحدد المكان الذي تمت فيه المناجاة، وذكر ما ناجى به موسى عليه السلام في مواضع من القرآن العظيم ليُثَبِّت بذلك فؤاد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وليكون آية بيِّنة للعرب والعجم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من قومه يعرف هذه الأخبار الدقيقة الصادقة، وهو الأمي في القوم الأُميين، فلم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بجانب الغربي إذ قضى الله إلى موسى الأمر، وما كان من الشاهدين، وما كان بجانب الطور إذ نادى موسى عليه السلام ولكنها رحمة من الله للبشير النذير ولمن آمن به إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١ ـ ٥٣].

ويقول عز وجل في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا

وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٩ ـ ٣٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن والأربعون

تابع: موسى عليه السلام

نتابع في هذا الفصل ما ذكره الله عز وجل في سورة طه عن قصة مجيء موسى عليه السلام إلى الوادي المقدس طوى، ومناجاة الله عز وجل له ومنته عليه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٨].

ويقول عز وجل في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٧].

ويقول عز وجل في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ

عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ٧ ـ ١٢].

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٥].

وقال ﷻ في سورة النازعات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

أي إنَّ توجهك من أرض مدين إلى أرض مصر ليناديك ربك ويناجيك بالوادي المقدس كان أمراً مقدوراً قضاه الله ﷻ، فحركك ووجهك وألهمك لتجيء البقعة المباركة وفق ما قضاه الله ﷻ في الأزل وقدَّره قبل خلق السموات والأرض، فكل شيء عنده بمقدار، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١] الاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن، والجملة اعتراضية لبيان فضل الله

تعالى على خلقه، وأنه يعفو عن السيئات ويغفر ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فلا يحل لأحد أن ييأس من رحمة الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨ ـ ٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

في هذه الآيات المباركات دليل قطعي على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وأنه يتكلم متى شاء وأنى شاء، وأن الله عز وجل جعل موسى عليه السلام كليمه كما جعل إبراهيم ومحمداً عليهما السلام خليلين، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] أي إن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت. فقولك: من البيت ابتداءً الغاية، لا أن البيت هو المتلكم، فكذلك ليست الشجرة هي المتكلمة بل سمع موسى كلام الله من عند الشجرة، إذ ليست الشجرة هي القائلة: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، بل قائل ذلك هو رب العالمين.

وقوله ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، معنى ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي أن يعجِّل بعقوبتنا قبل سماع قولنا. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] أي أتمَّه وأدَّاه ووفَّاه، فإنَّ «قضى» قد تستعمل بمعنى أدَّى ووفَّى ومنه قول الشاعر:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول مُعنَّى غريمها

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١] أي صارت العصا شبيهة بالجان، وهو حية بيضاءُ أكحل العين سريعة الحركة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] أي وَضَعْ يدك على صدرك ليزول ما بك من الرُّعب والفزع والخوف الذي أصابك.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







الفصل التاسع والأربعون

تابع: موسى عليه السلام

أرشد الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن يبرز إلى فرعون آية العصا وآية اليد. ولما وصل موسى عليه السلام إلى مصر وانضم إليه أخوه هارون بن عمران عليه السلام توجها إلى فرعون، وطلبا منه أن يُخْلِص العبادة لله وحده، وأخبراه أنهما رسولا رب العالمين، وقال له موسى عليه السلام: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩] وتسعد في الدنيا والآخرة؟ ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، و﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] ومعجزة ظاهرة قاهرة. فآمِنْ بالله، وأرسل مَعَنَا بَنِي إِسرائيلَ، قال فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] عديدة. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩]، وأنت جاحد للنعمة التي أسديناها إليك. قال موسى عليه السلام: لقد فعلتها وأنا غير قاصد، فلم أُرد قتل القبطي عندما وكزته، ولعلمي أنكم لن تحكموا في هذه القضية بالحق فررت منكم لأني خفتكم ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. ولقد أُوحي إلينا يا فرعون أن العذاب على من كذَّب بآيات الله وأعرض عن دين الله وكذَّبَ المرسلين، ولا تتكبروا على الله رب العالمين. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٤]، إن كان هناك شيء يُوقن به فهو رب السموات والأرض لظهور برهانه وبلوغ حجته، وهو الذي خلق كل شيء، وأعطى كل شيء من خلقه ما يتميز به عن غيره، ثم هداه بما فطره فيه من الجبلة إلى مطعمه ومشربه وبقاء نسله وغير ذلك، فالدواب والطيور والأسماك تعرف مساربها، وقد أودعها الله عز وجل من آياته وآلائه ما لا يحيط به إلا الله عز وجل، ففي العالم آيات ساطعات وبراهين قاطعات تشهد أنها من صنع رب العالمين، وقد أقام في كل شيء من الكون آية على حد قول الشاعر:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولو بذلنا ما في الأرض من محابر لنشرح آيات الله في الإنسان والسموات والأرض وما بينهما وجميع ما وصلت إليه المدارك الإنسانية لعجزنا عن الوفاء بذلك؛ ولذلك اكتفى موسى عليه السلام بقوله لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. قال فرعون لمن حوله وقد انبهر: ألا تستمعون إلى ما يقول موسى في دعواه وجود إله غيري؟ قال موسى عليه السلام: الذي أرسلني وهو الذي خلق السموات والأرض هو ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، قال فرعون لمن معه من مَلَئِهِ مستهزئاً منقطعاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فأجابه موسى عليه السلام بأن الله الذي أرسلني هو ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] فسارعوا إلى الإيمان به قبل أن ينزل بكم عقوبته، فاشتد انقطاع فرعون عن المحاجة ولجأ إلى التهديد بالسجن لموسى عليه السلام فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، فلم يزدد موسى عليه السلام أمام هذا التهديد إلا نُصحاً فقال: أتسجنني ولو جئتك بآية واضحة وحُجة قاهرة على أني رسول الله رب العالمين، فازداد فرعون سفهاً وعُلوّاً وقال لوزيره هامان: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّى صَرۡحًا﴾ [القصص: ٣٨] لأصعد عليه لعلي أنظر إلى إله موسى وأكلمه إن كان صادقاً أن في السماء إلهاً، وأراد بذلك أن يموِّه على قومه وأن يستخفهم حتى لا تتسرب إلى قلوبهم أنوار الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، وقال له موسى عليه السلام: أتستمر يا فرعون على تكذيبك وإن ﴿جِئۡتُكَ بِشَىۡءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]. قال فرعون: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١] فألقى موسى عصاه فإذا هي حية تجري على بطنها وتهتز مسرعة كأنها جانٌّ، وصارت تتضخَّمُ وتكبر فكاد قلب فرعون ينخلع، ثم أدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء من غير برص ولا سوء، فقال فرعون وقومه: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]، وهذا السحر يدل على أنه سحر ساحر عليم.

وطلب ملأ فرعون من فرعون أن يبعث في المدائن رسلاً يجمعون السحرة من سائر أنحاء بلاد مصر؛ ليجيئوا ويجتمعوا عند فرعون لمغالبة موسى عليه السلام، وقال فرعون وملؤه لموسى عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ [طه: ٥٧ ـ ٥٨] في مكان متفق عليه بيننا وبينك، قال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]، وهو يوم عيدهم الذي يتزينون ويجتمعون فيه، وأن يكون الاجتماع بيننا وبينكم وقت الضحى.

وفي مجيء موسى عليه السلام وأخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون وتبليغهما له رسالة الله وما كان من فرعون وملئه مع موسى عليه السلام يتحدث القرآن العظيم في مواضع شتى فيقول الله عز وجل في سورة الأعراف وهو أصدق القائلين، وما يقصه هو أحسن القصص:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١١٢].

ويقول عز وجل في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال تعالى في سورة طه عن موسى وهارون أنهما قالا لفرعون لما جاءا إليه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٤٧ ـ ٥٤].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخمسون

تابع: موسى عليه السلام

نتابع في هذا الفصل إيراد ما ذكره الله عز وجل في سورة طه عما دار بين موسى وفرعون عند قيام موسى بدعوة فرعون إلى الله حيث يقول عز وجل في سياق ما استدل به موسى عليه السلام على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيده ومليكه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٥ ـ ٥٩].

وقال عز وجل في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ٣٧].

ويقول تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ ـ ١٤].

ويقول ﷻ في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٦ ـ ٣٩].

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧].

وعندما أظهر موسى هذا الالتجاء العظيم إلى الله وحده، سخَّر الله ﷻ له رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه، فبدأ في الدفاع عن موسى ﵇، وأخذ ينصح فرعون وملأه بضرورة المسارعة إلى طاعة موسى ﵇ والدخول في دينه قبل أن يسلط الله على المكذبين عقوبته التي ينزلها بالمكذبين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٨].

وعندما وصل فرعون إلى هذه الدرجة من البغي والطغيان صرح الرجل وأعلن إيمانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٥].

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٨ ـ ٢١]

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ ـ ٢٤].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

جمع فرعون مهرة السحرة من جميع مدائن مصر، وقد كان السحر يومها هو أهم أهداف التعليم في بلادهم، وقد كانوا بَلَغوا فيه مبلغاً لم يصله أحد من قبلهم، ولم يُعرف أنه وصل إليه أحد من بعدهم، وقد جرت السُّنَّة الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، ويعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر؛ ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن، وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكما أرسل عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله؛ لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه، وقد وصف الله تبارك وتعالى ما كان من موسى والسحرة ومن فرعون وملئه، وكيف سارع السحرة إلى الإيمان بموسى عليه السلام عندما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى، وأنه أوجس وأحس في نفسه بالخوف. فطمأنه الله عز وجل وأمره أن يلقي عصاه، فانقلبت حية هائلة وابتلعت جميع ما صنعوا، فأيقن السحرة أن هذا لا يقدر عليه إلا الذي خلق القُوى والقُدَر، فخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسله، صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضاة الله عز وجل، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ

إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١٢٦].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٠ ـ ٨٢].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٦٠ ـ ٧٣].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ الْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٥١].

وفي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، إشعار بأن الله إذا أراد إظهار حجته هيَّأ أسباب هذا الإظهار، ووفق موسى ﷺ إلى أن يطلب منهم أن يكونوا هم البادئين بالإلقاء، حتى إذا جاؤوا بهذا السحر العظيم الذي خوَّف الناس حتى موسى ﷺ، ثم ألقى موسى عصاه وهي واحدة فانقلبت حية هائلة تبتلع وتلقف جميع حبالهم وعصيهم التي انقلبت حياتٍ تجري هنا وهناك، ليكون ذلك أتم في باب إظهار هذه المعجزة القاضية على إفكهم وسحرهم وباطلهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]. إشعار بما لحق فرعون وقومه من المهانة والذلة والصغار عند ظهور هذه المعجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] إشعار بأن هؤلاء السحرة قد سارعت إلى قلوبهم أنوار الحق فلم يترددوا في الانقياد لله والإذعان لدينه والإيمان برسله، وقد خالطت بشاشة الحق شغاف قلوبهم؛ لأنهم أعرف القوم بأن ما جاء به موسى ليس سحراً.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣] إشعار بأن فرعون أيقن أن ما جاء به موسى هو الحق من عند الله، غير أن شقوته جعلته يحاول الإبقاء على بعض سلطانه حتى في إيمان من يشرح الله صدره للإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] إشعار

بتخبط فرعون في إلصاق التهم بهؤلاء المؤمنين لتضليل قومه ومحاولة صرفهم عن هذا الحق الأبلج، وما كيد فرعون إلا في ضلال.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن فرعون عندما رأى عصا موسى انقلبت حية وابتعلت ما قدمه السحرة من السحر العظيم، وآمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ولم تؤثر فيهم تهديدات فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، وثباتهم على الحق وسؤالهم الله عز وجل أن يفرغ عليهم صبراً ليتحملوا كل ألوان العذاب من فرعون في سبيل إيمانهم بالله، أيقن فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام حق لا مرية فيه، واستيقن هو وملؤه أن موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أثر ذلك في نفس فرعون خوفاً من أن يصيب موسى بأذى، واكتفى بتهديد موسى ووعيده، ويظهر ذلك جلياً في قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. فهل كان مربوطاً بحبل لا يتمكن بسببه من قتل موسى، لكنه التهديد الأجوف الدال على أنه يحس أن موسى رسول الله، غير أنه وقومه أصروا على تشديد العذاب على بني إسرائيل، وازدادوا في تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وصان الله موسى عليه السلام من أن تناله يد فرعون، كما صان محمداً صلى الله عليه وسلم من أبي جهل ومن معه من أن تنال أيديهم رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم، وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى وهارون أن يتبوّأا لقومهما بمصر بيوتاً، وأن يجعلوا بيوتهم قبلة، وأن يقيموا الصلاة، وأن يستمر موسى عليه السلام في بشارة المؤمنين بنصر الله وتأييده، ولما أخذ فرعون يعلن عن تشديد العذاب المهين على بني إسرائيل وأنه لا بد من قهرهم، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال قوم موسى له: أوذينا من قبل مجيئك بالرسالة ومن بعد مجيئك بها، قال لهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ولقد بدأت بشائر نصر الله لموسى ومن معه من المؤمنين فسلَّط الله على آل فرعون الجدب والقحط ونقص الثمرات لعلهم يُفيقون من غيهم وضلالهم، لكنهم بدل ذلك صاروا يزعمون أن هذا الذي أصابهم هو بسبب مجيء موسى لهم واطَّيروا به وبمن معه، وأجابهم موسى عليه السلام بأن سبب بلائهم هو كفرهم وتكذيبهم رسل الله، وزعموا مرة أخرى أن هذا الجدب والقحط من سحر موسى، وأنهم لن يؤمنوا به أبداً، فسلَّط الله عليهم الطوفان، فغرقت مزارعهم وهلكت ثمارهم، ولما انتهى الطوفان وبدأت الأرض تؤتي ثمارها سلَّط عليهم الجراد، فأباد زروعهم وثمارهم، ثم سلَّط عليهم القُمَّل وهو صغار الذَّر، والدَّبَا الذي لا أجنحة له، أو شيء صغير بجناح أحمر، وشيء يشبه الحلم خبيث الرائحة، فصار هذا القُمَّلُ يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئاً إلا وجدوه فيه، ثم سلط الله عليهم الضفادع، فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم، ثم سلط الله عليهم الدم، فصاروا لا يتناولون شيئاً إلا وجدوه مغطى بالدم، وقد امتزجت به مياههم ومطاعمهم.

وقد كان من آيات الله عز وجل أن صان بني إسرائيل من كل هذه العقوبات، ولما اشتد هذا البلاء بفرعون وملئه ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، لكنهم كانوا كلما كشف الله عنهم الضرَّ إذا هم ينكثون، ومع يقينهم بأن هذه آيات مفصلات من الله عز وجل جحدوا بها وضحكوا منها.

وقال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فقال له موسى: لقد علمت أن هذه الآيات التسع وهي العصا واليد وما جاء بعدهما من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم كلها من الله عز وجل لعلكم تهتدون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً بسبب كفرك وضلالك، ودعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه فقال: ﴿رَبَّنَآ

﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨] فبدل أن يشكروك عليها استعملوها في الصد عن سبيلك ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهلكها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقد بلغ موسى عليه السلام هذا الحال في الوقت الذي رأى فرعون أنه لا بد من إعلان الحرب على موسى، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يجمعون العُدَّة والسلاح والرجال للقضاء على موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل من المؤمنين باذلاً كل ألوان الإغراء بهم.

وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى أن يخرج من مصر ليلاً ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء، وأعلمه أن فرعون وجنوده سيتبعونهم، فسارع موسى عليه السلام إلى امتثال أمر ربه، فسَرَى ببني إسرائيل، ولما اجتمع جندُ فرعون سارعوا إلى اللحاق بموسى عليه السلام يقودهم فرعون عليه لعنة الله، فأتبعوهم مشرقين، أي وقت شروق الشمس، وقد كان موسى عليه السلام ومن معه وصلوا إلى مكان عسير، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم والجبال عن يمينهم وشمالهم، فلما تراءى الجمعان جمع موسى وجمع فرعون قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، أي سيكون هلاكنا على يد فرعون وجنده هنا؛ لأنه لا مفر لنا. فأجابهم موسى عليه السلام وقال لهم: كلا لن يدركونا، ولن يصلوا إلينا؛ لأن الله وعدني بذلك، وأراد موسى عليه السلام بذلك وعد الله له حيث أجابه عندما قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٦]، ولذلك لما قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] أجابهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، فجعل الله لهم بذلك طريقاً في البحر يبساً لا يخاف دركاً ولا يخشى، وصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسة. على كل جانب من جوانب طريقهم جدار من الماء كأنه صخر منحوت، وعندما خرج موسى ومن معه من

البحر أمره الله عز وجل أن يترك البحر ساكناً حتى يدخل فيه فرعون وجنوده، فلما صار فرعون وجنوده في اليم غشيهم، من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى، ولما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فلم ينفعه هذا الإيمان، ولم يخلصه من عذاب الله، ورمى البحر بجثته ليراها من بقي من قومه؛ ليعرفوا قدرة الله عليه، وكان ذلك في يوم عاشوراء.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام كان في يوم عاشوراء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَدِم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ما هذا اليوم الذي تصومونه؟»** فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: **«فنحن أحق وأولى بموسى منكم»** فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم موقف فرعون ومَلَئه من موسى عليه السلام وقومه بعد إيمان السحرة في مواضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الأعراف:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٣٧].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٨٣ ـ ٩٢].

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم

مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨ ـ ٤٢].

وكما قال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٣].

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٥٦].

وكما قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢] إلى غير هذا من الآيات.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

بعد أن نجَّى الله تبارك وتعالى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم، وأغرق فرعون ومن معه من المكذبين، وجاوز الله ببني إسرائيل البحر انتهت متاعب موسى من فرعون وقومه، وبدأت متاعب موسى وهارون من بني إسرائيل، إذ إنهم بعد أن رأوا آية الله الكبرى في فلق البحر لهم وإغراق فرعون وجنوده وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، لكنهم ما إن رأوا بعد أن جاوزوا البحر قوماً يعبدون أصناماً لهم قد عكفوا عليها حتى قال بعضهم لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فأجابهم موسى عليه السلام بأن هذا الطلب جَهالةٌ منكم، كيف نسيتم نعمة الله في إنجائكم من عدوكم وإغراقه، وأنتم حُدَثاءُ عهد بها، إنكم لو كنتم تعلمون لازددتم إيماناً بالله وحده وكفرتم بجميع ما سواه من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي هالك فاسد ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلبون منه خيراً، فكل عبادة لغير الله باطلة، ولا تصح العبادة إلا لله وحده، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره ردَّه وشركه وأحبط عمله، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أي أأطلب لكم شيئاً تعبدونه غير الله، وهذا الاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ، ثم بيَّن لهم موسى عليه السلام أن الله فضلهم على عالمي زمانهم، إذ بعث إليهم رسوله وكليمه ﷺ فآمنوا به، فلا يليق ببعضهم أن يطلب معبوداً غير الله عز وجل ليشابه المشركين عَبَدَة الأصنام، ولم يكن كل بني إسرائيل قد طلب إلهاً آخر، وإنما هو طَلَبُ بعض جَهلتهم، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ

﴿قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقد ذكر كثير من المفسرين وعلماء السيرة النبوية خبراً من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حنين فمررنا بسدرة فقلت: يا نبي الله! اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذاتُ أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكُفون عليها، فقال النبي ﷺ: **«الله أكبر! هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وإنكم تركبون سَنَن من كان قبلكم»**، قال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعاً.ا.هـ.

قلت: قال الحافظ ابن حجر في التقريب: كثير بن عبد الله بن عمرو المزني المدني ضعيف من السابعة، منهم من نسبه إلى الكذب.ا.هـ. فإن صح هذا الخبر حُملَ على أنه قول واحد من حدثاء العهد بالجاهلية كما جاء مصرحاً به في راوية عن أبي واقد الليثي، قالوا: وقد كان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

قال أبو بكر الطرطوشي المالكي: فانظروا ـ رحمكم الله ـ أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخِرَقَ فاقطعوها.

هذا وقد كان موسى عليه السلام عندما بعثه الله إلى فرعون إنما بعثه بأصول الدين من التوحيد وإقامة الصلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بالبعث بعد الموت، ولم يكن قد أنزل عليه التوراة، فلما انتهت مهمة موسى عليه السلام الخاصة بفرعون وملئه وأغرق الله فرعون وجنده، وخلص موسى إلى سيناء وصار مختصاً ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسةٍ إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم، هيأ الله عز وجل موسى عليه السلام لِيُلقي عليه التوراة المشتملة على الأحكام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم، وحالة موسى عليه السلام هذه تشبه حالة رسول الله ﷺ في حياته النبوية قبل

الهجرة وبعدها، فإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت، أما القرآن المدني فإنه زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولة الإسلامية والمجتمع السعيد وما يحتاجه كل فرد لصلاح معاشه ومعاده.

ولذلك ساق القرآن العظيم ما أوصى الله به موسى عليه السلام عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت، حيث يقول عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١١ ـ ١٦]، وقال عز وجل: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

ولمَّا أغرق الله فرعون ونجَّى بني إسرائيل صار لموسى عليه السلام دولة، فهو في حاجة إلى النظام الشامل والنور الذي يسلكه ليهتدي به هو والمؤمنون إلى الصراط المستقيم، وقد واعده الله تعالى أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المتنطعين أن يُرِيَهم الله جهرةً، وأن يسأل ربه ذلك، وعندما جاء الميقات قال موسى لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأَصْلِح أمورهم، ولتكن سياستُك لهم سياسةً رشيدة واحذر دُعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وما إن انطلق موسى عليه السلام لتلقي الشريعة عند الطور حتى أضل السامريُّ بني إسرائيل، فصنع لهم عجلاً من الذهب له خُوار؛ أي صوت يُسْمعُ وصلصلة شبيهة بصوت الثور، وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فعبده جلة من بني إسرائيل، وحاول هارون عليه السلام صرفهم عن عبادة العجل، وكان اللين يغلب عليه ﷺ وخَشِيَ إذا شدَّد عليهم أن يتفرقوا، وقد بارزه عُبَّادُ العجلِ العداوة، وكادوا يقتلونه عندما كان يُحذرهم من عبادة العجل، ولم يكن مأذوناً له في قتالهم، فانتظر مجيء موسى عليه السلام بالشريعة من عند الله.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

عندما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلاً لهذا الميقات، فلما انتهوا إلى الجبل ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن كان هذا الطورُ لا يَنْهَدُّ إذا تجلَّى الله له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله عز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلاً على أن الله عز وجل قد احتجب بالنور عن خلقه؛ لأنهم لم يُهَيَّئوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه إذا ماتوا على الإيمان في الدار الآخرة، فإن المؤمنين لن يروا ربهم حتى يموتوا، وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ دليل على استحالة الرؤية؛ بدعوة أن (لن) تفيدُ تأبيدَ النفي، وجهلوا أن الله عز وجل قال في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ﴾ [البقرة: ٩٥] مع أنهم يتمنون الموت وهم في جهنم، إذ ينادون مع نظرائهم من الكفار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧] ولما تجلى الله تعالى للجبل ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي مدكوكاً مستوياً بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولما رأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لا يزالون في صعقتهم دعا الله عز وجل أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله عز وجل بأنه أراد أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين سألوه أن يريهم ربهم جهرة، وقد أجاب الله تعالى دعوة موسى عليه السلام وأفاق السبعون من صعقتهم، وقال الحق لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وأعطاه الألواح وقد كتب له فيها كل شيء ﴿مَّوۡعِظَةٗ

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] يحتاجه بنو إسرائيل في معاشهم ومعادهم، وقد كان موسى عليه السلام عندما أقبل على مكان المناجاة سارع إلى جانب الطور الأيمن، فسبق السبعين الذي كانوا معه، فقال له العليم الخبير: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٤].

ومن ثمرات هذا السؤال والجواب تقرير أن المسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى مرضاة الله من الأمور المحبوبة شرعاً وليس في كل عجلة ندامة، وبعد أن أعطى الله تعالى موسى التوراة أخبره أن قومه عبدوا عجلاً صنعه لهم السامري، فرجع موسى بالتوراة إلى قومه غضبان حزيناً على ما فعله قومه، وأخذ يؤنبهم ويوبخهم على عبادة العجل، وقال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] بإنزال التوراة نوراً لكم، أفطالت غَيْبَتي عليكم أن أحببتم أن ينزل بكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم وَعْدَكم إياي بالثبات على الإيمان وإخلاص العبادة لله وحده وكأنكم استعجلتم عقوبة الله؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما قَدِرُوا على ردِّ ضلال السامري، فإنه سوَّل لهم ما سوَّل وغَلَب على عقولهم وزعم لهم أنه إله موسى، وأن موسى نسيَ أنه ربُّه فذهب يطلب ربه عند الجبل. وكان هارون عليه السلام قد حذر قومه من عبادة العجل وكان قد قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩٣] بأن تقضي على سبيل المفسدين، وقد بلغ الغضب بموسى عليه السلام مبلغاً فأخذ الألواح وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليه، فقال هارون: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال هارون عليه السلام لموسى ﷺ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤].

وأراد عليه السلام استعطاف موسى بقوله: يا ابن أم مع أنه أخوه لأبيه وأمه، وهذا شبيه بقول رسول الله ﷺ لعلي: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي**

بعدي»، إذ الرابطة بينهما الإسلام، وفاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وقد حاول بعض أهل الأهواء أن يستدلوا بهذا الحديث على أن علياً رضي الله عنه هو خليفة رسول الله ﷺ، وهذا الاستدلال باطل من وجوه: منها أن هارون مات قبل موسى، ولم يكن خليفة من بعده، بل الذي كان خليفة بعد موسى هو يوشعُ بن نون، ومنها أن هذا الحديث ليس نصاً في كون علي رضي الله عنه هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وسبب الحديث يوضح مرادَ رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ لما خلَّف علياً رضي الله عنه في المدينة المنورة حينما أراد الذهاب إلى تبوك قال بعض المنافقين، في المدينة: إنما خلَّف علياً لأنه يستثقله ولا يحبه، فلما علم عليٌّ رضي الله عنه بذلك أخذ سيفه ولحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرْف، وأخبره بقول المنافقين فقال له رسول الله ﷺ: **«أمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»**، وكأن النبي ﷺ يُبَيِّنُ لعلي رضي الله عنه أن استخلافه على المدينة كاستخلاف موسى لهارون حينما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه، ولم يكن استخلافُ موسى لهارون عن البغض أو الاستثقال له كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كما أن الحنان الذي يحسُّ به موسى لهارون فيه معنى يوجدُ شبيهُهُ بين رسول الله ﷺ وبين علي رضي الله عنه، إذ إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تحته، وحُنُوُّ رسول الله ﷺ عليها وعلى زوجها وبنيها لا يحتاج إلى دليل.

وبعد أن سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها أي في نصها وجملتها وتعاليمها هدى ورحمة للذين يخافون الله عز وجل ويهتدون بما أنزل من الكتاب، وفي مواعدة موسى لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً للذهاب معه، واستخلاف موسى لهارون على بني إسرائيل مدة غيبته هذه، ووصايا موسى لهارون عليهما السلام، وعبادة بعض بني إسرائيل للعجل الذي أضلهم به السامري، وسؤال موسى عليه السلام ربَّه أن ينظر إليه، وجواب الله عز وجل له، وصعقةِ موسى والسبعين الذين معه واندكاك الجبل لما تجلَّى الله للجبل، وإخبار الله عز وجل لموسى أن قومه عبدوا العجل من بعده ورجوعه عليه السلام إلى قومه غضبان أسفاً، وأخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، وفي اعتذار هارون واستعطافه، وما

عاقب به موسى عليه السلام السامريَّ الذي صنع العجل، وما فعل موسى عليه السلام بعجل السامري، من تحريقه ونسفه وتذريته في البحر، في هذا كله أنزل الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك في كتابه الكريم في مواضع من الذكر الحكيم.

الى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر في مواضع من كتابه الكريم قصة مواعدته لموسى عليه السلام لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً من بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى عليه السلام، وما حدث لموسى وللذين معه من الصعق، وما كان من عبادة قومه للعجل من بعد ذهابه لتلقي التوراة، ورجوعه إلى قومه غضبان أسفاً، وما كان بين موسى وهارون في ذلك، وعقوبة السامري، وتحريق العجل ونسفه في اليم، ففي سورة البقرة يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٦].

ويقول في نفس السورة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢ ـ ٩٣].

ويقول تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٥٥].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ

إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٠ ـ ٩٨].

ويقول ﷻ في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣ ـ ٤٦].

هذا وقد قص الله تبارك وتعالى كثيراً مما لقيه موسى عليه السلام من بني إسرائيل من الأذى، والتنطع والتشدد، كعدم رضاهم بالمن والسلوى وطلبهم بدلها بُقولاً وثوماً وقثاءً، وعدساً وبصلاً، وكقولهم لما رأوا موسى عليه السلام حَيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً، فآذاه من آذاه منهم بقولهم فيه: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برَص وإما أدْرَة وإما آفة، ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى بعض ما لقيه موسى عليه السلام وأخوه هارون ﷺ من تنطع بني إسرائيل وأذاهم حتى قال موسى عليه السلام كما حكى الله عز وجل ذلك: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم رسولُ الله ﷺ قسماً فقال رجل: إن هذه لقِسْمةٌ ما أُريد بها وجهُ الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فَصَبَر**».

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً سِتِّيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التَّسَتُّرَ إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدرَة وإما آفة، وإن الله أراد أن يُبَرِّئَهُ مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فَرَغَ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحَجَر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسنَ ما خلقَ الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجرُ، فأخذ ثوبه فلَبِسَهُ، وطَفِق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]».

ومن أمثلة شُحّ نفوسهم أنهم لما استسقى موسى لهم أمره الله عز وجل أن

يضرب بعصاه الحجر فانفرجت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباطهم، ولو كانوا أهل إحسان وتراحم لكفتهم عين واحدة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وكما قال ﷻ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ومن أمثلة تعنتهم أنهم قد امتنَّ الله عليهم بالمن والسلوى طعامَيْن، شهيَّيْن بلا كُلفة ولا مشقة فما رعوها حق رعايتها، والسلوى طير شَهِيُّ الطعم سمين، والمن شبيه بعَسل النحل، يجدونهما عند رؤوسهما في الصباح والمساء، ومع ذلك قالوا لموسى عليه السلام: لن نصبر على طعام واحد نريد بقلاً وقثاء وثوماً وعدساً وبصلاً، فأجابهم عليه السلام أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد اغتنم موسى عليه السلام فرصة حرصهم على البقول والقثاء والثوم والعدس والبصل فأمرهم أن يدخلوا بيت المقدس ليطهروه من الكافرين، فقالوا إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وهذا من أبرز أمثلة جبنهم وذِلَّتهم، حتى وَرثَ هذا الجبنَ من بعدهم ذرياتهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولم يزل هذا الخُلُق الذميم تمتلئ به جوانحهم إلى اليوم، وهم لم ينتصروا

على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا وحَبْلٍ من الناس، فإنه إذا عصى الله من يعرفه سلَّط عليه من لا يعرفه، وفي امتناع بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وعصيانهم لموسى عليه السلام يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] أي بَدَلَ أن يقول حطة قالوا حبةٌ في شعرة وقالوا حنطة، ودخلوا يزحفون على أستاههم بَدَلَ أن يدخلوا الباب ساجدين، وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٥].

وقد عاقبهم الله ﷻ على هذا العصيان بالتيه في الصحراء أربعين سنة حيث يقول ﷻ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

ومن أمثلة تنطعهم أنهم لما قتل واحد منهم نفساً وتدافعوا وتخاصموا فيمن

قتلها حيث لم يُعْرَفْ القاتل، فأمرهم موسى عليه السلام بذبح بقرة بأمر من الله ﷻ، فكان أولَ ردٍّ منهم على موسى كليم الله أن يقولوا: أتستهزئ بنا؟ فلما عَرَّفَهم أن الاستهزاء بالناس جهل لا يليق بعبد صالح قالوا: ما سِنُّها؟ فأجابهم موسى عليه السلام: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وحضَّهم على المسارعة إلى الامتثال، فتنطعوا وقالوا: ما لونها، فأجابهم بأنها ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]، فتنطعوا وقالوا: بيِّن لنا ما هي أسائمة أم عاملة إن البقر تشابه علينا، فأجابهم موسى عليه السلام بأنها ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧١] أي غير مَذَلَّلَةٍ بالعمل فلا تنفع لحرث الأرض ولا لسقي الزرع، خاليةٌ من العيوب واختلاط الألوان. وهنا انقطعوا وكادوا يعجزون عن الحصول عليها، ولو أنهم عندما أمرهم أول مرة سارعوا فذبحوا أي بقرة لكفتهم.

وفي قصة بقرة بني إسرائيل يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن والخمسون

تابع موسى عليه السلام

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كَذَبَ عدوُّ الله، حدثنا أُبيُّ بن كعب عن النبي ﷺ أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فَعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب ومن لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، وأخذ حوتاً فجعله في مِكْتَل ثم انطلق هو وفتاه يوشعُ بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فَرَقَدَ موسى واضطرب الحوتُ فخرج فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١] فأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء فصار مثل الطاق، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]، فكان للحوت سرباً ولهما عجباً، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذ رجل مُسَجّىً بثوب، فسلم موسى فرد عليه فقال: وأنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علَّمَكَهُ الله لا أعلمه، قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن

﴿تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٦٨] إلى قوله: ﴿أَمۡرٗا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كَلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخَضِر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فَنَقَر في البحر نَقْرَةً أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر، إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدُّوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ۝٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٧١ ـ ٧٣] فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مرُّوا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا كأنه يقطف شيئاً، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ۝٧٤ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ۝٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٤ ـ ٧٦] مائلاً، أومأ بيده هكذا كأنه يمسح شيئاً إلى فوقُ قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يُضيفونا عمدت إلى حائطهم ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف: ٧٧ ـ ٧٨] قال النبي ﷺ: **«وَدِدْنا أن موسى كان صبر، فقصَّ الله علينا من خبرهما»** وفي لفظ قال النبي ﷺ: **«يرحم الله موسى لو كان صبر يُقصُّ علينا من أمرهما»**.

ثم ساق البخاري رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **إنما سُمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء.**

وقد ساق الله عز وجل قصة موسى مع الخضر عليه السلام في محكم كتابه حيث يقول في سورة الكهف:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ۝٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ

لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٨١].

هذا وقد فُتن كثير من الصوفية فادعوا لأنفسهم علماً إلهياً غير ما جاء به رسول الله ﷺ ويسمونه العلم اللدني، وهذا برهان قاطع على جهلهم بشريعة الله، واللغة العربية، فإن قولهم العلم اللدني لا معنى له في اللغة العربية، وهم لجهلهم بها وانحرافهم عن دين الإسلام يحسبون أن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يدل على علم غير شرعي، وينحتون له هذا الاسم، وهو فهم عاطل باطل فاسد كاسد، فإن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ معناه أعطيناه علماً من عندنا، والعلم الذي أعطاه الله تعالى للخضر هو علم شرعي آتاه الله الخضر عليه السلام واختصه به؛ ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

ولا تدل هذه القصة على أن الخضر أفضل من موسى، إذ لا شك عند أحد ينتمي للعلم أن موسى هو من أكابر أولي العزم من المرسلين، وإعطاء الخضر علماً خاصاً به وهو ليس من أتباع موسى عليه السلام لا يدل على أنه أفضل من موسى؛ فالمزية لا تنافي الأفضلية، كما ذكرت في فصول سابقة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى موسى في مقامات كثيرة يُنوه فيها بفضله كقوله تعالى وهو يذكر جملة من الأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤].

وكقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وكقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

استمر موسى عليه السلام في نشر النور والهدى الذي أنزله الله تعالى عليه في التوراة، يعاونه هارون عليه السلام، إلى أن قبض الله عز وجل هارون عليه السلام في حياة أخيه موسى صلى الله عليه وسلم وهما في التيه مع بني إسرائيل.

وقد حج موسى عليه الصلاة والسلام البيت العتيق في مكة المكرمة، فقد روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بوادي الأزرق فقال: «**أيُّ وادٍ هذا؟**» قالوا: وادي الأزرق، قال: «**كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جُؤارٌ إلى الله عز وجل بالتلبية**». حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «**أيُّ ثنيةٍ هذه؟**» قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال: «**كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف خطام ناقته خُلبةٌ ـ يعني ليفاً ـ وهو يلبِّي**».

وقد ذكرت عند الحديث عن الخليل إبراهيم عليه السلام بعض صفات موسى عليه السلام، وأنه كان آدم أي أسمر، جعد الشعر جسيماً طوالاً كأنه من رجال أزد شنوءة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**رأيت ليلة أسْرِي بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة**».

كما روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له الدجال، وأنه مكتوب بين عينية كافر أو (ك ف ر) فقال: لم أسمعه ولكنه قال صلى الله عليه وسلم: «**أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعدٌ آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه انحدر في الوادي**».

وقد حضرت الوفاة موسى عليه السلام قبل أن يدخل الأرض المقدسة، غير أنه طلب من الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أرسِلَ مَلَكُ الموت إلى

موسى عليه السلام، فلما جاءه صَكَّه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال فالآن، قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**».

ثم قال البخاري رحمه الله: قال: وأخبرنا مَعْمرٌ عن همام حدثنا أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

وروى مسلم في صحيحه من طريق همام بن مُنبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أحاديث منها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**جاء مَلَك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فَلَطَم موسى عليه السلام عين مَلَك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يَدُك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رميةً بحجر**»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**».

وقد استشكل بعض من ينتمي إلى العلم هذ الحديث وكأنه استغرب كيف يضرب موسى عليه السلام مَلَك الموت وكيف يفقأ عينه؟ ولا غرابة في ذلك؛ لأن موسى لم يعرف أنه مَلَكُ الموت كما لم يعرف خليل الرحمن أبوه إبراهيم عليه السلام الملائكة الذين استضافوه، وقال لهم لمَّا لم يأكلوا طعامه: إنكم قوم منكرون، ولا سيما أن ملك الموت جاء موسى عليه السلام على طريق لم يُقبض على مثلها الأنبياء، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبضُ روحَ نبي من أنبيائه إلا بعد تخييره، كما أثر أنه ما من نبي قبض إلا خُيِّر، ولذلك لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار الرفيق الأعلى، أما استغرابُ فقوء عين الملك فهو مبني على تعريف الملائكة بأنهم لا تحكم عليهم الصورة،

أي لو تصور الملك في صورة رجل أو غيره ثم أُريد قتله أو قطعُ عضو منه فإنه لا تتأثر صورته بذلك، ولا يتمكن منه بخلاف الجنّي، فإن الصورة تحكم عليه، فلو تصور الجِنِّيُّ في صورة حيوان وقتل هذا الحيوان قُتِلَ الجِنِّيُّ، وبالنظر إلى أن هذا التعريف لم يثبت به خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فإنه لا يحل لمسلم أن يَرُدَّ به الخبر الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ.

وقد رأيت كثيراً من أهل الأهواء المعادين لأصحاب رسول الله ﷺ وللبخاري ومسلم وغيرهما من أئمة أهل السنة والجماعة يدندنون حول هذا الحديث الصحيح للنيل من أصحاب رسول الله ﷺ وشيوخ أهل الحديث، وقد علمتَ أنه لا شبهة في صحة هذا الخبر عن رسول الله ﷺ الصادق الأمين.

هذا وقد حرَّف اليهود التوراة بعد موسى عليه السلام، ومن أبرز الأدلة على ذلك أن اليهود يَدَّعون أن التوراة كتبها موسى عليه السلام بيده، وهي مكونة عندهم من أسفار خمسة، وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، أو الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية، وقد جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية في الفقرة الخامسة منه: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب؛ وفي الفقرة السادسة ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، فتبين بما لا مجال للشك فيه أن هذا السفر مكتوب بعد موسى عليه السلام، إذ كيف يكتب موسى بيده أنه مات ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، ومما يؤكد تحريفهم أنه جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التنثية في الفقرة ٢٤ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها ـ ٢٥ ـ أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: ٢٦ ـ خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم ـ ٢٧ ـ لأني عارف تمردكم ورقابكم الصُّلبة هو ذا وأنا بعد حيٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحَرِيِّ بعد موتي ـ ٢٨ ـ اجمعوا إليَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأُشْهدُ عليهم السماء والأرض ـ ٢٩ ـ لأني عارف أنكم بعد موتي تُفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم.

هذا وليست اليهودية هي دين موسى عليه السلام بل دينه الإسلام، واليهودية محدثة بعد موسى؛ ولذلك لم يرد في خبر صحيح أن موسى عليه السلام سماهم يهوداً، وقد تكون اليهودية مأخوذة من الهَوْدِ، بمعنى التوبة على حد قوله موسى عليه السلام ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد وهو الترجيع بالصوت في لين والتطريب، وقد كان أحبار اليهود إذا قرؤوا على العامة أتوا بنغمات مع غُنَّةٍ شديدة ومدٍّ بالخياشيم. ويمكن أن تكون نسبة إلى يهوذا أحد رؤوس أسباط بني إسرائيل، ويكون إطلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيل التغليب، وهو بالدال أو الذال كما جاء في القاموس المحيط، يقال: يهوذا ويهودا، كما يقال يهوذي ويهودي.

ولم يرد اسم اليهود في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله ﷺ على سبيل المدح قط، وكل ما ورد عنهم في عهد موسى عليه السلام كان باسم بني إسرائيل، كما أن ما ورد في كتاب الله عنهم كان باسم أهل الكتاب وقوم موسى وبني إسرائيل، ولم يذكر اليهودية إلا في مقام الذم، والعلم عند الله، والسلام على موسى وهارون.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الستون

داود وسليمان عليهما السلام

نتحدث عن النبيين الرسولين الملِكين الكريمين داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وكان أول ذكرٍ ثابتٍ لداود عليه السلام هو ما قصه الله تبارك وتعالى عن قتل داود لجالوت في الحرب التي دارت بين طالوت وجالوت في فلسطين، والظاهر من سياق القرآن الكريم لقصة هذه الحرب يفيد أن بني إسرائيل قد حاربهم جماعة من الوثنيين، وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وكان على رأس هؤلاء الوثنيين جالوت لعنه الله، وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي بعث الله عز وجل لهم نبياً آخر، يشرح لهم التوراة، ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيروه وحرفوه وبدلوه من الكَلِم عن مواضعه على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ (أي انقادوا لأمر الله) ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ (أي صاروا يهودا) ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خَلَفه نبي وإنه لا نبي بعدي»**، فكان أنبياء بني إسرائيل كعلماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم سوى أنه كان يوحى إليهم، فلما اشتدت الحرب على بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته أعداء الله من الوثنيين، فأخبرهم نبيهم عليه السلام أنه يخشى عليهم أن يَنْكِلوا عن القتال إذا فَرِضَ عليهم ولا يَفوا بما التزموا به، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي أخذت مِنَّا البلادُ وسُبيت الأولاد، فأخبرهم نبيهم عليه السلام أن الله قد عين لهم ملكاً منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يُعين الله علينا طالوت ملكاً ولم يكن في آبائه من ملك، فنحن أحق بالملك منه مع أنه فقير

قليل المال، فأجابهم نبيهم عليه السلام بأن الله عز وجل قد اختاره عليكم وفضله من بينكم، وقد أعطاه الله عز وجل بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشؤون الحروب وتدبير الأمور، وأشد منكم قوة وصبراً وجلداً لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تتعنتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعينه ملكاً عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم: إن الله تبارك وتعالى جاعل لكم آية على صحة ملك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عجزتم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يُطلب منكم بذل مجهود في استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة فيه طمأنينة لبني إسرائيل، ودلالة ظاهرة على أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فَصَدِّقُوا وعد الله وسارعوا إلى طاعة طالوت وآمنوا بما أخبرتكم به عن الله عز وجل، ولما انقادوا لذلك وتهيئوا لقتال جالوت وجنوده تحت راية طالوت رحمه الله، وكان من بينهم داود عليه السلام أخبرهم طالوت رحمه الله أن الله عز وجل سيختبرهم، حيث يمرون بنهر وهم عطاش وهو يمنعهم من الشرب منه لما يعلمه الله عز وجل أن الشرب منه يضرهم، والعجيب أنه لا يزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرمون على جنودهم أن يشربوا في أثناء زحفهم على عدوهم، لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم، إلا أنهم يجيزون لهم أن يَبُلُّوا ريقهم بَلّاً خفيفاً، ولذلك أذن طالوت لجيشه بأنه لا مانع أن يغترف الواحد منهم غُرفةً بيد تَبُلُّ ريقه، ولا تعتبر شرباً، وهذا من آثار بسطة علم طالوت رحمه الله، وقد حذرهم طالوت وعرفهم أن من شرب من هذا النهر لا يصحبه في قتال أعداء الله من الوثنيين أتباع جالوت، ولا يجاوز النهر، غير أنه عندما وصل هذا الجيش إلى النهر عصوا طالوت وشربوا منه سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت رحمه الله.

وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً بعدد أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب

محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاث مئة، قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عِدَّة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلاث مئةٍ. وفي لفظ للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاث مئة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن. ولما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوهم جالوت قد حشد جنوداً وأعد عدة عظيمة، فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت: لا طاقة ولا قدرة لنا اليوم على قتال هذا العدو الكثير، كأنهم استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق وأن النصر من عند الله ليس بكثرة العَدَد وقوة العُدَد، وأنه ينبغي للمسلم أن يرغب في الاستشهاد ولقاء الله في سبيل الله قائلين لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥٠] سألوا الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينزل عليهم الصبر، وأن يُثبت أقدامهم في لقاء الأعداء، وأن ينصرهم على القوم الكافرين، فاستجاب الله دعاءهم ونصرهم على أعدائهم، وقتل داود جالوت ملكهم، وسارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود، وبعث الله عَزَّ وَجَلَّ داود نبياً رسولاً، وجعله ملكاً كريماً على بني إسرائيل، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على طالوت ووصفه بأوصاف كريمة، أما ما زعمه بعض المفسرين والإخباريين من أن طالوت حسد دواد وأُصيب بالجنون وهام في الصحراء فإنه زعم باطل لا دليل عليه من خبر ثابت، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة طالوت وحربه لجالوت وتمليك داود حيث قال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ

ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الحادي والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

بعد أن مكَّن الله لداود في الأرض وآتاه الملك والنبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه ما يحتاجه هو وبنو إسرائيل من المنهج القويم، وقد يَسَّر الله ﷻ لداود قراءة الزبور وخففه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسرج دوابُّه، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى محمد ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خُفِّف على داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابُّه، ولا يأكل إلا من عمل يده**»، والمراد بالقرآن هنا الزبور الذي أنزله الله على داود عليه السلام حيث يقول: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، كما يطلق القرآن على القراءة، يعني قراءة الزبور، وقد كان داود عليه السلام قد منحه الله ﷻ صوتاً جميلاً يتغنى به وهو يقرأ الزبور ويترنم، ولقد وصف رسول الله ﷺ ترنمه بالزبور بصوت المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا أبا موسى! لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**». وروى أحمد في مسنده قال: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «**لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود**».

وقد التزم داود عليه السلام بأنه لايأكل إلا من عمل يده، كما اتخذ منهجاً في الصيام والصلاة هو أحب المناهج التي كان رسول الله ﷺ يحض عليها في التطوع، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى**»، وفي لفظ للبخاري

من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث المقداد بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**».

ولقد تفضل الله تبارك وتعالى على داود فألانَ له الحديد وعلَّمه صنعة لبوس لصيانة المقاتلين المؤمنين، فكان أول من صنع الدروع التي قد تسمى الزرد، وقد أرشده الله عز وجل إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حِلقاً بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره عز وجل أن يعملها سابغاتٍ تغطي كل جسم لابسها ويجرها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولاً وعرضاً فيعم نفعها جميع المقاتلين، وأن يقدر في السرد، أي في نسج الدرع؛ وهو إدخال الحلقات بعضها في بعض ولا تجعل المسامير غلاظاً فتكسر الحلقة، ولا دقاقاً فتتقلقل فيها، ولا تزاد في متانتها فتثقل على المقاتل، وهذه نعمة جزيلة لفت الله المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

كما سخَّر الله عز وجل لداود الجبال والطير إذا سبَّح؛ سبحت معه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وفي ذلك كله يقول الله عز وجل في سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

ويقول عز وجل في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١].

ويقول تعالى: في سورة «ص» آمراً شيخ المرسلين محمداً ﷺ بالاقتداء في الصبر بداود عليه السلام: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠].

وقد افترى اليهود على داود عليه السلام أكاذيب كثيرة، كما كذبوا على أنبياء الله من قبله ومن بعده، وقتلوا بعض الأنبياء، فقد ادعوا أن داود خرج يتمشى على سطح بيت الملك مساءً، فوجد امرأة جميلة تغتسل، فأرسل رجالاً فأخذوها وجاؤوا بها إلى داود، فدخلت عليه فاضطجع معها وحبلت منه، وأنه عمل على قتل زوجها، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموائيل الثاني الذي بأيديهم في الفقرة الثانية منه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت المُلْك؛ فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. وفي الفقرة الثالثة فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي؟ وفي الفقرة الرابعة: فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وفق الفقرة الخامسة: «وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى»، وبعد أن يسوق سفر صموائيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل، بعد ذلك يقول السفر في الفقرة ٢٦: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رَجُلُها ندبت بعلها، وفي الفقرة ٢٧ ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب. ثم يتابع السفر المذكور سرد معاتبة الرب لداود وإماتَةَ الله للولد الذي جاءت به بثشبع، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها فتحبل وتلد ولداً اسمه سليمان، والعجيب الغريب أن هذه الأكذوبة انطلت على بعض من ينتمي إلى علم التفسير ففسروا بها قوله الله عز وجل:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٥].

وتفسير هذه الآيات بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا هذه المرأة الواحدة، ومجيء ملكين في صورة متخاصمين لداود لتنبيهه على قبح ما فعل: أقول: إن تفسير هذه الآيات الكريمات بهذا هو تفسير عاطل باطل فاسد كاسد، وإفك مفترى مبتدع يأباه لنفسه السوقة والرعاع، ومكر يهودي مخترع تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع؛ ولذلك أثر أن علياً رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، كما أثر أن رجلاً صالحاً من أهل العلم كان جالساً مع عمر بن عبد العزيز بالمسجد وبالقرب منهما رجل يقص على الناس هذه القصة المخترعة على داود، فقال الرجل الصالح: يا هذا! إن كان الأمر على خلاف ما تزعم فقد افتريت على نبي الله داود، وإن كان على ما تزعم وستر الله على نبيه داود وكنى وقال نعجة ولم يقل امرأة فما يحل لك أن تفضح نبي الله داود، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا الكلام أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن تفسير من فسر قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] إلى قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وتفسير النعجة في الآية بأنها المرأة، قلت: إن هذا تفسير عاطل باطل فاسد كاسد وإفك مبتدع يأباه لنفسه السوقة والرعاع، ومكر يهودي تمجه الأسماع، وتنفر منه الطباع، وأذكر هنا أن سياق القرآن يأباه، فإن الله تبارك وتعالى ذكر في مقدمة هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. ما لقيه رسول الله ﷺ من أذى قومه وتمالئهم عليه واستهزائهم به، فأمره الله ﷻ بالصبر على ما يقولون، وأمره بأن يذكر قصة العبد الصالح الأواب داود عليه السلام، ثم قصة سليمان ثم قصة أيوب، وما أصابهم من الضيق فصبروا، فجاءهم الفرج من عند الله، والمعروف أن القرآن العظيم كالدر النظيم، كل آية مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها وبما بعدها، فهل يأمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بالصبر اقتداءً بداود العبد الصالح الأواب، ثم يصف هذا الأواب بأنه العاشق الطامع في زوجة رجل مؤمن ليس له غيرها، ولداود تسع وتسعون امرأة، إن ذلك لمنكر من القول وزُور، وإنما يأمر الله رسوله محمداً ﷺ في هذه الآيات بالصبر على أذى قومه له، ويذكره بما كان من أخيه العبد الصالح الأواب داود عندما تسوَّر عليه المحراب ـ أي القصر ـ متخاصمون، ففزع منهم وخاف أن يغتالوه، ولما طمأنوه بأنهم لم يجيئوا لإلحاق أذى به وإنما جاؤوا متخاصمين. وتقدم المدعي وقال مشيراً إلى المدعى عليه: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي شاة من الغنم، ولي نعجة واحدة، أي شاة من الغنم واحدة، وأنه رحمني في أول الأمر

عندما رآني أسرح بها وحدها، فطلب مني أن يجعلها مع نعاجه لترعى معها دون مشقة عليَّ. فلما مضت مدة وجئت لأطلبها منه أنكر حقي فيها وقهرني، وجحد أن تكون لي عنده شاة وادعى أنها ملكه، فلما سمع داود عليه السلام الدعوى ولم يسمع من المدَّعى عليه إنكاراً لما يقول المدعي حكم داود على المدعى عليه وقال للمدعي: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن هذا دأب الخلطاء الذين لا يخافون الله بخلاف المؤمنين الصالحين وهم قليل، فلما انصرفوا من عنده راضين بحكمه عاتب نفسه على الفزع منهم، وظن أنه فُتِن بسبب فزعه منهم عندما رآهم يتسورون المحراب، فخرَّ لله راكعاً وأناب فغفر الله ما وقع منه.

وكأن الله تعالى يقول لشيخ المرسلين وإمام المتقين وسيد أولي العزم محمد ﷺ: إياك أن تفزع من تهديدات قريش لك، واذكر قصة أخيك العبد الصالح الأواب داود عليه السلام عندما تسور عليه المحراب متخاصمون ففزع منهم؛ فاعتذر إلى الله من هذا الفزع وظن أنه لا يليق بالنبيين والمرسلين، فأنت أولى أن لا تفزع من قريش مهما تمالؤوا عليك وهدَّدوك، فإن العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة لك، والله يعصمك من الناس، وليس في قصة داود في سورة ص ذكر حب وغرام واعتداء على امرأة رجل مؤمن في عصمة زوجها؛ بل لا ذكر للمرأة أبداً في هذه القصة، وإنما فيها ذكر النعجة، والعرب ـ كما ذكرت في مقدمة هذا الكتاب قصص الأنبياء في الفصل الثاني ـ لا يسمون المرأة نعجة، وإنما يطلقون النعجة على أنثى الضأن أو بقر الوحش فقط، ولا ترضى المرأة أبداً أن تُشبه بأنثى الضأن، ولكنها ترضى أن تشبه بنعاج الفَلَا، أي بقر الوحش، فإذا شُبِّهت المرأة بالنعجة فإنما يراد بها المَهَا، وهي بقر الوحش على حد قول الشاعر في امرأتين:

هما نعجتان من نعاج تبالة ... لدى جؤذرين أو كبعض دُمَى هَكِر

وتبالة مكان بين بيشة والنماص كانت توجد فيه بقر الوحش بكثرة، وجؤذرين تثنية جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية، ودُمى هَكِر: الدُّمَى جمع دُمْية وهي صورُ الرخام، وهَكِر موضع فيه هذه الصورة، ويقال هو دَيْرٌ رومي أو قصر؛

فالمرأة تفرح إذا شبهت ببقر الوحش لجمال عيونها؛ وحسن عنقها ولذلك قال الشاعر:

عيون المها بين الرُّصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وقال الآخر:

إن العيون التي في طرفها حور   قَتَلْنَنَا ثم لم يحيين قتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنساناً

والمعروف أن بقر الوحش لا يسرح تحت كفالة راع، فإطلاق النعجة على المرأة ليس بالوضع العربي، وإنما يأتي على سبيل التشبيه ببقرة الوحش لا بأنثى الضأن.

قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] قال: والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، ثم قال أبو حيان: والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظاناً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، وأن داود ﷺ ظن أن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنفاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، ولذلك أشار بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ولم يتقدم سوى قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ويُعلم قطعاً أن الأنبياء ﷺ معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم.ا.هـ.

أما قول البخاري رحمه الله في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه: يقال للمرأة نعجة، ويقال لها أيضاً شاة، فقد أشار الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أنه استقى ذلك من أبي عبيدة معمر بن المثنى حيث قال: قال أبو عبيدة في قوله: ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي امرأة، قال الأعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

والمعروف عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أنه كان يتأول بعض ألفاظ القرآن على أن ذلك من مجاز القرآن، وقد أنكر عليه كثير من الأئمة في هذا السبيل، وهو ليس من الثقات في نقل الأخبار، وإطلاق الأعشى لفظ الشاة على المرأة إنما أراد بالشاة البقرة الوحشية تشبيهاً لها بها، وقد قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفَّاظ لما ذكر أبا عبيدة معمر بن المثنى: وليس هو بصاحب حديث، بل سبق قلمي بكتابته.ا.هـ.

وقد قال ابن كثير في قصة داود من البداية والنهاية: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

وقال في تفسيره بعد سياق الآيات: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

أجزل الله تعالى لداود النعمة فآتاه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ووهب له العبد الصالح والملك الكريم والنبي العظيم الأواب سليمان بن داود، وقد نشأ سليمان عليه السلام في حِجْر داود، وترعرع في بيت النبوة والملك، وعندما بلغ الحُلُم ملأه الله حلماً أي أناة وعقلاً، وكان يحرص على مجالس حكم أبيه داود عليه السلام، ليشهد قضاءه بين الناس، وقد كان يشير أحياناً على أبيه بأنه لو كان هو القاضي في هذه القضية لحكم بغير ما حكم أبوه، وقد ذكر القرآن العظيم صورة من صور هذه القضايا، فذكر الله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء قضية الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، أي انتشرت فيه ليلاً بلا راعٍ فأفسدت الزرع، فيُذْكر أن داود قضى بالقيمة لصاحب الزرع، فقال سليمان عليه السلام: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير ذلك، فقال أبوه داود عليه السلام: بم كنت تقضي يا بني، قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الزرع فينتفعون بألبانها ومنافعها، ويقوم أصحاب الغنم بإصلاح الحرث حتى يعود كما كان، فَيُرَدُّ إلى أصحابه وتُردُّ الغنم إلى أصحابها، ففضَّلَ الله تبارك وتعالى حكم سليمان، وذكر أنه فَهَّمه الحكم في هذه القضية، ولا يحط ذلك من قدر داود عليه السلام؛ لأن فرحه بتوفيق ابنه للحكم في القضية لا يقل عن فرحه لو كان فُهِّمَهَا هو كذلك، ولذلك مدح الله تعالى داود وسليمان معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وليس حكم داود هنا خطأ، ولكن حكم سليمان في هذه القضية أولى منه، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون

مؤيدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**». ا.هـ.

كما قص رسول الله ﷺ صورة من صور حكم داود، ثم أظهر سليمان عليه السلام أنه لو كان القاضي في هذه القضية لقضى بغير ذلك، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى؛ فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشُقَّهُ بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى**».

وقد استمر داود في حكمه وملكه ما شاء الله تعالى، فلما أدركه الموت أرسل الله ﷻ سليمان عليه السلام وجعله ملكاً كريماً ورسولاً عظيماً، وعلمه منطق الطير، وجعله أحد الأئمة من الرسل الذين أمر رسوله محمداً ﷺ بالاقتداء بهم.

وقد بدأ بذكر داود وسليمان بعد ذكر نوح عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٤].

وبعد أن ذكر مجموعة من المرسلين قال لحبيبه محمد ﷺ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠]، ولذلك سجد رسول الله ﷺ في سورة «ص» لما قرأ سجدة داود، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سألت ابن عباس (يعني عن سجدة ص) من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ

وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وفي قيام سليمان عليه السلام بعد أبيه بالمُلْك والنبوة يقول تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٦]، إذ المراد بالميراث هنا هو ميراث الملك والنبوة لا ميراث المال، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة**».

وكما أن اليهود كذبوا على داود عليه السلام واختلقوا عليه أشياء كثيرة، فقد أكثروا من الكذب على سليمان عليه السلام واتبعوا في ذلك الشياطين، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يحكم بواسطة خاتمه السحري وأنه كان ساحراً، وأنه كان إذا دخل بيت الخلاء دفع الخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم، فذهب الشيطان وجلس على كرسي الملك يحكم في بني إسرائيل، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته: هات الخاتم، فقالت: قد خرج سليمان قبلك وأخذه، وأنكرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عند صياد، فكان الصياد يعطيه أجرته عن كل يوم سمكتين، كان يبيع سمكة يشتري بثمنها خبزاً، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوماً، ثم إن بني إسرائيل قاموا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهرب منهم ـ ولا أدري كيف لم ينفعه الخاتم ـ وألقى بالخاتم في البحر فابتلعته سمكة، ثم وقعت في شباك الصياد، فلما دفع لسليمان أجرته سمكتين باع واحدة وطبخ الأخرى وهي التي كان في جوفها الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه، فلبسه ورجع إلى ملكه.

والعجيب أن هذا الإفك تسرب إلى بعض أكابر أهل العلم فصدقوه حتى تجد أكثر كتب التفسير في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤] يقولون شيطاناً، وانتشر على ألسنة العامة والخاصة ذكر خاتم سلميان، وخواصه، مع

أن الله تبارك وتعالى نبَّه في سورة البقرة إلى كذب اليهود على سليمان اتباعاً للشياطين في هذا الباب حيث يقول ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية، مع أن رسول الله ﷺ فسَّر فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه بأنه: حلف ليطوفن على مئة من نسائه فتحمل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، فأخذ وألقي على كرسيه فاعتذر إلى الله ﷻ فقبل الله معذرته، وأنه ما طلب الولد تكثراً وافتخاراً وإنما ليقاتلوا في سبيل الله فقبل الله منه وأبدله ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٨].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والستون

تابع: داود وسليمان

ذكرت في ختام الفصل أن رسول الله ﷺ فسَّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] بقصة حلفه على أن يطوف على مئة من نسائه لتحبل كل واحدة منهن وتأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحبل إلا واحدة جاءت بشق ولد فأخذ وطرح على كرسيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان**، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته**». وفي لفظ للبخاري: «**فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه**»، فقال النبي ﷺ: «**لو قالها لجاهدوا في سبيل الله**»، فأعجب كيف ترك بعض العلماء هذا التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ لفتنة سليمان وأتوا بأكاذيب اليهود والشياطين.

قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاةٌ من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير، واقتصرنا ها هنا على مجرد التلاوة.ا.هـ.

وقد تفضل الله تبارك وتعالى على سليمان فمنحه الكثير من أسباب القوة، وعوَّضه ما يزيد في قوته عن مئة ولد مجاهد فسخر له ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ

أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩]. وكما أن الله أعزَّ منزلة سليمان في الدنيا فإنه أعد له في الآخرة درجة عالية وحسن مآب، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٤ ـ ٤٠].

وقد وصف الله تبارك وتعالى الريح التي سخرها لسليمان بما يفيد أنها تخضع لإرادة سليمان ﵇، فإن أحب أن تكون لينة هادئة صارت كذلك، وإن أحب أن تكون عاصفة شديدة سريعة تقطع في الغداة أي من أول النهار إلى الزوال ما يقطع بالسير المعتاد في شهر، وتقطع في الرواح أي في الزوال إلى الغروب ما يقطع بالسير المعتاد في شهر أي ما يقارب ثمانين وأربع مئة ميل في رحلة الصباح ومثلها في رحلة المساء، وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وكما ألان الحديد لداود فقد أسال عين القطر لسليمان ﵇، أي أذاب له عين النحاس والحديد، فصار النحاس والحديد يخرج من معدنه كالعين الجارية من الماء دون أن يُشعِلَ عليه ناراً؛ تيسيراً له ومدّاً في أسباب قوته، كما سخر له الشياطين وهم مردةُ الجن فمن دونهم، يعملون بين يديه بأمر ربه خاضعين لا يجرؤ واحد منهم على الهرب من خدمة سليمان، ولو أراد الهرب لعجل الله بعقوبته، يعملون لسليمان ما يشاء من محاريب ـ أي قصور عاليةٍ مُمَرَّدَةٍ من قوارير ـ فالمحراب القصر، وإطلاقه على ما يعرف باسم القبلة، وهي في العادة تجاويف في جدار المسجد من جهة قبلته للتعريف بها إطلاق المحراب على ذلك من الإطلاقات المحدثة التي لا يعرفها العرب، ومن الأخطاء الفاحشة كتابة قوله

تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] على هذه التجاويف فإنها غير مرادة من هذه الآية الكريمة، كما كانت الجن تعمل لسليمان ما يشاء من التماثيل أي زخارف الجدران من صور الأشجار والزهور ونحوها، كما كانوا يصنعون قصاعاً كباراً كأنها الحياض يقدم فيها الطعام، كما كانوا يعملون له قدوراً لطبخ الطعام ثابتة لا تحرك من مكانها لضخامتها، كما كانت الجن تقوم بأعمال الغوص لاستخراج الجواهر، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

ويقول في سورة سبأ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣].

ويقول في سورة (ص): ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٧ ـ ٤٠].

وكما سخَّر الله لداود الطير محشورة تُؤوِّبُ وتسبح الله بتسبيحه فكذلك سخر الطير لسليمان يجمعها متى شاء ويعلم لغاتها ولغات الحشرات، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٦ ـ ١٧] (أي يُجْمَعون عنده ويسيرون بسيره ولا يتقدم أحد على مرتبته ولا يشذون عن إرادته).

وقد قصَّ الله تبارك وتعالى قصة إحدى هذه المسيرات، فذكر أنه مر بجنوده هؤلاء على وادي النمل، فسارعت نملة إلى نصح جماعتها بالدخول في مساكنهم والابتعاد عن مسيرة سليمان وجنوده حتى لا يحطموهم دون علم منهم، فعرف سليمان لغتها وسمع نصحها لقومها فضحك، وسأل الله تعالى أن يُوزِعَهُ شكر

نعمه التي أنعم بها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ (أي ألـهـمـنـي) ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

وفي قصة النملة لفت انتباه الناس إلى آيات الله في الكون، وما في العالم من أُمم، وما لهذه الأُمم من المعارف والسلوك، وما يكون في هذه العجماوات من التناصح وحب الخير لبعضها، فإن هذه النملة قد أمرت وحذرت، واعتذرت عن سليمان وجنوده بأنهم لا يتعمدون الإضرار بأحد، ولا شك أن الدارس لأخلاق النمل والنحل وغيرها من العوامل يجد آياتٍ شاهداتٍ بأنه رب كل شيء وسيده ومليكه، وأنه لا ينبغي الاعتداء على شيء من خلق الله بلا حق، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قَرَصَتْ نبياً من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأُحْرِقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح؟ فهلا نملةً واحدةً»**.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

كان سليمان عليه السلام شديد العناية بجنوده من الجن والإنس والطير، وكان يتفقدهم ولا يغفل التفتيش عليهم ليطمئن على انضباطهم، وفي أثناء التفتيش تفقد الطير ولم يجد الهدهد فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أشيء يستره عني أم هو غير حاضر؟ فلما تأكد أنه غير موجود قال: لأعذبنه عذاباً شديداً دون قتله أو لأقتلنه إلا إذا جاء بعذر مقبول يدفع العقوبة عنه، ولم تَطُلْ غيبةُ الهدهد حتى حضر إلى سليمان عليه السلام وبادره بقوله: علمتُ ما لم تعلم وجئتك من أرض اليمن من مملكة سبأ بخبر عظيم قاطع لا شك فيه ولا ريب، إني رأيت امرأة تتولى مملكتهم، وقد أُعطيت جميع أسباب ما يرغب في اقتنائه الملوك المقتدرون من الرغد والسعة والأبهة، ولها عرش فاخر، وجدتها مع قومها سبأ أبناء يشجب بن يعرب يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، وقد زخرف الشيطان لهم طريق الشرك، فصدهم عن الحق وحال بينهم وبين إخلاص العبادة لله وحده الذي لا يجوز لأحد أن يعبد شيئاً سواه، فهم بالرغم من انفتاح الدنيا عليهم وتقلبهم في نعماء الله لا يهتدون إلى توحيد الله، يا حسرة عليهم لماذا لا يسجدون لله وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء فيها، ولو كانت الخبيئةُ مثقال ذرة في السموات أو في الأرض يأتي بها الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

وفي تهجين الهدهد لما تفعله ملكة سبأ هي وقومها من عبادة غير الله لفت انتباه الناس إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الخلق وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الهدهد في هذا السبيل أعقلُ من كثير من الناس وأهدى. ولم يسارع سليمان عليه السلام إلى تصديق الهدهد أو تكذيبه، بل توقف في قبول خبره حتى يقف على حقيقة هذا الأمر، وكتب كتاباً فيه: ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وأمر الهدهد أن يكون هو الحامل لهذه الرسالة إليهم، فذهب الهدهد وألقى الرسالة على الملكة، ووقف يراقب: ماذا يكون من جوابهم على هذه الرسالة؟ وماذا استحدث من أثر فيهم، وكان ذلك بإرشاد سليمان عليه السلام، فلما قرأت الملكة الكتاب جمعت أمراءها ووزراءها وكبار مستشاريها و﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٠].

وقالت ملكة سبأ أيضاً: يا أيها الملأ اشيروا عليَّ بما ترونه في هذا الأمر، فإني لا أقطع برأي ولا أستبد في أمر دون مشورتكم وأخذ رأيكم، فأجابوها بأنهم جميعاً يدٌ واحدة أقوياء أشداء في الحروب، ورأيك مطاع وأمرك نافذ، فانظري أيَّ رأي ترغبين فيه فنحن نسارع إلى طاعتك، ولا نعصي لك أمراً، فأخبرتهم أنها تميل إلى مصانعة سليمان، والتلطف معه ومحاولة اكتساب رضاه؛ لأن الملوك الأقوياء إذا تمكنوا من بلد واستولوا عليها بالحرب حصل على أهلها ذِلَّة وصغار وتخريب ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، وأنتظر الجواب منهم مع رسلي الذين أرسلتهم بالهدية، فلما وصل رسول ملكة سبأ بالهدية وعرضها على سليمان عليه السلام وكانت أموالاً جزيلة، فردها سليمان عليه السلام ولم يقبلها و﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] فما أنعم الله عليَّ به من النبوة والمُلْك خير من جميع ما بأيديكم من زخارف الحياة الدنيا، إنما يفرح بما يقدم إليه من مثل هديتكم من كان من أهل المفاخرة والمكاثرة بزخارف الحياة الدنيا، وقد أعطاني الله عز وجل ما لم يعطه لأحد من ملوك الدنيا المعاصرين لي وغيرهم، ثم أمر رسول ملكة سبأ بالرجوع بهديتها، وأعلمه أنه سيغزو بلادهم بجنود لا طاقة لأهل سبأ بها، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم ينقادوا لأمر الله ويأتوني مسلمين قبل توجهي بجنودي نحو بلادهم، وأراد سليمان عليه السلام أن يضرب لها مثلاً محسوساً على قدرته بإذن الله عليها، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، فأجابه عفريت من الجن قائلاً: أنا آتيك به قبل أن ينفضَّ مجلسُك هذا وإني عليه لقادر فلا يعجزني حمله، وأمينٌ فلن أضيِّع شيئاً مما فيه من الجواهر، والعفريت هو القوي النافذ في

الأمر المبالغ فيه مع دهاء. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والظاهر أنه جبريل عليه السلام؛ لأنه رسول الله بالكتاب إلى الأنبياء وهو يقرؤه عليهم قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ في وقت أسرع، وهو أن أحضر لك عرش الملكة قبل طرفة عين، وفي الحال رأى سليمان عليه السلام العرش مستقراً أمامه، فأقبل سليمان على شكر الله تعالى والثناء عليه و﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وأراد سليمان عليه السلام أن ينبه العباد إلى أنه يجب عليهم شكر الله عند تجدد النعم، وأنه لا يجوز لأحد أمدَّه الله بأسباب القوة أن يخطر على باله بأن يثبت لنفسه حولاً أو قوة، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. وهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي يا جار. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ولما علم سليمان أن ملكة سبأ توجهت إليه أمر بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على العرش ليختبر ذكاءها وفطنتها، فلما جاءت ورأت العرش قيل لها: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] ولم يقل: أهذا عرشك؟ لأنه لو قيل: أهذا عرشك فقالت: نعم؛ لم يكن نصاً في نجاحها في الاختبار، فلما قيل لها: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي أهو شبيه بهذا العرش، فأجابت إجابة الفَطن الواعي ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] فلم تُثبت ولم تنفِ، ولكنها أكدت شدة الشبه بعرشها.

وفرح سليمان والمؤمنون بذلك وشكروا الله على أنهم أسبق منها بالعلم والإسلام، وكان قد صدها عن معرفة الله تعالى ما كان عليه قومها من عبادة غير الله، إنها كانت من قوم كافرين، فأمرها سليمان عليه السلام بدخول الصرح، وكان قصراً مملَّساً بالزجاج، وأرضه مُمَلَّسَةً به حتى يَحسبَهُ من لا يعرفه ماءً كثيراً يحتاج إلى رفع الثياب عن الساق حتى لا تبتل الثياب، ولذلك رفعت الملكة ثيابها وكشفت عن ساقيها، فأخبرها أنه ليس ماء وأنه ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فأيقنت أن مُلْكها الذي أوتيت فيه من كل شيء ضئيل بالنسبة إلى ما أعطاه الله لسليمان، وأعلنت إسلامها وانقيادها إلى أمر الله وطاعة سليمان عليه السلام، وأقرَّت بأنها ظلمت نفسها عندما سجدت للشمس وعبدت غير الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

ساق الله تبارك وتعالى قصة تفقد سليمان الطيرَ وما كان من الهدهد، وقصة ملكة سبأ، ورسالة سليمان عليه السلام إليها بواسطة الهدهد، وما كان بينها وبين قومها من حوار في الجواب، وما كان في شأن عرشها، ومجيئها إلى سليمان، وقصة الصرح الممرد بالقوارير، ودخولها في الإسلام حيث يقول عز وجل في سورة النمل:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ

مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٤٤].

كما ذكر الله تبارك وتعالى صورة أخرى من صورة اهتمام سليمان بآلات الحرب، فذكر حرصه على تفقد الخيل لِما لها من أثر كبير في قتال أعداء الله، فأشار تبارك وتعالى إلى أنه قد عُرِضَ على سليمان في وقت العَشِي وهو ما بعد الزوال إلى الغروب الخيلُ الصافنات، وهي التي إذا كانت واقفة قامت على ثلاث قوائم منها، ثم جعلت الرابعة من قوائمها ـ أي يديها ورجليها ـ على طرف الحافر استعداداً للجري، وكانت هذه الخيل كلها مختارة من الجياد السِراع السوابق، فأخذ ساستها في عرضها على سليمان، وبدأت مسيرة أولها من أمامه حتى غاب آخرها عنه إما بسبب انتهاء البصر أو بسبب حاجز آخر من جبل أو غيره، فقال لساستها والمسؤولين عن رعايتها وملاحظتها: ردوها عليَّ، فردوها عليه، وكانت قد أصابها الغبار وظهر في سوقها وأعناقها؛ لأنها يكثر فيها العرق فيلصق به الغبار، فأخذ سليمان عليه السلام من شدة عنايته بها وحرصه عليها ولتنبيه الناس إلى فضلها؛ «**لأنها معقود في نواصيها الخير**»، أخذ يمسح بيديه سوقها وأعناقها ليبعد الغبار عنها، وكان قد قال لمن حوله عند عرض الخيل عليه: إني أحببت الخير حباً شديداً عن ذكر ربي، أي أحببت الخيل حباً عظيماً بسبب أن الله تعالى أثنى لي عليها ومدحها لي ونبهني إلى فضلها، والخيل يطلق عليها اسم الخير، لكثرة خيرها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**» كما رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولا ينبغي أن يخطر على بال مسلم أن قوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] أنه

أحب الخيل، على صلاة العصر وكان قد ضيَّع صلاة العصر بسبب عرضه للخيل، فهذا كذب مفترى على سليمان عليه السلام، وأنت قد تقول: أنا أحببت أبا بكر عن محمد رسول الله ﷺ وتعني أنك أحببت أبا بكر رضي الله عنه بسبب حب رسول الله ﷺ له، وعن طريق ذكره وثنائه عليه رضي الله عنه فلا يخطر ببال مسلم أنك تريد أنك تحب أبا بكر أكثر من رسول الله ﷺ إذ هذا المعنى لا يخطر ببال مسلم.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة عرض الخيل على سليمان في سورة (ص) حيث يقول: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١ - ٣٣] أما إرجاع الضمير في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ إلى الشمس أو أنه طلب من الملائكة إرجاع الشمس حتى يصلي العصر مع أنه لا ذكر للشمس ألبتة في هذا السياق الكريم، فهو من دسائس اليهود، وقولٌ على الله بلا علم.

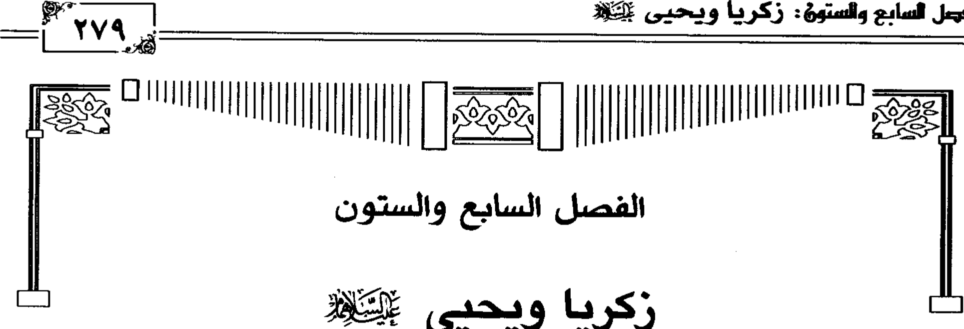
هذا وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن التسلط على الجن قد اختص الله تعالى به نبيه سليمان عليه السلام إجابة لدعوته حيث قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٧] فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تَفَلَّتَ عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان** ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ **فرددته خاسئاً**».

وقد استمر سليمان بن داود عليهما السلام في تسخير الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، وأراد الله عز وجل أن يبطل دعوى بعض الناس أن الجن يعلمون الغيب، وأنهم قادرون على التسلط على الناس، حتى كان بعض أهل الجاهلية إذا نزلوا وادياً استعاذوا بشيوخ الجن من سفهائهم، يقولون نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، كما قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] أراد الله عز وجل أن يضرب مثلاً على أن الجن لا يعلمون

الغيب، فقبض سليمان بن داود عليه السلام وهو قائم يراقب أعمال الجن بين يديه، وقد اتكأ على منسأته أي عصاه، وقد مات وهو قائم ممسك بعصاه، والجن في أشغاله الشاقة بين يديه لا يعلمون أنه مات، حتى أراد الله إظهار موته فسلط دابة الأرض وهي الأرضةُ فأكلت العصا من أسفلها، فلما سقط على الأرض أيقن الإنس والجن أنه مات، وعلمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] سلام على سليمان في المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والستون

زكريا ويحيى عليهما السلام

نتحدث إليكم عن رسولين كريمين من رسل الله المسارعين في الخيرات الداعين إلى الله رغباً ورهباً، الخاشعين لله وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، وقد أورد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ذكر زكريا ويحيى بعد سنين قليلة من بعثة رسول الله ﷺ، حيث صدر بهما سورة مريم، وقد نزلت قبل هجرة جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى الحبشة، كما أورد الله تبارك وتعالى ذكر زكريا ويحيى في سورة الأنبياء. وهي مكية أيضاً، كما ذكرهما في سورة الأنعام في جملة المرسلين، وسورة الأنعام من السور المكية كذلك، كما ذكرهما الله تعالى في سورة آل عمران وهي مدنية، وقد دار ذكرهما في سورة مريم والأنبياء وآل عمران لإظهار قدرة الله تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن نواميس الكون تجري بإرادته لا بطبائعها، إذ هو ربُّ كل شيء وسيده ومليكه والمهيمن على شؤون عباده، يؤيد أولياءه، ويستجيب دعاءهم، وينصرهم على أعدائهم ويجعل العاقبة الحسنى لهم؛ ليثبِّت بذلك فؤاد رسول الله ومن معه من المؤمنين، إذ إنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى من غير أب، وأعطى إبراهيم ولداً وهو شيخ كبير من زوجته العجوز التي تجاوزت سنَّ اليأس ولا تحمل امرأة مثلها في العادة، كما أنه منح عبده الصالح زكريا ولده يحيى وكان زكريا قد بلغ من الكبر عتياً، أي قطع في الشيخوخة شوطاً كبيراً، وقد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً، وهو مظهر من مظاهر تحول الإنسان من القوة إلى الضعف على حد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: ٥٤] وعلى حد قول ابن دريد في مقصورته:

أمـا تـرى رأسـي حـاكـي لـونـه ... طُـرَّةَ صبـح تـحـت أذيـال الـدُّجـا

واشتعل المبيض في مسوده   مثل اشتعال النار في جمر الغضا

ومع أن زكريا قد صار إلى هذا الحال من الكبر فإن زوجته كانت عاقراً في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها وقد صارت عجوزاً تجمع بين السببين المنافيين للحمل عادة، والظاهر من سياق القرآن العظيم يشعر أن زكريا عليه السلام كان مشتغل القلب بذكر صلاح بني إسرائيل، وأنه كان يرى تعنتهم كشأنهم مع الأنبياء والمرسلين، وأنه كان يخشى أن يشتد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد وفاته، وقد وهن عظمه، وبلغ من الكبر عتياً، ولم ير في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعده، ونظراً إلى أن زوجته كانت عاقراً فمن غير المعتاد أن تلد مثلها، فاهتم بذلك اهتماماً شديداً، وقد كانت زوجته أخت مريم ابنة عمران والدة عيسى ابن مريم أو كانت خالتها، وقد مات والد مريم، وتخاصم بنو إسرائيل فيمن يكفلها بعد أبيها، واقترعوا على ذلك فوقعت لزكريا عليه السلام. فكفلها زكريا، ووضعها في قصره، وقد لاحظ عليه السلام أنه كلما دخل على مريم في مكانها من قصره ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وسرعان ما تداعت معاني هذه الحقيقة في نفسه مع ما يتمناه من أن يَمُنَّ الله عليه بولد صالح يسوس بني إسرائيل، وإن كانت أسباب ولادة ولدٍ له من زوجته الصالحة هذه مفقودة، فهو شيخ كبير وامرأته عاقر، غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرَّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولداً مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقال في دعائه: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، وقال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، وقد عودتني أن تجيب دعائي ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفت وأشفقت على بني إسرائيل أن يفسدهم من يتولى أمرهم من بعدي، وكانت امرأتي في شبابها عاقراً وأنت على كل شيء قدير، فهب لي من عندك وامنحني ولداً يرث النبوة والحكم من بعدي، كما يرث ذلك من آل يعقوب، واجعله رب رضياً، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سمياً، يكون مصدقاً بكلمة من الله

وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، قال: كيف يجيئني الولد وأنا وزجتي بهذا الحال، قال كذلك الله يخلق ما يشاء، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئاً، قد جئت إلى بطن أمك نطفة لا أثر فيها لصورة الإنسان.

فسأل الله ﷻ آية يعرف بها أن الولد قريب الحصول، قال: آيتك أن تعجز عن النطق لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سَويٌّ، فخرج على قومه من المحراب؛ فأشار إليهم أن سبحوا الله بكرة وعشياً، ومنحه الله يحيى، وسرعان ما شب يحيى عليه السلام وأعطاه الله الحكم صبياً، وتفضل الله عليه بمنح كثيرة، ومنحه السلام عند ولادته وعند موته وعند بعثه، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة مريم:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١ ـ ١٥].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣٧ ـ ٤٠].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن زكريا كان يحترف النجارة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كان زكريا نجاراً.

وقد وصف رسول الله ﷺ يحيى وعيسى بأنهما ابنا خالة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسْرِيَ به قال: **ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل، من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت، فردَّا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.**

هذا، وما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على المباشرة أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَحَصُورٗا﴾ [آل عمران: ٣٩] فهو قول لا دليل عليه، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معانٍ كثيرة، إذ يستعمل في الذي لا يقوى على قربان النساء وعلى الضيق الصدر، وعلى الذي يصون نفسه من الخطايا والدنس، وهذا الأخير هو اللائق بيحيى عليه السلام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❁ ❁ ❁



الفصل الثامن والستون

المسيح ابن مريم عليه السلام

نتحدث إليكم عن عبد الله ونبيه ورسوله، وأحد أولي العزم من المرسلين، المسيح عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، العبدِ المنعم عليه، المجعول مثلاً لبني إسرائيل، المخلوق من غير أب، الآية ابن الآية عليه الصلاة والسلام، ولما كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح ضلالاً كبيراً، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأن أمه زانية، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً، كما أن النصارى أفرطوا فيه فجعلوه ابناً لله، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وجاؤوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا، أن دعوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً؛ لذلك بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة أمه مريم العذراء البتول، الطيبة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، فذكر ما كان من أمها عندما حملت بها، وأنها نذرت لله ما في بطنها محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة وخدمة بيت المقدس، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، فلما ولدت، ورأت أن مولودها أنثى توجعت لفوات مقصودها، حيث إن الأنثى لم تجر العادة عندهم أن تتفرغ لخدمة بيت المقدس، فأظهرت ضراعتها لله، وقالت: رب إني وضعتها أنثى والأنثى ليست كالذكر في خدمة بيت المقدس مع يقينها أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم ما وضعت، وقد سمتها مريم، وطلبت من الله أن يعصمها ويحرسها ويحفظها ويصونها هي وذريتها من الشيطان الرجيم، وقد تقبل الله تبارك وتعالى من أم مريم بقبول حسن كريم وأنبت مريم نباتاً حسناً كريماً.

وقد كان عمران والد مريم الذي سميت سورة من القرآن العظيم باسم آله،

وهي سورة آل عمران، وليس له من آلٍ سوى مريم وابنها المسيح عليه السلام قد كان عمران هذا موصوفاً بالتقوى في بني إسرائيل، ومحبوباً لدى كُبَرائهم، كما كانت زوجته أمُّ مريم كذلك، وقد أشاد الله تعالى بذكرهم في الصالحين حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤] ونظراً لموت عمران هذا وحاجة مريم إلى من يقوم بكفالتها بعد أبيها، وقد ألقى الله محبتها في قلب كل من رآها، فرغب كلُّ واحد من كبراء بني إسرائيل في القيام بكفالتها، وتنازعوا في ذلك حتى اقترعوا أيُّهم يكفُل مريم، وكَفَّلها الله تبارك وتعالى نبي بني إسرائيل وقتئذٍ وهو زكريا عليه السلام، وكان زوجاً لأختها أو خالتها؛ فخرج السهم في الاقتراع له، فأمسكها في قصره. وجعلها تحت عنايته ورعايته، وقد لاحظ زكريا عليه السلام أنه كلما دخل عليها القصر وجد عندها ألواناً من الرزق، لم يجلبها له، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلاً: يا مريم أنّى لك هذ؟ أي من أين جاءك هذا الرزق؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولما اكتملت أنوثة مريم في طهارة وعفاف، وعبادة واستقامة، خاطبتها الملائكة لتثبيتها على أعلى درجات السلوك، وقالت لها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣] أي أديمي الخشوع له، واثْبُتي على طاعته، واسجدي واركعي له لِتَنْدَرجي في سلك عباده الصالحين القانتين الراكعين الساجدين، وقد ذكرت في الفصل الرابع والأربعين من هذا الكتاب أنه لا يلزم من مجيء الملك لعبد من عباد الله الصالحين أن يكون نبياً أو رسولاً، عند الكلام على معنى الوحي في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وضربت لذلك مثلاً بما ورد في الحديث المتفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في قصة الأعمى والأقرع والأبرص ومجيء الملك إلى كل واحد منهم، كما سُقْت الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الرجل الذي زار أخاً له في الله فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً... إلخ الحديث.

وبيَّنت أن من هذا النوع مخاطبة الملائكة لمريم أم المسيح عليه السلام، وفي قصة ميلاد مريم ونشأتها يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٤].

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا مسَّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها**». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه**» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها**».

وقد وصف الله تبارك وتعالى مريم بنت عمران بأنها صديقة حيث يقول عز وجل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وفي قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ إشارة إلى بشريَّتهما وأنهما ليسا إلهين؛ فالذي يأكل الطعام من شأنه أن يبول

ويتغوط، ومن كانت هذه حاله لا يليق بعاقل أن يجعله إلهاً، وقد جمع الله تبارك وتعالى في هذه الجملة الكريمة أشرف ما لعيسى وأمه من نعوت الكمال البشري. إذ أثبت لعيسى الرسالة ولأمه الصديقية، ثم ذكر الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر من أنهما يأكلان الطعام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع والستون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أكد الله تبارك وتعالى اصطفاء مريم حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومعنى قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك واجتباك وفضلك. وهذا يحتمل أن تكون أفضل نساء زمانها، كقوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وكما قال ﷻ في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، ويحتمل أن تكون أفضل نساء العالمين قاطبة، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون**».

كما روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده**»، يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط. وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء، ومريم لم تركب الإبل قط، فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضل مريم على خديجة رضي الله عنها بقرينة تقديم مريم عليها في

الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً كما هو مقرر في أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري ﷺ يحصر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية ﷺ، والعلم عند الله ﷻ.

وكما بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة مريم وتنشئتها كما ذكرت في الفصل السابق فقد بسط الله تبارك وتعالى قصة حمل مريم بالمسيح ﷺ في غير موضع من كتابه الكريم، فذكر بشارة الملائكة لمريم بالمسيح ﷺ، وأنه كلمة من الله، أي تحبل به من غير أب، بل بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون؛ ليكون آية على أن الله لا يعجزه شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وقد يقترن أمر الله الكوني بسبب من الأسباب كحمل جميع النساء المعتاد. وقد لا يقترن بالسبب كخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وكخلق حواء من ضلع آدم بلا أم؛ ولذلك قال في عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وذكرت الملائكة لمريم في بشارتها بالولد أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فينسب إلى أمه؛ لأنه لا أب له، وأنه روح من الله، أي من الأرواح التي ابتدأ الله تعالى خلقها كما يشاء، وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، أي يكون المسيح ﷺ له مكانة ووجاهة عند الله، وعند الناس في الدنيا والآخرة، ويكون من الذين أخلصهم الله تعالى لعبادته وحده لا شريك له، وقربه وأعلى منزلته، ويتكلم وهو في المهد، أي في فراش ولادته، فيقر بطهارة أمه وعفافها وأنه عبد الله، وأن الله قدر إيتاءه الإنجيل، وقدر نبوته وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في دار التكليف، وأنه يكون باراً بوالدته ولن يكون جباراً شقياً، وأن السلام عليه يوم ولادته ويوم موته ويوم يبعث حياً، كما أنه يدعو بني إسرائيل إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده في وقت كهولته، وريعان شبابه، واكتمال قوته.

وكما وصف الله تبارك وتعالى مجيء جبريل إلى مريم بالبشارة بهذا الولد

وأنها كانت وقتها قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أي انفردت وحدها شرقيَّ المسجد الأقصى أو شرقي منزل أهلها لقضاء حاجة من حوائجها الخاصة بها التي لا تحب أن يراها عليها أحد من خلق الله، فجاءها الروح الأمين جبريل ﷺ في صورة رجل صبيح جميل مكتمل، فلما رأته مقبلاً عليها وهي على هذه الحالة قالت له: إني أعوذ بالله وأستجير به وألتجئ إليه من أن ينالني منك أذى، إذا كان عندك خوف من الله فاطر السموات والأرض المنعم المتفضل على عباده فلا تقترب مني، ولا يحفظني ويعصمني منك إلا أرحم الراحمين، فأخبرها جبريل أنه رسول ربك وسيدك ومالكك مصلح ما في السموات وما في الأرض فلا تخافي مني، ولست بشراً، وإنما أنا ملك بعثني الله إليك لأنفخ فيك لتلدي غلاماً زكياً، قالت: كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد وأنا لست متزوجة ولا منحرفة، فأجابها جبريل ﷺ عن تعجبها من وجود ولد منها وهي على هذه الحالة فقال لها: كذلك قال ربك. أي قدر أنه سيكون منك غلام ولست بذات بعل ولا منحرفة، وأن هذا هين على الله وسهل عليه ويسير لديه، فهو على كل شيء قدير، وليكون ولدك آية للناس ودليلاً جلياً وبرهاناً قاطعاً على كمال قدرة الله على كل شيء، وأنه آية من آيات الله على إقامة الخلائق وبعثهم يوم القيامة، وهو علم للساعة، كما أنه رحمة من الله يرحم بها العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره وطفوليته وكهوليته، ويدلهم على مراسيم سعادتهم في الدنيا والآخرة والعاجلة والآجلة، حتى ينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك والند والضد والنظير. وكان أمر الله مقضياً، وحتماً كائناً لا محالة.

فنفخ جبريل نفخة دخلت في فرجها، فحملت بالمسيح ﷺ، غير أنها لما حملت بدأت تضيق ذرعاً لعلمها أن الناس سيتهمونها بالانحراف، ويقعون في عرضها، ولا يصدقونها فيما تخبرهم به من واقع الحال، ولما جاء وقت ولادتها أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، أي ألجأها واضطرها الطلق ووجع الولادة إلى أن تجيء إلى جذع النخلة؛ لتستتر به ولتحتضنه لتقوى على الوضع، وقالت وهي في كَرْبها: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، وليس هذا جزعاً من

قضاء الله، ولكنها كربة النفاس مع كربة ما تعرفه من سفاهة المكذبين بآيات الله، وماذا سيقولون عنها، والوقوع في الأعراض الكريمة أشد عليها من الموت، وقد قرئ: نِسْياً منسياً، وقرئ نَسْياً منسياً، وهما بمعنى واحد كالوَتر والوِتْر، والنِسْيُ المنسي هو ما يُرْمى به من خرق الحيض وقطع الحبل ونحوهما مما يُترَك ولا يلتفت إليه لحقارته، وعندما وضعت مريم المسيح ﷺ ناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن مريم عندما وضعت المسيح عليه السلام ناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وقد قرئ في السبعة بفتح الميم من (مَنْ) وكسرها أي قرئ فناداها مِنْ ﴿تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وقرئ: فناداها مَن ﴿تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦]، والذي نادى مريم هو جبريل عليه السلام وكان في مكان أسفل منها، وقيل هو عيسى عليه السلام والأول أظهر، والسَّرِي هو النهر، قال في المصباح: السري: الجدول وهو النهر الصغير، وقال في الصحاح في السَّرِي: نهر صغير كالجدول، وقال في القاموس المحيط: وكغَنِيٍّ، نهر صغير يجري إلى النخل، قيل: وسمي النهر سرياً لأن الماء يسري فيه. وقيل: المراد بالسري هنا هو السيد الشريف، والمراد به عيسى عليه السلام، قال ابن كثير رحمه الله: والصحيح الأول لقوله: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾. ا. هـ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] دليل على أنه ينبغي للإنسان الصالح أن يأخذ بالأسباب مع توكله على الله ولا يتواكل، وقد أُمِرت مريم بهز جذع النخلة مع ما هي فيه من حالة النفاس والولادة؛ لما يجلبه لها ذلك من نسيان أحزانها وآلامها التي تتوقعها من ملاقاة قومها؛ علماً بأن الله كان يسوق لها الرزق في أول حياتها من غير سبب، كما أن قدرتها على هز الجذع محدودة، فعليها أن تهز الجذع وعلى الله إسقاط الرطب.

ومعنى قوله: ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦] أي طيبي نفساً، فلا تجعلي للحزن إلى نفسك سبيلاً، وأمرها كذلك أنها إذا رأت بشراً تمتنع عن الكلام وتفهمه بالإشارة أو نحوها أنها نذرت للرحمن صوماً أي إمساكاً عن الكلام فلن تكلم اليوم إنسياً، فاطمأن خاطرها، وأكلت من الرطب الجني، وشربت من السري، وقرت عينها بمولودها، فجاءت به إلى قومها وهي تحمله، فلما رأوها تحمله وعليها آثار وضعه قالوا: يا مريم لقد ارتكبت أمراً منكراً فظيعاً، وفعلت فاحشة بشعة، كيف ترتكبين جريمة الزنا يا أخت هارون وأنت ابنة عمران الصالح وأمك كانت من الصالحات؟ وقولهم لها: يا أخت هارون: يحتمل أنه كان رجلاً صالحاً في زمانها من أهلها، وكانت تُشبَّهُ به في الصلاح والعبادة قبل مجيئها بعيسى، أو أنه كان رجلاً فاسداً معروفاً لديهم بالانحراف فشبهوها به، والظاهر الأول؛ لما رواه مسلم في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون؟ يا أخت هارون. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم**؟» وهذه الشبهة الداحضة التي أثارها بعض نصارى نجران ونسب إلى محمد بن كعب القرظي الإسرائيلي أنه زعم أن مريم أم المسيح هي أخت موسى وهارون عليهما السلام، وهذا من أفحش الخطأ الذي نسب إلى محمد بن كعب القرظي، ولا يزال يشبه بها بعض أعداء الإسلام على بعض الأغرار في بعض البلدان المحاربة للإسلام إلى اليوم، ولما أشارت مريم إلى طفلها المسيح عليه السلام ازدادوا استغراباً واستنكاراً وقالوا لمريم: «كيف نكلم من كان في المهد صبياً، فنطق عيسى عليه السلام وتكلم بما يقطع ألسنة أعداء الله وأعداء المرسلين، وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] أي قضى وحكم بأن ينزل عليَّ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

فأقر بالعبودية لله وحده ونَزَّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله. بل هو عبده ورسوله وابن أمته البتول الطيبة الطاهرة، وبرَّأ أمه مما نسبها إليه الحاقدون والجاهلون وقذفوها به، إذ كان نُطْقُهُ وجوابه تبرئة لها من كل بهتان.

وفي قصة حمل مريم بالمسيح عليه السلام وولادته يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٩].

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٦ ـ ٣٣].

ويقول تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ويقول تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الحادي والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى أن الملائكة عندما بشَّرت مريم بولد ذكرت لها أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وبهذا الاسم يتميز مسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عِبراني ومعناه المبارك، وقيل: إنما سُمي مسيحاً لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين أي لا أخمص لهما، وقيل: لأن الله مسحه أي خلقه خلقاً مباركاً حسناً، وقيل: هو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيها للدعوة، قال في القاموس المحيط في مادة ساح: والسياحة بالكسر والسُّيُوح والسَّيحان والسَّيْحُ الذهاب في الأرض للعبادة، ومنه المسيح ابن مريم، وقد ذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لصحيح البخاري وغيره.ا.هـ.

وقال في مادة مَسَحَ: والمسيح عيسى ﷺ لبركته، وذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لمشارق الأنوار وغيره.ا.هـ. وقال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن سيده: والمسيح عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليهما، قيل: سُمِّيَ بذلك لصدقه وقيل: سُمي به؛ لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر.ا.هـ. وقيل: سمي المسيح مسيحاً؛ لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، كما سمي الدجال مسيحاً؛ لأنه كان ممسوح العين.

وسيقتل مسيحُ الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الدجال كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الزمان، أما عيسى عليه السلام فقيل: هو اسم غير مشتق، وهو اسم عِبراني أو سرياني، وقد حرَّفه المحرفون وقلبوه وقالوا: يسوع، وقيل: هو مشتق من العِيس وهو بياض تعلوه حمرة، وتسمى الإبل البيض التي يخالط بياضها شقرة عيساً.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه هيَّأ لعيسى عليه السلام وأمه ربوةً ذات قرار ومعين فنزلاها وسكنا فيها، والربوة المكان المرتفع، ومعنى كونها ذات قرار أي مستويةً يستقر عليها ساكنوها، والمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، ولم يرد في خبر صحيح تحديد مكان هذه الربوة، وبعض الناس يقول: إنها بيت المقدس، وبعضهم يقول: إنها غوطة دمشق وما حولها، وبعضهم يقول: إنها فلسطين، وبعضهم يقول: إنها أرض الفيوم في مصر، والعلم في ذلك عند الله عز وجل، والمقصود أن الله تبارك وتعالى يسر لهما الإقامة الآمنة والمنزل الصالح، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى عليه السلام تعلم الكتابة ومنحه الله عز وجل الحكمة والفقه في التوراة، وعندما بلغ أشده بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، فيه هدى ونور وموعظة للمتقين، وبشارة بسيد المرسلين، وقد أمره الله عز وجل أن يطلب من بني إسرائيل أن يحكموا بالإنجيل، وقد أيَّد الله تبارك وتعالى عيسى بالمعجزات الحِسيَّة الباهرة، والآيات الظاهرة القاهرة، الشاهدة بأنه رسول من رب العالمين، فجاء عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل وأخبرهم أنه رسول الله وأنه عبده، وقد آتاه الإنجيل، وأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأعلمهم أنه قد جاءهم بآيات من ربهم تتمثل في خمس آيات حسيَّة وهي:

أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، أي يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير بإذن الله وهم ينظرون إليه ويشاهدونه بأعينهم، وقد أذن عز وجل لعيسى عليه السلام في تصوير صورة الطير من الطين والنفخ فيه ليطير بإذن الله لتكون هذه المعجزة آية ظاهرة على أنه رسول من رب العالمين.

أما الآية الثانية: فهي أنه يُبرئ الأكمه بإذن الله؛ والأكمه هو من ولد ممسوح العينين لا حدقة لعينه، وإبراؤه ليبصر لا طاقة لأحد من الأطباء قديماً وحديثاً عليه، فهي من أظهر المعجزات الحسية التي لا قدرة للبشر عليها.

والآية الثالثة: هي إبراءُ وشفاءُ الأبرص بإذن الله، والبرص داء معروف، وهو بياض يعتري جلد الإنسان يعجز نُطُسُ الأطباء عن علاجه قديماً وحديثاً.

والآية الرابعة: هي إحياء الموتى بإذن الله، وهذه الآيات الأربع لا قدرة لأحد من البشر عليها في قديم الزمان وحديثه، وقد أشرت في الفصل الواحد والخمسين من هذا الكتاب عند الحديث عن معجزات موسى عليه السلام بأنه قد جرت السُّنَّة الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، وليعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر، ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكما أرسل عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥١]، قال رحمه الله: قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحرُ وتعظيمُ السحرة، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيَّرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد... إلخ.

أما الآية الخامسة من الآيات الحِسيَّة التي أيَّد الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى عليه السلام فهي أنه يخبرهم بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم، أي يقول لأحدهم: أنت أكلت اليوم كذا، وتدخر في بيتك لغدك كذا، مما يقطعون بأنه لا علم لغيرهم به، وقد أخبرهم عيسى عليه السلام بأن هذه آية من الله ينتفع بها من يشرح الله صدره للإيمان، وأن عيسى عليه السلام يؤمن بما سبقه من الكتب السماوية، ويصدق ما في التوراة، وأن شرعه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم في شريعة موسى عليه السلام، وأنه يشرح لهم الوجه الصحيح فيما يختلفون فيه من المسائل ويبين لهم الحق، والصواب فيما اختلفوا فيه، وأنه مؤيَّد من الله، ثم جَرَّدَ لهم ما يدعوهم إليه وهو إخلاص العبادة لله وحده وامتثال ما يشرعه الله لهم على لسانه عليه السلام، وطالبهم بتقوى الله فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠ ـ ٥١].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أشرتُ في الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى بعث عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل وآتاه الإنجيل وأيّده بخمس معجزات حسية ظاهرة قاهرة، وأن عيسى عليه السلام طلب من بني إسرائيل أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويتقوه ويطيعوا عيسى ﷺ، وأخبرهم أنه مصدق بما بين يديه من التوراة، وأنه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وأنه يبين وجه الصواب فيما يختلفون فيه، وقد أرشدهم إلى أن هذا هو الصراط المستقيم، فمن سلكه فاز في الدنيا والآخرة، ومن كذب به خسر الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة آل عمران عن عيسى عليه السلام، بعدما ذكر أنه يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل قال:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١].

ويقول ﷻ في سورة المائدة: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ صريح في أن الله

تعالى أذن لعيسى عليه السلام في تصوير صورة الطيور من الطين، كما أن نفخه فيها لتحلها الحياة وتطير إنما كان بإذن الله كذلك، تأييداً لعيسى وتصديقاً له ﷺ، والله يفعل ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وفي ذلك كله إشارة إلى أن عيسى عبد من عبيد الله، يأتمر بأمر الله وينتهي بنهيه، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل، وقد أنذر عيسى عليه السلام قومه من الشرك بالله وخوَّفهم من عقوبته، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

كما أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل في غير موضع من كتابه الكريم، حيث ذكر أنه قفَّى بعيسى عليه السلام على آثار الأنبياء أي أتبعهم بعيسى عليه السلام، وجعله تابعاً لهم أي متأخراً عنهم في الزمان، حيث يقول عز وجل في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٥ ـ ٢٧].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أنه أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بينه وبين محمد رسول الله ﷺ نبي، فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عَلَّات ليس بيني وبينه نبي**»، كما روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»، كما روى مسلم في صحيحه من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة**» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «**الأنبياء إخوة من عَلَّات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي**». وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علَّات، وليس بيني وبين عيسى نبي**»، ومعنى قوله في الحديث: «**أولاد علات**» أو «**إخوة من علات**»، هم الإخوة لأب من أمهات شتى، أما الإخوة الأشقاء أي من الأبوين، فيقال لهم أولاد الأعيان أو الإخوة الأعيان، ومعنى أن الأنبياء أولاد علات أو إخوة من علات وأمهاتهم شتى أن دين جميع الأنبياء أصوله واحدة في التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت وسائر الوصايا العشر الواردة في قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

وقد أشار رسول الله ﷺ بقوله في الحديث: «**وأمهاتهم شتى**» إلى أن الله تبارك وتعالى شرع لكل أمة من أمم الأنبياء منهاجاً في الفروع يلائم زمانها

ومكانها على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولذلك كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة إلا سيد المرسلين وإمام المتقين محمداً ﷺ فقد بعثه الله إلى الناس كافة، بل عم برسالته الإنس والجن، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال في أول سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُعطيت خمساً لم يُعْطَهنَّ أحد من الأنبياء قبلي، وذكر فيهم: وكان النبي يُبعث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامة»**.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

بعث الله عز وجل عبده ونبيه ورسوله عليه السلام بالإنجيل، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل بأنه فيه هدى ونور، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنه هدى وموعظة للمتقين، والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة، وقد أطلقه الله تبارك وتعالى على كتابه المنزل على عيسى عليه السلام، بَيْدَ أنَّ هذا الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لا وجود له عند النصارى، ولم يذكر أحد من علماء النصارى أو غيرهم أنه رأى نسخة كاملة منه، ويبدو أن عيسى عليه السلام لم يكتبه وإنما كان يبشر به في بني إسرائيل، وقد ورد ذكره في الكتب التي أُلِّفت بعد رفع المسيح عليه السلام والتي سمَّاها أصحابها الأناجيل، فقد ذكره متَّى في إنجيله في الإصحاح الرابع منه، إذ يقول: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعيف في الشعب»، فكلمة بشارة الملكوت التي وردت في هذه الفقرة هي الإنجيل، إذ إن معنى الإنجيل هو البشارة، كما ذكره مرقص في إنجيله في الإصحاح الأول منه إذ يقول: وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكْرزُ ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

وقد زعم بعض الناس أن الإنجيل كان مقتصراً على البشارة خالياً من الأحكام؛ مدعياً أن عيسى عليه السلام كان يقتصر على ما في التوراة من الأحكام، وهذا قول فاسد كاسد عاطل باطل، فقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم بما يقضي أن الإنجيل كتاب أحكام، وإن كان يشتمل على البشارة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، بيد أنه لقربه من زمان رسول الله محمد ﷺ تجلت

البشارة فيه برسول الله ﷺ وإن كان كل نبي من أنبياء الله تعالى بشَّر أمته بمحمد صلوات الله وسلامه عليه للميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء بتأييد محمد ﷺ حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد وصف الله تبارك وتعالى مقاماً من مقامات عيسى عليه السلام بما يُفيد أنه قام خطيباً في بني إسرائيل يخبرهم أنه رسول من الله يبشرهم بمحمد رسول الله ﷺ الذي يأتي بعده، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ورسول الله ﷺ له أسماء، منها: محمد وأحمد، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميَّ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً**». وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يُمْحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عَقبي، وأنا العاقب؛ والعاقب الذي ليس بعده نبي...**». ولفظ محمد أو أحمد هو معنى المنحمنا أو الفارقليط الوارد في الكتب التي بيد النصارى في بشارة عيسى عليه السلام التي يُخبر فيها بأنه سيقيم حتى يأتي المنحمنا وفي بعض التراجم: حتى يأتي الفارقليط، والمنحمنا أو الفارقليط هو المحمود الحمد الكثير، وهو معنى أحمد أو محمد وهو إشارة إلى أن شريعة عيسى عليه السلام تستمر حتى تنسخها شريعة محمد ﷺ.

ولا شك أن علماء أهل الكتاب عموماً كانوا يعرفون صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، ووصفهم له لأممهم حتى يؤمنوا به إذا جاء، ومن صفاته عندهم أنه يبعث بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، وأنه

يخرج بأرض العرب، وأنه يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة.

وفي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى أنزل عليه توراة وأجعل كلامي على فيه.

ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن العظيم والذكر الحكيم، الباقي محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضاً في وصف رسول الله ﷺ في التوراة: تجلى الله أو جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى أو استعلن من جبال فاران. وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طور سيناء وبشارة بعيسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه الوحي في جبال ساعير من أرض الجليل بقرية تدعى الناصرة، ويقال لها أيضاً: نصرانة التي سُمي من ينتمي إلى المسيح عليه السلام بها، فيقال لهم: النصارى. وقوله: واستعلى أو استعلن من جبال فاران أو من برية فاران بشارة واضحة جلية بمحمد ﷺ الذي أنزل تعالى عليه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب.

وهذه البشارة الواردة في التوراة تطابق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣] فالتين والزيتون جبلان بالأرض المقدسة من الشام، بعث الله تعالى عندهما عيسى عليه السلام، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآتاه فيه التوراة، والبلد الأمين هو مكة المكرمة قدَّسها الله. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: وجدت في التوراة في صفة النبي محمد ﷺ يقول الله سبحانه: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيوناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غُلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

والمراد بالتوراة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في هذا المقام هو بعض كتب العهد القديم، إذ يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم التي تشمل التوراة بأسفارها الخمسة، وتشمل كذلك نبوات بعض الأنبياء، كما أن النصارى يطلقون اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم وعلى الأناجيل أيضاً، وإن كان الأصل في كلمة التوراة أنها خاصة بكتاب الله تعالى المنزل على موسى عليه السلام الذي ألقاه الله إليه مكتوباً في الألواح.

وفي تواتر صفات محمد ﷺ عند علماء أهل الكتاب يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

عَرَضَ المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام دعوته المشرقة على بني إسرائيل وأظهر لهم من الآيات والمعجزات ما مثله آمن عليه البشر، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**. وقد لقي المسيح عليه السلام من بني إسرائيل عنتاً وأذى بالرغم من علمهم بأن في وصايا أنبياء بني إسرائيل السابقين أن سيجيء لبني إسرائيل مسيح، غير أنهم كفروا بهذا المسيح الحق، وزعموا أنه ليس مسيحهم المنتظر، فكفروا بعيسى عليه السلام، ولا شك أن المسيح الذي سيسارع اليهود إلى اتباعه هو مسيح الضلالة الدجال، ولذلك قضى الله عز وجل أن مسيح الهدى عيسى ابن مريم ينزل آخر الزمان عند ظهور مسيح الضلالة الدجال؛ فيقتله ويقتل أتباعه من اليهود عليهم لعائن الله.

وقد آمن بعيسى عليه السلام طائفة من بني إسرائيل وصار منهم حواريون للمسيح عليه السلام، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«إن لكل نبي حواريَّ، وإن حواريَّ الزبير بن العوام»**، والحواري في الأصل هو الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القصَّار؛ لأنه يحوِّر الثياب أي يبيِّضها.

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسمى الحواريون لبياض ثيابهم؛ وقيل حواري الرجل خاصته، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر أن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الحواريين في محكم كتابه الكريم في

مواضع، فذكر ما ألقى الله ﷻ في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام ونصرته وتصديقه فيما جاء به عن ربه ﷻ حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] في هذه الآية المباركة هو ما ألهمهم به وقذف في قلوبهم من تصديق عيسى عليه السلام ونصرته، ولا شك أن الحواريين ليسوا بأنبياء، وليسوا بمعصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله ﷻ عنهم أنهم قالوا لعيسى عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، فخوَّفهم عيسى عليه السلام من مغبة هذا السؤال، وأمرهم بتقوى الله، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات؛ لأن سنته جرت أن من اقترح على الله آية ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى عليه السلام الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية، وأن يعلموا أن الله لا يُعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى عليه السلام أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية، ويزدادوا علماً بأن عيسى عليه السلام قد صدقهم، ويكونوا عليها من الشاهدين، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخفُّ من سؤال أصحاب موسى عليه السلام إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقد رأى عيسى عليه السلام أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً وفرحاً ومسرَّة للمؤمنين في عاجلتهم، وينتفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله رب كل شيء وسيده ومليكه، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فأخبر الله عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذاباً لم يعذب مثله في شدته

أحداً من العالمين، والمائدة هي الخُوَانُ عليه طعام، فإذا لم يكن على الخُوان طعام فإنه لا يسمى مائدة، والأصل في الخُوان أن يتخذ من الخشب وينصب على قوائم. فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة، وقد أثر أن رسول الله ﷺ لم يأكل على خوان قط. وهي الشيء المرتفع عن الأرض بقوائمه، وإنما كان يأكل على السفرة ﷺ؛ لأنها عادة العرب، كما أن الخوان من عادة العجم، وقد تسمى السفرة مائدة.

وفي قصة المائدة يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥]، وقد سميت السورة كلها باسم المائدة، وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل؛ لأن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصريح القرآن شاهد على نزولها لقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا إخبار بنزولها، وتأكيد بأنه برهان قاطع على نزولها. والعيد يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع، قال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأعرابي سُمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجددٍ. ا. هـ.

هذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفة المائدة المنزلة على عيسى عليه السلام والحواريين وفيما احتوته هذه المائدة من ألوان الطعام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الخامس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى عليه السلام، وعلى رأس هؤلاء الحواريون رضي الله عنهم كما تقدم، وقد كَفَرت طائفة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ووصفوه بأنه ساحر وتعاونوا مع الرومان الوثنيين الذين كانوا يحكمون فلسطين وقتئذٍ ضد عيسى عليه السلام. فلقي من عنتهم وأذاهم ومكرهم هو والذين آمنوا معه ما لا يعلمه إلا الله، مثل ما لقي إخوانه من أولي العزم من المرسلين، وقد عدَّه الله تبارك وتعالى في شيوخ المرسلين الخمسة الكبار، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حيث يقول عز وجل في كتابه الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وكما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقد اندهش بعض الناس من الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وجعل الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيطير، فحسبوا أن ذلك يُشعر أن عيسى فوق البشر وليس منهم، مع أنه كان ينبه عند هذه الآيات أنها بإذن الله، وأنها معجزات من الله تعالى لتأييده، وقد أشار إلى ذلك برنابا في إنجيله الذي ألَّفه للرد على من حرَّف دين المسيح عليه السلام بعد رفع المسيح ابن مريم، إذ يقول برنابا في الإصحاح الثالث والتسعين من إنجيله: أجاب الكاهن: إن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك، حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس فنرجوك من كل

قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك؛ لأن فريقاً يقول: إنك الله، وآخر يقول: إنك ابن الله، ويقول فريق: إنك نبي. أجاب يسوع: وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تُخْمِد الفتنة وهل جُنِنْتَ أنت أيضاً؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان. ولما قال يسوع هذا عاد فقال: إني أشهد أمام السماء وأُشْهِدُ كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر؛ لأني بشر مولودٌ من امرأة، وعُرْضة لحكم الله أعيش كسائر البشر. وبرنابا مؤلف هذا الإنجيل وصف في الإصحاح الرابع عشر منه بأنه أحد الحواريين الاثني عشر، كما وصف في رسالة منسوبة إلى لوقا أحد مؤلفي الأناجيل المسماة بأعمال الرسل بأنه من الرسل، أي من المبعوثين الذين كان يبعثهم عيسى عليه السلام للدعوة في نواحي الجليل وغيرها، فلوقا يقول في هذه الرسالة: ويوسف الذي دُعي من الرسل برنابا الذي يترجم بابن الوعظ، وهو لاوي قبرصي الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل.

وقد كان عيسى عليه السلام صبوراً على الأذى، حريصاً على هداية قومه، بشوشاً، شديد التعظيم لأمر الله عز وجل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني**»، وقد ضاق به اليهود والرومان الوثنيون ذَرعاً، وتمالؤوا عليه، فلما أحس عيسى منهم الكفر واستشعر منهم التصميم على العناد والاستمرار على الضلال ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣]، وكما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقد همَّ اليهود والرومان بالفتك بالمسيح ابن مريم عليه السلام وعزموا على قتله،

فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظَفروا به نجَّاه الله تبارك وتعالى من شرهم وكيدهم، فألقى شَبَهَهُ على شخص من مبغضيه فحسبوه عيسى عليه السلام فأخذوه وقتلوه وصلبوه، أما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه وخيَّب مكر الماكرين، وردَّ كيد الكافرين وفي ذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٧].

وهكذا قضى الله عز وجل أن ينصر رسله والمؤمنين، وأن يُخزي أعداءه الكافرين، وقد نصَّ الله عز وجل على أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، وإنما شبه لليهود، وفي ذلك يقول: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من به أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلبُ أو يقتلُ. وقد جاء في إنجيل متى وإنجيل مرقص النص على أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح السادس والعشرين من سفر متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحدٌ من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبِّله هو هو. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحد من الاثني عشر ومعه جمع

كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلِّمهُ قد أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو أمسكوه وامضوا به بحرص.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الذين أرادوا قتل المسيح وصَلْبَه ما كانوا يعرفونه، وسقت من إنجيل متى وإنجيل مرقص النص على ذلك. وقد جاء كذلك في الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن الله أوقع الشك حتى في قلوب أصحاب عيسى عليه السلام في ذات المسيح، فصاروا يترددون هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره، وقد كان بين المسيح عليه السلام وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليسلمه لليهود والرومان شبهٌ كبير؛ فصاروا لا يدرون عن الذي أخذ أهو المسيح أم يهوذا الإسخريوطي، وقد نقلت الأناجيل الأربعة قول المسيح عليه السلام لأصحابه ليلة عزم أعدائه على تبييته «كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة» كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح؛ لأنه أُلقِي عليه شَبَهُهُ، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خَلقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم (السيرنثيون والكوبوكراتيون) أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً.ا.هـ.

والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فُقِدَ بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وإن كان النصارى اختلفوا في قصة نهايته؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح السابع والعشرين في الفقرة الرابعة منه عن يهوذا الإسخريوطي أنه مضى وخنق نفسه، وقد تناقضت رسالةُ أعمال الرسل مع إنجيل متى في نهاية يهوذا

الإسخريوطي، فقد جاء في الإصحاح الأول في الفقرة الثامنة عشرة من رسالة أعمال الرسل التي ألفها لوقا صاحب الإنجيل عن يهوذا: فإن هذا اقتنى حقلاً من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط انسبكت أحشاؤه كلها.

وهذا التناقض بين إنجيل متى ورسالة أعمال الرسل (والنصارى يقدسون هذين الكتابين) أقول: هذا التناقض دليل عدم معرفة مآل يهوذا الإسخريوطي، وهو برهان ساطع على أن المصلوب بيد اليهود والرومان لم تكن شخصيته معلومة علم اليقين عند هؤلاء، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وقد التبس الأمر على اليهود والنصارى والرومان، ووقعوا في الشك والحيرة والتردد: أكان المصلوب عيسى أم غيره، فبعضهم كان يقول: هو هو يسوع، وبعضهم يقول: إنه غيره؛ وذلك بسبب شبه يهوذا الإسخريوطي بعيسى عليه السلام، أضف إلى ذلك أنه كان معه شخص آخر هو باراباس، وقد جاء في إنجيل متى في الفقرة السابعة عشرة من الإصحاح السابع والعشرين: ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع الذي يُدْعى المسيح.ا.هـ.

وقد رفع الله تبارك وتعالى المسيح ابن مريم إليه وخلَّصه من بني إسرائيل الكافرين الحاقدين الحاسدين، وفي ذلك يقول عز وجل في سورة آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ويقول في سورة النساء: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إليه بجسده وروحه، ويفسرون التَّوَفِّي في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ بأنه إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء على حدِّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ينيمكم بالليل ويعلم ما اكتسبتم من أعمال بالنهار.

وخص النوم بالليل والاكتساب بالنهار؛ لأن ذلك هو الأصل الملائم لطبيعة الإنسان، وقد لا ينام الإنسان بالليل ولا يكتسب بالنهار، إلا أن ذلك مضر بفطرته وقوام نفسه، وقد ذهب عامة أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وأنه ينزل في آخر الزمان عند ظهور المسيح الدجال فيقتله باللُّد من أرض فلسطين، ويقتل من معه من اليهود، ويريق الخمر ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام، وفي زمن نزوله يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، وأن عيسى عليه السلام يضرع إلى الله ويدعوه أن يُهْلِكَ يأجوج ومأجوج فيستجيب الله له، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان من أمارات الساعة حيث يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] على قول لأهل العلم من أهل التفسير والتأويل. أي إن نزول المسيح عليه السلام علامة من علامات قرب الساعة، أو إن إيجاد عيسى عليه السلام من غير أب دليل على أن الله قادر على كل شيء، وأنه برهان على قدرة الله على إحياء الموتى وبعث الناس يوم القيامة، كما ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] يعني أن جميع الكفار من اليهود والنصارى عندما يأتيهم الموت وينقطعون عن الدنيا يعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لم يقتل ولم يصلب، ويصدقون أن الله رفعه إليه وصانه من مكر اليهود وكيدهم، وأنه ليس إلهاً ولا ابن إله كما يزعم النصارى عليهم وعلى اليهود لعائن الله والملائكة والناس أجمعين.

وهذا الإيمان عند معاينة الموت لا ينفعهم، وأكثر المفسرين أرجع الضمير في «موته» إلى عيسى عليه السلام، وأنه عند نزوله يؤمن به البر والفاجر ويسارعون إلى تصديقه، وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] قد سيق في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصَلْبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجاهلين أن عيسى قُتل وصُلب. فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس كذلك وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك بل رفعه الله إليه وهو حي وأنه سينزل قبل القيامة.

ونزول المسيح عليه السلام آخر الزمان من عقائد أهل السنة والجماعة التي لا يزيغ عنها إلا ضال هالك، فقد روى البخاري ومسلم من عدة طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها»** ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنينهما»**، أي أو ليقرنَنَّ بينهما، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم»** كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوْا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نُخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقْتل ثُلُثُهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلثُ لا يُفْتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعِدُّون للقتال يُسَوُّون الصفوف إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»**.

وقوله: **«إن المسيح قد خلفكم»** يعني به الدجال، وقوله: **«فَأَمَّهُم»** يعني قصد المسلمين للاقتداء بإمامهم في الصلاة، أو قصد الدجال وعصابته لقتلهم وإهلاكهم، والأول أظهر لقوله في رواية البخاري ومسلم المتقدمة: **«وإمامكم منكم»**، كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تزال**

طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: «**فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا، فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**».ا.هـ.

وهذا دليل على أن الله يحفظ لهذه الأمة دينها من التبديل والتغيير إلى آخر الزمان، حتى ينزل المسيح ابن مريم فيحكم بشريعة محمد ﷺ.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

إليكم جملة أخرى من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ في نزول المسيح ابن مريم عند ظهور المسيح الدجال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداةٍ فخفض فيه ورفع حتى ظَنَنَّاه في طائفة النخل، فلما رُحْنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله! ذكرت الدجال غداةً فَخَفَّضتَ فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «**غَيْرُ الدجال أخْوَفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌّ قَطَطٌ، عينه طافية، كأني أُشبِّهُهُ بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فيقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاثَ شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا**»، قلنا: يا رسول الله! وما لَبْثُهُ في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**»، قلنا: يا رسول! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا. اقْدُرُوا له قَدْرَهُ**»، قلنا: يا رسول الله! وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كان ذراً وأسبغَهُ ضروعاً، وأمدهُ خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمْحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرُّ بالخَرِبَة فيقول لها أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمْيَةَ الغرضِ، ثم يدعوه فيُقبل ويتهلل وجهُهُ يَضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة**

البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرودتين، واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جُمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يَجدُ ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونفَسُهُ حيث ينتهي طرفُهُ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسحُ عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي، لا يَدَانِ لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فَيَمُرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويَمُرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبَل الخَمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنُشَّابهم إلى السماء، فيردُّ الله عليهم نُشَّابَهُم مخضوبةً دَماً، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله. فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى كموت نفسٍ واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأهُ زَهَمُهُم ونَتَنُهُم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيُرسِلُ الله طيراً كأعناق البُخْتِ، فتحملُهم فتطرحُهم حيث شاء الله، ثم يرسلُ الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغسِلُ الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة، ثم يقال للأرض: أَنْبِتي ثَمَرَتَكِ، ورُدِّي بَرَكَتَكِ، فيومئذٍ تأكلُ العِصَابةُ من الرمانة، ويستظلون بقحْفِها، ويبارك في الرِّسْل، حتى أن اللِّقْحة من الإبل لتكفي الفِئامَ من الناس، واللِّقحَةَ من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخِذَ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبِضُ روحَ كلِّ مؤمن وكلِّ مسلم، ويبقى شِرارُ الناس يتهارجون فيها تهارُجَ الحمُرِ فعليهم تقوم الساعة».

وقوله في الحديث: «**فخَفَّضَ فيه ورَفَّع**» أي حقَّر فيه وفخم، أو خفَّضَ من صوته بعد طول الكلام ليستريح، ثم عاد فرفع صوته ليُبلغ كلَّ المستمعين له. وقوله: «**حتى ظَنَنَّاه في طائفة النخل**» أي في غاية القرب منَّا، وأنه قريب الظهور.

وقوله: فلما رُحْنَا إليه، أي رجعنا إلى مجلس رسول الله ﷺ في العَشِيِّ إذ كان حديثه ﷺ عن الدجال في الصباح، وقوله: «**إنه شاب قَطَطٌ**» أي شديد جُعُودَة الشعر، وقوله: «**إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق**» أي في طريق بينهما، وقوله: «**فتَرُوحُ عليهم سارحتُهم**» أي فترجع عليهم ماشيتُهُم التي تسرحُ أي تذهب أول النهار إلى المرعى، وقوله: «**أطول ما كانت ذراً**»، الذُّرى جمع ذروة، وهي الأعالي والأسنمة، والمراد أنه يزيد ارتفاعها بسبب سرعة نموها، وقوله: «**وأسبَغَهُ ضُرُوعاً**» أي أطوله ضروعاً لكثرة اللبن، وقوله: «**وأَمَدَّهُ خواصِر**» يعني لكثرة امتلائها من الشبع، وقوله: «**كيعاسيب النحل**» اليعاسيب جمعُ يعسوب وهو ذكرُ النحل وأميرها، وأراد باليعاسيب هنا جماعة النحل في اتباعها ليعسوبها؛ لأنه متى طار تِبعَتْهُ، ومراده أن الدجال تتبعه كنوز الأرض كما تتبع جماعة النحل يعْسوبها لا تتخلف عنه بحال، وقوله: «**فيقطعه جِزلتين رمية الغرض**» أي فيقطعه قطعتين ويجعل بين القطعتين مقدار رمية السهم نحو الهدف. وقوله: «**بين مَهْرُودَتَيْن**» أي حُلَّتين مصبوغتين بالهُرْدِ، وهو عُرُوق يُصبغُ بها، وقد قيل: إن الثوبَ المهرودَ هو المصبوغ بالوَرْس ثم بالزعفران. وقوله: «**لا يدان لأحد بقتالهم**» يعني لا قدرة لأحد على حربهم. وقوله: «**فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم**» أي فيسلط الله عليهم النغف، وهو دود يصيب أنوف الإبل والغنم وقوله: «**فيصبحون فَرْسَى**» أي هَلْكى. وقوله: «**حتى يتركها كالزَّلَفَة**» أي كالمرآة والأرض المكنوسة. وقوله: «**ويستظلون بقحفِهَا**». أي بقشرها، والفئام: الجماعة: وقوله: «**يتهارجون فيها تهارُج الحمر**» أي يذهب الحياء من الناس، ويقارف الرجالُ النساء، ويتسافدون في الطرقات بلا خجل ولا اكتراث.

هذا وقد وصفت أحاديث نزول عيسى عليه السلام عند ظهور المسيح الدجال بأنها متواترة، فقد قال ابن كثير في نفسير قول تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]: «ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له».

وبعد أن ساق عدداً كثيراً من هذه الأحاديث الواردة في البخاري ومسلم

ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وأبي داود وسائر أهل السنن، ثم قال: فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومُجَمِّع بن جارية وأبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح. ا. هـ.

هذا وقد وصف رسول الله ﷺ عيسى ابن مريم بأنه ربعة أحمر من يراه يحسبه خرج من ديماس أي حمام بعد أن اغتسل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعت عيسى عليه السلام بعد أن رآه ليلة الإسراء والمعراج فقال: «**ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس**» يعني الحمام. وفي رواية للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في وصف عيسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «**فأما عيسى فأحمر جَعْدٌ عريض الصدر**»، وفي رواية لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجلٌ آدمٌ كأحسن ما ترى من أُدْم الرجال تضرب لِمتُهُ بين مَنكِبَيْه رَجِلُ الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على مَنْكِبَيْ رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا قالوا: هو المسيح ابن مريم**» وفي لفظ للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يتهادى بين رجلين، ينطِف رأسه ماء ـ أو يهراق رأسه ماء ـ فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابن مريم**» ومعنى قوله: «**ربعة**» أي مربوع بين الطول والقصر، ومعنى قوله: «**جَعْد**» أي ليس شعره سَبْطاً أي ناعماً، ويقال: رجل جَعْد أي كريم. ومعنى قوله: «**آدم**» أسمر، وقد يوصف الأحمر به أيضاً إذا لم يكن أمهق شديد البياض. وقوله: «**تضرب لِمَّتُهُ بين منْكِبَيْه**» اللِّمَّةُ هي الشعر المجاوزُ شحمة الأذن. ومعنى قوله: «**رَجِلُ الشعر**» يقال: رَجْلُ الشعر ورَجَل الشعر ورَجِلُ الشعرِ إذا كان شعره بين السبوطة والجعودة، وهذا يقيد ما ورد في وصف شَعر عيسى عليه السلام من مطلق قوله: سبط الشعر أو جعد، ومعنى قوله: «**ينطف رأسه ماء**» أي يقطر ويسيل.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكر الله تبارك وتعالى في تعداد جرائم اليهود أنهم قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، وأنهم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، وأنهم عدَوْا في السبت. وأنهم نقضوا الميثاق، وأنهم كفروا بآيات الله، وأنهم قتلوا الأنبياء بغير حق، وأنهم قالوا: قلوبنا غلف، ثم قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧] وقوله تعالى هنا: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بنصب رسول يحتمل أن يكون من تمام مقالة اليهود وقالوا ذلك تهكماً على حد قول مشركي مكة في حق محمد ﷺ فيما حكى الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وقول فرعون في موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ليس من مقالة اليهود، وإنما ذكره عز وجل ونصبه على الاختصاص والمدح؛ للإشارة إلى فظاعة عملهم، ودرجة جهلهم وشناعة زعمهم وسوء حقدهم وبُغضهم للأنبياء والمرسلين. ولا شك أن الحواريين قاموا بعد رفع المسيح عليه السلام بنشر دعوة توحيد الله عز وجل، وأنه لا إله إلا الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد تعرَّضوا لصنوف من التعذيب على أيدي اليهود والرومان، ولم يَدَّعِ واحد منهم أن عيسى إله أو ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وقد استمرت دعوة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام صافية وقتاً من الزمان ليس بطويل، فقد وقع على أتباعه اضطهاد عظيم، فشُرِّدوا وعُذِّبوا وقُتِّلو وصُلِّبُوا حتى كادت تختفي معالم المسيحية من الأرض بسبب تلك الاضطهادات التي كان يتولاها أباطرة الرومان وعمالهم وكذلك اليهود.

وأشد ما نزل بهم من الأذى كان في عهد الإمبراطور نيرون (٦٤م)، ثم في

عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦م)، ثم الإمبراطور ديسيوس (٢٥١م)، ثم في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)؛ فأما نيرون فقد اتهمهم بأنهم هم الذين أحرقوا مدينة روما، وتفنن في تعذيبهم، إذ كان يأمر أتباعه بوضع أتباع عيسى في جلود الحيوانات ثم يطرحونهم للكلاب فتنهشهم، كما كانوا يلبسون بعض هؤلاء المسيحين ثياباً مطليَّة بالقار. ثم يجعلونهم مشاعل يستضيئون بنارها. كما كتب بطريرك الإسكندرية يصف بعض ما عاين من ديسيوس إذ يقول: عم الخوف الجميع، وفر بعضهم بدينهم، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحي يُرْشَد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة، بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب، ثم يقول البطريرك: ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار أو مَنْ زُجَّ به في غياهب السجون.ا.هـ.

أما دقلديانوس فقد جاء إلى مصر وأنزل بها البلاء، وأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب، وأصدر أمراً بالقبض على الأساقفة وزجهم في غياهب السجون، وقهر المسيحيين على إنكار دينهم، وقتل منهم حوالي ثلاث مئة ألف.

وقد أُطْلِقَ على أتباع المسيح ﷺ اسم النصارى، نسبة إلى نصرانة قرية المسيح ﷺ من أرض الجليل بفلسطين، وهذه القرية تسمى أيضاً الناصرة والنصورية، ولا أعرف على التحديد متى صارت النصرانية علماً على دين أهل الإنجيل، وقد وجدت هذه اللفظة بهذا المعنى في أوائل القرن الثاني الميلادي، إذ كتب (بلين) وكان والياً في آسيا إلى الإمبراطور تراجان الموجود عام (١٠٦م) كتاباً يشرح فيه طريقة تعذيبه للمسيحيين، فقال: «جربت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية: وهي أني أسألهم إذا كانوا مسيحيين، فإذا أقروا أُعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة، مهدداً بالقتل، فإذا أصروا أُنفِّذ عقوبة الإعدام فيهم، ثم يقول «بلين»: وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تُذيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى». .ا.هـ.

وقد يُفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ٨٢]، ولا يقتضي لفظ النصرانية في الأصل مدحاً ولا ذماً؛ لأنها نسبة إلى وطن، والنسبة إلى الأوطان لا تقتضي مدحاً ولا ذماً، فإن الوطن الواحد يشتمل على صالحين وطالحين، أما المسيحية فإنها إنما يصح إطلاقها على المتبعين بحق دين المسيح عليه السلام، وبعد بعثة رسول الله ﷺ، وقد نسخ الله بشريعته كل شريعة سوى شريعته، فإنه لا ينبغي إطلاق المسيحية على النصارى؛ لأن هؤلاء في الواقع لا يتبعون المسيح عليه السلام، إذ لو اتبعوه لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، ولذلك لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ تسميتهم مسيحيين، وقد أطلق عليهم القرآن والسنة أنهم نصارى وأهل الكتاب، كما سماهم القرآن أهل الإنجيل، هذا وقد كان اليهود أشد الناس عداوة لدين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وبذلوا كل سبيل للقضاء عليه وعلى أتباعه، وقد رأوا بتفكيرهم الشيطاني أن يتظاهر بعضهم بالدخول في هذا الدين ليحرفه ويبعد الناس عن دين المسيح عليه السلام، وقد قام بهذه الحيلة شاؤول اليهودي، وقد كان من المغرمين المولعين بتعذيب النصارى وفتنتهم عن دينهم، ويجمع علماء النصرانية على أنه كان راضياً بقتل المسيحيين، وكان يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن، وقد وصف في رسالة (أعمال الرسل) بأنه الممتلئ كل غش وكل خبث، وأنه ابن إبليس، وأنه عدو كل بر، وأنه يفسد سُبل الله المستقيمة كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من هذه الرسالة في الفقرة العاشرة من هذا الإصحاح.

وقد زعم شاؤول أنه تقدم إلى رئيس الكهنة اليهودي وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم، وقد كان ذلك في السنة الثامنة والثلاثين من الميلاد، أي بعد وقت قصير من رفع المسيح عليه السلام، ويقول شاؤول عن نفسه: سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي؛ إذ كنت أوفر غيرة في

تقليدات آبائي. . ثم يزعم شاؤول أنه وهو في طريقه إلى دمشق رأى يسوع، وأنه آمن به، وأنه تسمى بولس، ويذكر لوقا صاحب الإنجيل المسمى باسمه في رسالته التي سماها أعمال الرسل قصة شاؤول هذه على ما زعمه شاؤول، فيقول في الإصحاح التاسع من هذه الرسالة عن شاؤول: فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم. وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ثم يقول: فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ ثم يقول: وللوقت جعل يركز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. ولم تكن فكرة ألوهية عيسى أو بنوته لله معروفة من قبل للمسيحيين فهم لا يعلمون إلا أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولما جاء شاؤول الذي تسمى بولس بهذه الدعوى أنكرها الحواريون وتشككوا في هذه القصة التي اخترعها شاؤول، ولم ينسوا أنه أكبر أعدائهم في اليهود غير أن برنابا نصح الحواريين أن لا يعجلوا على شاؤول وأحسن تقديمه إلى هؤلاء، بيد أن برنابا كذلك لم يستقم على موالاة شاؤول فلم يمض قليل وقت حتى انفصلت عُرى المودة بينهما، بل نفر من شاؤول عامة التلاميذ ولم يبق على صحبته له سوى لوقا الذي اعتبر نفسه أخص تلاميذ بولس، وكان طبيباً ولم يكن من الحواريين، وكان شاؤول (بولس) يلقبه بعد ذلك بالطبيب الحبيب.

وصار بولس يبشر بمسيحية لم يعرفها الحواريون، إذ لم يتلق أي نوع من التعليم من عيسى عليه السلام أو من الحواريين، ثم صار يزعم أن يسوع يعلمه من السماء مباشرة وبلا واسطة، ويقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرَّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل التاسع والسبعون

تابع: المسيح عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن شاؤول الذي سمى نفسه بولس أراد القضاء على جميع التعاليم التي تلقاها الحواريون عن المسيح عليه السلام، وكان يقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرَّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين، وفي ذلك يقول في كتاب بعث به إلى تلميذه تيموثاوس: طلبت إليك أن تمكث في إفسس إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية لكي توصي قوماً ألا يعلموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافات وأنساب لا حدَّ لها تُسبِّبُ مباحثات دون بنيان الله الذي في الإيمان، وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء، الأمور التي إذا زاغ قوم عنها انحرفوا إلى كلام باطل يريدون أن يكونوا معلمي الناموس وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يقررون، ويقول: إن كان أحد يُعَلِّم تعليماً آخر فقد تصلف وهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا بدأ شاؤول اليهودي هذا الذي زعم أنه تنصر وتسمى بولس، بدأ يُجَهِّل كل الحواريين ويصفهم بعدم الفهم، وراح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد، وصار ينشر تعاليم يستمدها من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلاسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود، فقد جاء لأول مرة بفكرة التثليث، وبفكرة أن المسيح ابن الله، وأنه نزل ليضحي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر، وأنه صعد ليجلس عن يمين أبيه ليحكم ويدين البشر، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً.

ولا شك أن اليهود من آبائه قالوا: العزير ابن الله، فهو لم يبعد في دعوته أن عيسى ابن الله عن دعوى آبائه الضالين المنحرفين، وقد ضم إلى ذلك ما أخذه عما دُوِّن عند الهندوس عن كرشنة، وما دُوِّن عند بعض البوذيين عن بوذا،

فكرشنا يلقب عند معتقديه من الهندوس بالمخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس؛ وهو الأب والابن والروح القدس، كما لقب بوذا عند بعض أتباعه بنفس هذه الألقاب وهي بعينها التي أطلقها بولس على المسيح عليه السلام، كما قال أصحاب كرشنا: إنه ولد من العذراء (ديفاكي) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها، وقال بعض أصحاب بوذا عن بوذا إنه ولد من العذراء (مايا) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها. وهذه العبارة بعينها أطلقها شاؤول (بولس) على والدة المسيح وولدها عليه السلام، ويقول أصحاب كرشنة عن كرشنة، إن الناس عرفوا ولادته من نجمه الذي ظهر في السماء، وكذلك قال بعض أصحاب بوذا عن بوذا، وكذلك قالت تعاليم شاؤول (بولس): لما ولد المسيح ظهر نجمه في المشرق، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته، كما زعم أصحاب كرشنة أن أمه (ديفاكي) كانت مخطوبة لناندا، وأنها لما ولدت كرشنة سمع ناندا نداء من السماء يقول له: قم خذ الصبي وأمه وفر بهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة؛ لأن الملك طالبٌ إهلاكه، وفي تعاليم شاؤول التي نشرها: أنه لما ولد يسوع كان يوسف النجار خطيب أمه غائباً؛ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفرَّ بهما إلى مصر؛ لأن الملك طلب إهلاكه، كما أن اسم المدينة التي ولد فيها كرشنا وعمل فيها الآيات العجيبة هي مطر، وكذلك نشر شاؤول أن اسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح وأمه وخطيبها يوسف النجار هي المطرية من أرض مصر، وقد عمل فيها الآيات العجيبة لما ترك أرض اليهودية.

علماً بأن كرشنة كان موجوداً حوالي سنة ٩٥٠ ق.م، وبوذا كان موجوداً حوالي منتصف القرن السادس قبل المبلاد. وقد انتشرت تعاليم وأفكار بولس في الغرب بين الوثنيين واليونان في الوقت الذي حوربت فيه بالمشرق، وفي ذلك يقول بولس في رسالة إلى تلميذه تيموثاوس: أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني. ومع ذلك فقد أخذ بولس في التطواف في الأقاليم ينشئ الكنائس

ويلقي الخطب ويبعث بالرسائل التي صارت عماد المسيحية المحرفة، حتى قتل في اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو ٦٧م، غير أن بعض الحواريين ومنهم برنابا الذي كان يحسن الظن في (بولس) قاوموا هذه التعاليم التي جاء بها بولس، وألَّف برنابا إنجيلاً أشار في مقدمته إلى السبب الذي دعاه إلى تأليفه. وأنه إنما ألَّفه ليرد على أولئك الذين يدعون ألوهية المسيح؛ أو أنه ابن الله، وفي ذلك يقول برنابا في مطلع إنجيله: أيها الأعزاء، إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيت.ا.هـ.

وقد أجمع مؤرخو النصرانية على أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل شتى قد أخذت بها فرق مسيحية قديمة، وأن كل فرقة من هذه الفرق لم تكن تتمسك إلا بإنجيلها، وأن الكنيسة قامت في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط؛ وهي إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وحرَّمت الكنيسة ما عداها من الأناجيل، على أنه قد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الأناجيل الأربعة لا ذكر لها قبل آخر القرن الثاني الميلادي، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة هو أرينيوس سنة ٢٠٩م، ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦م، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، علماً بأن جميع هذه الأناجيل أشبه بكتب السيرة النبوية التي تسوق عن رسول الله ﷺ سيرته، وتشتمل على الصحيح والحسن والضعيف والموضوع من الأخبار. ولم يدع أحد من النصارى أنها تشتمل على الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وإن كانت تسوق أحياناً بعض فقرات لا شك أنها توافق ما عُرف عن المسيح عليه السلام من توحيد الله تعالى، وأن عيسى رسول الله ونبي من الأنبياء؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح العاشر في الفقرة الأربعين في خطاب عيسى مع الحواريين يقول: من يقبلكم،

يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني. وفي الإصحاح التاسع عشر من متى في الفقرة الثامنة عشرة: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك. وفي الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين من الإصحاح الثاني والعشرين من متى: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي الفقرة السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين من الإصحاح الثالث والعشرين من متى يقول: يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً. لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح العاشر في الفقرة التاسعة عشرة: أنت تعرف الوصايا. لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك. وفي الإصحاح الثاني عشر منه في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُليقة كيف كان الله قائلاً: أنا إلَه إبراهيم وإلَه إسحاق وإلَه يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله: أَيَّةُ وصيةٍ هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل: الرَّبُ إلهنا ربٌّ واحد، وتحب الرب إلَهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانيةٌ مثلها هي تُحِبُّ قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيداً يا مُعلم، بالحق قلت؛ لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه، وفي إنجيل يوحنا التقرير بأن الله واحد، وأن عيسى رسول الله حيث جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.

ولا شك أن هذه هي وصايا الأنبياء لم يتمكن شاؤول ولا المحرفون من اليهود والنصارى من طمسها، وهي المطابقة لما جاء به محمد ﷺ وعليها وعلى

نحوها يحمل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

وفي نحوها يقول الله عز وجل في الوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

وقد أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثمانون

تابع: المسيح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أنه كانت هناك أناجيل كثيرة، وكان لكل فرقة من فرق النصارى إنجيلها الخاص بها، حتى قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط، وهي متى ومرقص ولوقا ويوحنا؛ وإليكم نبذة تبين أن هذه الأناجيل مختلف في تاريخ تدوينها وفي اللغة التي كتبت بها، وفي البلد الذي أُلّفت فيه وفي الذي قام بترجمتها، كما اشتملت على جملة من التناقضات فيما بينها؛ فإنجيل متى منسوب لمتى الحواري أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، ويعرف بمتى العشَّار، إذ كان قبل اتصاله بالمسيح عليه السلام من جباة الضرائب للرومان، وكان جباة الضرائب يعرفون آنذاك بالعشَّارين، وقد كان عمله في كفر ناحوم من أرض الجليل بفلسطين، وقد ذكر متى في إنجيله كيفية دخوله في دين المسيح إذ يقول في الإصحاح التاسع من إنجيله: وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى، فقال له: اتبعني فقام وتبعه، وبينما هو متكئ في البيت إذا عشَّارون وخطاة كثيرون قد جاؤوا واتكؤوا مع يسوع وتلاميذه، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، اذهبوا وتعلموا ما هو؟ إني أُريد رحمة لا ذبيحة، لأني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.

وقد اختلف النصارى في تاريخ تدوين هذا الإنجيل، فبعضهم يدَّعي أنه أَلَّف عام ٣٩م، وبعضهم يدَّعي أنه أُلِّف عام ٤١م، وبعضهم يقول: إنه أُلِّف في عهد الإمبراطور قلوديوس ولم يحدد السنة التي أُلِّف فيها، علماً بأن قلوديوس حكم أربع عشرة سنة، ويقول هورن: إنه ألف عام ٣٧ و٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو ٦٤م.

وقد تنازع النصارى كذلك في اللغة التي كتب بها هذا الإنجيل وفي البلد الذي أُلف فيه، فمنهم من يقول: إنه كتب بالعبرية، ومنهم من يقول: إنه كتب بالسريانية، ومنهم من يقول: إنه كتب في أورشليم، ومنهم من يقول: إنه كتب باليونانية، وأجمعوا على أنه لم يعرف إلا باليونانية، واختلفوا في مترجمه إلى اليونانية، والمعروف أن متى لم يبق طويلاً في فلسطين بعد رفع المسيح عليه السلام، بل جال في بلاد كثيرة يبشر بالمسيحية، واستقر بأرض الحبشة حتى مات عام ٧٠م ببلاد الحبشة، على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة، وبعضهم يقول: إنه طعن برمح بأرض الحبشة بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة.

أما إنجيل مرقص فمؤلفه أصله من اليهود أيضاً وكانت أسرته تقيم بأورشليم في وقت ظهور المسيح عليه السلام، لكنه ليس من الحواريين، بل هو تلميذ لبطرس كبير الحواريين، كما أنه تتلمذ على خاله برنابا أحد الحواريين كذلك، وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية بطلب من أهالي رومية، في عهد الإمبراطور نيرون، وقد ذكر سعيد بن البطريق النصراني في تاريخه أن هذا الإنجيل كتبه بطرس رئيس الحواريين عن مرقص في مدينة رومية ونسبه إلى مرقص. وهذا أمر عجيب غريب، إذ كيف يروي رئيس الحواريين عن تلميذه هذا الإنجيل، ثم ينسبه إلى التلميذ، على أن بعض الرواة يقررون أن مرقص ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس، وقد ذكر كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار: أن مرقص كان ينكر ألوهية المسيح، هو وأستاذه بطرس الحواري، وقد جاء في هذا الكتاب عن مرقص أنه صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح. وقد انتقل مرقص من بلد إلى بلد يبشر بالمسيحية حتى دخل مصر في منتصف القرن الأول من الميلاد، فأقام بها، وأخذ يدعو إلى المسيحية، فدخل فيها عدد كبير من المصريين، وقد كان يسافر من مصر أحياناً إلى رومية، وأحياناً إلى شمال إفريقية، غير أنه آثر الاستقرار في مصر إلى أن ائتمر به الوثنيون فسجنوه وعذبوه ثم قتلوه في عام ٦٢م.

أما إنجيل لوقا فمؤلفه ليس من الحواريين كذلك ولا من تلاميذ الحواريين، وإنما تتلمذ لبولس (شاؤول اليهودي) وأخلص له، وصار أخص أصدقائه، وقد

اختلف فيه فقيل: إنه أنطاكي ولد بأنطاكية، وقيل: بل روماني نشأ في إيطاليا، وبعضهم يقول: إنه كان طبيباً، وبعضهم يقول: إنه كان مصوراً. وقد أشار لوقا إلى سبب تأليفه إنجيله، فبدأ هذا الإنجيل بقوله: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي عُلمت به. وقد تنازع مؤرخو النصرانية في تاريخ تدوين هذا الإنجيل فقيل: إنه ألف عام ٥٣ أو ٦٣ أو ٨٤م وقيل غير ذلك.

أما إنجيل يوحنا فمؤلفه محل نزاع شديد عميق بين علماء النصارى؛ فالكثير منهم يدعي أنه أحد الحواريين وهو يوحنا بن زيدي الصياد، وبعضهم يدعي أنه يوحنا آخر لا يمت إلى الأول بصلة، وقد أنكر بعض علماء النصارى آخر القرن الثاني الميلادي نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري في الوقت الذي كان يعيش فيه أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري، ولم ينقل أحد أن أرينيوس سمع من أستاذه صحة تلك النسبة. وقد قال علماء النصارى: إن كافة إنجيل يوحنا من تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، كما جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمس مئة من علماء النصارى النص التالي: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سُدى، لخبطهم على غير هدى. ا. هـ.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق إنكار دائرة المعارف البريطانية أن يكون إنجيل يوحنا من تأليف يوحنا الحواري، وتقريرها أنه من تأليف كاتب مزور من الجيل الثاني. وقد اختلف في تاريخ كتابة هذا الإنجيل؛ فبعضهم يرى أنه كتب سنة ٩٥م أو ٩٦م أو ٩٨م وقيل غير ذلك.

وعامة مؤرخي النصرانية يقررون أن إنجيل يوحنا هو وحده الذي نص على ألوهية المسيح. مما يدل على أنه أُلف لتقرير هذه الألوهية، وهذا يؤكد مذهب من يقول: إن مؤلفه أحد طلبة مدرسة الإسكندرية التي كانت تتزعم القول بألوهية المسيح، مقررة لما آثرته عن بولس «شاؤول اليهودي».

وهذه الأناجيل الأربعة متّى ومرقص ولوقا ويوحنا متناقضة في شكلها وموضوعها، فمن صور اختلافها في مظهرها العام أن إصحاحات (فصول) إنجيل متى ٢٨ إصحاحاً، ومرقص ١٦ إصحاحاً، ولوقا ٢٤ إصحاحاً، ويوحنا ٢١ إصحاحاً.

أما تناقض هذه الأناجيل في حقيقة المسألة الواحدة فيظهر فيما يأتي: إنجيل متى يقرر أن عيسى من أولاد سليمان بن داود، وإنجيل لوقا يقرر أن عيسى من أولاد ناثان بن داود، وإنجيل متى يقرر أن سلتائيل بن يكنيا، وإنجيل لوقا يقرر أن سلتائيل بن نيري، وإنجيل متى يقرر أن من داود إلى يسوع ستة وعشرين جيلاً، وإنجيل لوقا يقرر أن من داود إلى يسوع واحداً وأربعين جيلاً، كما أن إنجيل متى يقرر أن المرأة التي لحقت يسوع عند انصرافه إلى نواحي صور وصيدا كانت كنعانية كما جاء في الإصحاح الخامس عشر منه، وإنجيل مرقص يقرر أن هذه المرأة كانت أممية، وفي جنسها فينيقية سورية، كما جاء في الإصحاح

السابع منه، والعجيب أن يد التلموديين اليهود ظاهرة في صياغة هذه الأناجيل، إذ إن التلمود اليهودي يقرر أن الناس قسمان يهود وأمميون، وأن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة، وأن الأمميين جميعاً كلاب وخنازير، وهذه التعاليم الخبيثة التي يأباها من له أدنى مسكة من عقل تنسب الأناجيل التي بيد النصارى إلى عيسى عليه السلام أنه كان يعتقدها ـ برأه الله مما قالوا ـ، ففي قصة المرأة التي لحقت عيسى عليه السلام عند انصرافه إلى صور وصيدا تفوح هذه الرائحة الخبيثة التلمودية منه، ففي الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى في الفقرة الحادية والعشرين إلى ٢٨: ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أَعِنّي، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب؛ فقالت: نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين، فشفيت ابنتها من تلك الساعة، ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل، وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة معهم عُرْجٌ وعُمْيٌ وخُرْسٌ وشُلٌّ وآخرون كثيرون. وطرحوهم عند قدميْ يسوع فشفاهم، حتى تعجب الجموع إذا رأوا الخُرْس يتكلمون والشل يصيحون والعرج يمشون والعُمْي يُبْصِرون، ومجدوا إله إسرائيل.

ففي هذا النص يزعمون أن عيسى وصف غير بني إسرائيل بأنهم كلاب، ونفس هذا الوصف موجود في الإصحاح السابع من إنجيل مرقص، وإن تعجب فعجب أن يصدق عاقل يؤمن بالأنبياء والمرسلين يصدق أن عيسى يصف من سوى الإسرائيليين بأنهم كلاب، نزهه الله وبرأه مما قالوا. وبالرغم من أنه بعد أن قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على هذه الأناجيل الأربعة فقط فإن النزاع لم ينقطع بين أصحاب هذه الأناجيل الأربعة وبين أصحاب

الأناجيل الأخرى حتى دخل الإمبراطور قسطنطين في النصرانية، وقد رأى النصارى في غاية التنازع؛ فمنهم من يعتقد أن المسيح عبد الله ورسوله، ومنهم من يدعي أنه ابن الله له صفة الأزلية. ومنهم من يدعي أن الله ثالث ثلاثة؛ فقرر عقد مؤتمر في نيقية، وقد كان في مصر رجل ليبي الأصل يقال له آريوس، وكان داعية قوياً يدعو إلى توحيد الله ﷻ، ويقرر أن عيسى عبد الله ورسوله، وقد أخذ يقاوم كنيسة الإسكندرية التي كانت تنشر بين الناس القول بألوهية المسيح فأخذ آريوس يحارب هذه الكنيسة.

قالت الكاتبة الإنجليزية ا ـ ل ـ بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية الذي ترجمه إلى العربية رجل من الأقباط اسمه اسكندر تادرس وتولى طبعه وأشرف عليه تادرس شنودة المنقبادي صاحب جريدة مصر، وطبع في مطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠١م؛ تقول هذه الكاتبة الإنجليزية في ص ١٩١ ـ ١٩٢ جـ١: وقد ظهر في الإسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي المشهور وأصله من ليبيا، وقد سامه بطرس شماساً في الكنيسة. وتقول في ص ٢٠١: أما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تم في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين، إذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالإسهاب فلا حاجة لسردها الآن، ولم تأت سنة ٣١٩م حتى زاد تذمر الإسكندرانيين وكثر لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين، مما دعا البطريك إسكندر أن يهتم لأخذ الاحتياط اللازم لصدها، ثم تقول في ص ٢٠٢: وأخيراً كتب البطريرك رسالة رعوية إلى آريوس وأتباعه ينذرهم بترك طريق الضلالة التي ساروا فيها والرجوع إلى الطريق السوي، ولكنه عبثاً حاول إقناعهم. ولا بد أن بعض الباحثين يعرفون أن نقطة الخلاف هذه كانت فيما يختص بألوهية المسيح، ثم تقول: إذن فالذنب ليس على آريوس بل على فئات أخرى سبقته في إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً، كما كان تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعمَّ. ثم تقول في ص ٢٠٣: وكانت نتيجة هذا كله أن البطريرك إسكندر شكل

مجمعاً في سنة ٣٢٠م حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة، وهو ثالث حكم صدر ضده في حياته، أما آريوس فلم يخضع لهذا الحكم ولم يعبأ، به بل غادر الإسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع إليه أصدقاء أثر فيهم تأثيراً شديداً، إذ استمالهم إليه بكليتهم حتى إن يوساب أسقف نيكوميديا الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو، ومن ثم سعى بعد ذلك في استمالة الإمبراطور قسطنطين إلى هذا المذهب، وقد كان الإمبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل إليه كثيراً.

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثاني والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أشرتُ في ختام الفصل السابق إلى ما ذكرته المؤلفة الإنجليزية بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية من أن آريوس كان داعية قوياً إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله، وتستمر قائلة في بيان أسباب انعقاد مؤتمر نيقية: ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب أسقف نيكومديا آب إلى فلسطين؛ حيث سمح له يوسيبوس أسقف قيصرية وأساقفة آخرون بأن يعقد جمعيات دينية في أبروشيات مختلفة ليعظ فيها، ثم تشير المؤلفة في ص ٢٠٤ و٢٠٥ إلى انتشار دعوة آريوس، وأن الإمبراطور أرسل مكتوباً إلى البطريرك اسكندر وآريوس معاً لمحاولة إيقاف النزاع، وأنه لم يفلح في إيقاف هذا الشقاق عند حده، فأصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الأساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المُشْكِل ويبتوا فيه حكماً قاطعاً بكل صراحة وإمعان، وبناءً على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥م، وفيه كُتِب أول نسخة من قانون الإيمان النيقاوي.

ثم تقول في ص ٢٠٧: وقد يظن البعض أن شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد، والحقيقة أنه بدأ يستفحل، ثم تقول في ص ٢١٥: أما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي؛ ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية.ا.هـ. ويقول المعلق على هذ الكتاب وهو تادرس شنودة في هامش قرارات مؤتمر نيقية: جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي أنه قرر أن يصلي النصارى قائمين بدل ما كانوا يصلون راكعين.ا.هـ.

هذا وقد كانت كنيسة الإسكندرية قائمة على قدم وساق للقضاء على آريوس ومذهبه، وزعم البطريرك بطرس أن المسيح لعن آريوس، وأنه يحذرهم منه، وقال

بطرس: إني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت له: يا سيدي! من شق ثوبك؟ فقال لي: آريوس، فاحذروا أن تدخلوه معكم.

هذا وقد ساق سعيد بن البطريق الطبيب النصراني المؤرخ الشهير وكان من أهل فسطاط مصر ومولده في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٦٣هـ، وعُيِّن بطريرك للإسكندرية في ٨ من صفر سنة ٣٢١هـ، وتوفي في رجب سنة ٣٢٨هـ، ساق ابن البطريق هذا في تاريخه في وصف المجتمعين في مؤتمر نيقية وعددهم ومذاهبهم، يقول ابن البطريق: بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مرَّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلَّت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله. ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، «يعني شاؤول اليهودي». وهكذا أورد ابن البطريق صورة واضحة لعدد ومذاهب المجتمعين في مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م لتقرير الديانة النصرانية. وقد نصر المذهب الأخير وهو القول بألوهية المسيح الذي كان ابتدعه شاؤول (بولس) ثمانية عشر وثلاث مئة أسقف، وخالفهم ثلاثون وسبع مئة وألف أسقف، والعجيب الغريب أن الإمبراطور قسطنطين لم يلتفت إلا لقول القائلين بألوهية المسيح، وعقد مجلساً خاصاً لأصحاب هذا الرأي يصفه ابن البطريق إذ

يقول: وضع الملك للثلاث مئة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به.ا.هـ.

ومن هذا التاريخ حُرمت مخالفة هذا المذهب وحورب مخالفوه وحُرِّم العمل بأي إنجيل عدا الأناجيل الأربعة: متَّى ومرقص ولوقا ويوحنا.

وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى هذه المذاهب النصرانية المنحرفة عن دين المسيح عليه السلام حيث يقول عز وجل في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٨].

ويقول عز وجل في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٥].

على أن اليهود والنصارى مع إقرارهم في كتبهم بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الإله الواحد الحق فإن اليهود عبدوا العزير واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، وعبد النصارى المسيح واعتقدوه إلها وابن إله كما اتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله.

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ

عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٢٩ ـ ٣٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم عن اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم ما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن اليهود والنصارى كانوا إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً، مشيراً إلى أن ذلك أوصلهم إلى عبادة غير الله، ولذلك حذَّر المسلمين من مثل عمل هؤلاء اليهود والنصارى، وحرَّم اتخاذ المساجد على القبور، ولم تشغله سكرات الموت ﷺ عن التحذير من هذا العمل غير الصالح؛ فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**».
وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا. وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله: «**أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شِرار الخلق عند الله**»، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم**

مساجد»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**. قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً. وفي لفظ مسلم: فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً.

كما روى مسلم في صحيحه من حديث جُنْدب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كانت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»**.

وقد شنع الله تبارك وتعالى على من اعتقد أن لله ولداً وبشَّع مقالتهم وسفه عقيدتهم، وأقام الأدلة القاطعة على بطلان مذهبهم وفساد مقولتهم في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وأنه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، وأن جميع من زُعِم أنه ابن الله هو عبدٌ من عبيده، والعبد لا يكون ولداً لسيده وخالقه ورازقه وإلهه، وأن ادعاء أن لله ولداً قول فظيع ومنكر شنيع تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.

وأشار تبارك وتعالى إلى سخافة عقول بعض مشركي العرب إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولما سئلوا: من أمهات الملائكة؟ فقالوا: سروات الجن، أي شريفات الجن، مع أن الواحد من هؤلاء كان إذا أنجب بنتاً اسودَّ وجهه وصار كظيماً يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فكيف ينسبون البنت إلى الله وهم لا يفرحون بها إذا ولدوها، وهذا من أقبح أخلاقهم وأسوأ معتقداتهم، وقد جعلوا بهذا المعتقد الفاسد بين الجِنَّة وبين الله نسباً، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، أي لو كانوا أنسباء الله ما عذبهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وفي ذلك كله يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

ويقول في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ ـ ٦٩].

ويقول ﷻ في ختام سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

ويقول في مطلع سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١ ـ ٥].

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ «يعني منكراً فظيعاً» ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

ويقول في مطلع سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣].

ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

ويقول في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

ويقول في سورة الصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٩].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الرابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

قد أشرت في الفصل السابق إلى ما قص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مما يثبت سخافة عقول من يتخذ لله ولداً، وقد سقت جملة كبيرة من هذه الآيات المنددة بفساد تصور هؤلاء، وأنهم قد انحدروا إلى الدرك الأسفل في التصور، وقد أشار الله تبارك وتعالى كذلك إلى أن من زعم أن لله ولداً فقد اتخذ لله شريكاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه عن الشريك والند والنظير والولد والصاحبة.

وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (أي اختلقوا له أولاداً وبنات بغير بيِّنة ولا برهان) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٣].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ (أي على ذلة ومهانة) ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ

ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٥١ ـ ٦٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٥ ـ ١٩].

ويقول تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي أن من ادَّعى أن الله ولداً فقد سبَّ الله وشتمه، ويا ويل من سبَّ الله وشتمه، وأنه لولا حلم الله لعاجلهم بالعقوبة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**يقول الله: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذَّبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني**»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقْدِرُ أن أُعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً**». كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل ، إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيهم ويرزقهم**». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نِدّاً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**».

ومع هذه الأدلة الكثيرة الصريحة المحكمة في كتاب الله تعالى مكية ومدنية، وفي أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة بأن الله تعالى منزه عن الولد والصاحبة، فإن نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله، حاملين لها على غير ما أُريد بها، بسبب زيغ في قلوبهم ابتغاء الفتنة والصدِّ عن سبيل الله، فزعموا أن في القرآن دليلاً على أن عيسى ابن الله في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. إذ حملوا لفظ (مِن) في هذه الآية على التبعيض، فيكون عيسى بعضاً من الله وجزءاً منه، وتجاهلوا أن «من» في هذا المقام لا يُراد بها التبعيض. وإنما يُراد بها ابتداء الغاية، أي أن عيسى روح من الأرواح التي ابتدأ الله خلقها، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبد الله وخلق من خلقه، والعبد لا يكون ولداً، وأن الله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤].

ولا شك أن العرب يستعملون كلمة «مِن» في معانٍ كثيرة: منها ابتداء الغاية كهذه، ومنها بيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ومن معانيها التبعيض كقولك: أكلت من هذا الرغيف، أي أكلتُ بعضه، إلى معانٍ كثيرة، فنصارى نجران تركوا المعنى الظاهر المتبادر المحكم ولجؤوا إلى المعنى غير المُراد، مستغلِّين تشابه اللفظ، وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمران إلى الآية الرابعة والثمانين منها ردَّ فيها باطلهم وأدحض شبهتهم، وبيَّن أنهم بسبب زيغ قلوبهم يتبعون ما تشابه من القرآن ويتعامون عن المُحكم الصريح الجلي المثبت أن الله لم يتخذ ولداً، إذ إن الله تبارك وتعالى جعل من القرآن محكماً وجعل منه متشابهاً، والمحكم الواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصة، وأما المتشابه فهو اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى كلفظ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فأما أهل الإيمان فيردُّون متشابهه إلى مُحْكَمه، ويحملون معنى (من) هنا على ما أُريد منها، وهو ابتداء الغاية، وأما الذين في قلوبهم زيغ

فيحملونه على المعنى غير المراد، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فكلامه لا يتناقض ولا يتضارب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد ذكر الله تبارك في هذا المقام من سورة آل عمران أدلة جليَّة بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وأنه أنزل على محمد ﷺ القرآن بالحق، كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى هدىً للناس، ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٤ ـ ٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







الفصل الخامس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

بعد أن قرر الله تبارك وتعالى في صدر سورة آل عمران أنه رب كل شيء وأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقرر رسالة موسى وعيسى ومحمد ﷺ وهو يقتضي أن عيسى عبد من عبيد الله ورسول من رسله ليس إلهاً ولا ابن إله حيث يقول ﷻ:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٦].

شرع في إبطال شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم من الذين يتركون المحكم الجلي الواضح القطعي الدلالة الذي لا يحتمل إلا معنىً واحداً، ويستدلون بالألفاظ المتشابهة المحتملة لمعانٍ كثيرة، ويتعلقون ببعض المعاني غير المرادة منها، مع أن هذه المعاني المتشابهة لا يمتاز بعضها عن بعض في الأصل لو كانت هذه الألفاظ مفردة غير واردة في سياق الكلام؛ لأنها إذا كانت واردة في سياق كلام فإن هذا السياق يحدد المراد منها، وهذا أمر معروف في معاني الحروف، لكن الذي في قلبه زيغ وميل عن الحق إلى الباطل يتتبع المتشابهات ويترك الواضحات الجليات، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (أي هن الأصول والقواعد التي يُرْجَعُ إليها عند الاختلاف والاشتباه لقطعية دلالتها، وعدم احتمالها إلا لمعنى واحد)، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] (أي تحتمل أكثر من معنى ابتلاءً واختباراً، وإن كان

سياق الكلام يحدد المراد منها) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] (أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والاستقامة إلى الأهواء الباطلة، المنحرفون عن سنن الرشاد، المصرون على الشر والفساد والعناد، فإنهم لا يتعلقون بالمحكمات الجليات وإنما يتعمدون الألفاظ المشتبهات لا تَحرِّياً للحق بل لطلب فتنة الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس والتأويل الباطل حسبما يشتهون من التأويلات الفاسدة، والآراء الزائغة، وهم ليسوا أهلاً لتأويل كتاب الله، فتأويله يعلمه الله ﷻ ومن وفقه من عباده الراسخين في العلم الذين ثبتوا على الحق وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا عن الهدى، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي والثابتون على الحق المستقرون على العلم والهدى، يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه، ويردون متشابهه إلى محكمه ويقولون: المحكم والمتشابه من القرآن كله من عند الله منزل بالحق لا يتناقض ولا يتعارض ولا يتضارب ولا يتضاد ولا يختلف)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وعندما لم يسارع نصارى نجران إلى الإيمان بالحق والتصديق بأن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم، بعد أن بيَّن لهم أن ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكما أن الله خلق آدم من غير أب ولا أم بل من تراب فقد خلق عيسى من غير أب للدلالة على أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ (أي نتضرع في الدعاء) ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٤].

وعندما طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ، وأيقنوا أن ما جاء به هو الحق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «**لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين**»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح**»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**». وفي لفظ للبخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلاً أميناً، فقال: «**لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين**» فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجرَّاح. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله؛ ابعث إلينا رجلاً أميناً فقال: «**لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين، حقَّ أمين**». قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجرَّاح. وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يُعلِّمُنا السنة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «**هذا أمين هذه الأمة**».

هذا وقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] يفيد أن الله تبارك وتعالى قضى أن من آمن بعيسى عليه السلام وصدقه وأقر أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه يُعزه الله تعالى ويرفع منزلته فوق كل كافر في الحياة الدنيا، فما بالك بما أعدَّه الله للمؤمنين في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وكقوله

تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وكقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولا شك أنه بعد إرسال محمد ﷺ فقد نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة، ولا يقبل من أحد إلا أن يتبع محمداً ﷺ، كما أثر في الحديث القدسي: «**وعزتي وجلالي لو جاؤوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك**» كما ذكره ابن القيم.

ولا شك أن الإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بعيسى وجميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، على حد قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وكقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السادس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وسقت نظائرها من كتاب الله تعالى، ولا يتنافى ذلك مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يهزموا في حرب، أو أن يمسهم قرح، فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي عباده المؤمنين لِيُمَحِّص ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فإن المؤمن عزيز بالله في حالة النصر وفي حالة الهزيمة؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يفرحون إذا نالوا من عدوهم. ولا يجزعون إن نال منهم عدوهم، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته بانت سعاد وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ.

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو ... قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وكقول حسان رضي الله عنه:

نسموا إذا الحرب نالتنا مخلابها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهمو ... وإن أصيبوا فلا خُور ولا هُلُع

كأنهم في الوغى والموت مكتنعٌ ... أسدٌ بحلية في أرساغها فدَع

وقوله: والموت مكتنع أي قريب مشاهد، فإنهم لا يهابون أسباب المنايا، ولم يعرف أن واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ قتل وهو مدبر؛ ولذلك يقول كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهمو ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقوله: وما لهم عن حياض الموت تهليل أي لا يفرون من موارد الهلاك وساحات القتال ولا يتأخرون عنها، ونصر الله لعباده المؤمنين وإعزازه لهم حاصل على كل حال.

ولنضرب لذلك مثلاً من قصة أصحاب الرجيع ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية عيناً وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان؛ فتبعوهم بقريب من مئة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد «أي رابية مشرفة»، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر؛ فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها «أي ليستطيب بها ويزيل شعر عانته» فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذٍ ثمرةٌ، وإنه لمُوثقٌ في الحديد، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصَلِّ ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزعٌ من الموت لزِدْتُ، فكان أوَّل من سَنَّ الركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أحْصِهِمْ عدداً، ثم قال:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً ... على أي شِقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأْ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَّع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مِثل الظُّلة من الدَّبْر «أي مثل السحابة من الزنابير أو ذكور النحل لحمايته من أن يمثلوا بشيء من جسده» فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء.

وقد زعم بعض الناس أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٥٥] أن المراد من الذين اتبعوه هم النصارى والذين كفروا هم اليهود، وهذا قول غير سديد، فإن من زعم أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة لا يكون من أتباع عيسى عليه السلام، بل يكون من أعدائه، فمن أفرط في عيسى من النصارى كمن فرَّط فيه من اليهود، فكلهم أعداء الله، وأعداء المرسلين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ المسلمين أن يغلوا في رسول الله ﷺ كما غلت النصارى في المسيح ابن مريم. فقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**.

وبيَّن رسول الله ﷺ أن الجنة لا يدخلها أحد ممن جاء بعد عيسى عليه السلام إلا إذا أقر بأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**.

وقد حكم الله تعالى وقضى أن من ادَّعى أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر مشرك يُحرِّم الله عليه الجنة، حيث يقول عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣].

وإلى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل السابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تعالى حكم بكفر من ادَّعى أن المسيح ابن الله، أو أنه الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وسقت صريح القرآن الكريم في ذلك، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مشهداً من مشاهد الحق يسأل فيه عيسى ابن مريم للتنديد بمن عبده وأمه مع الله عز وجل، حيث يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

وليس في قوله تعالى هنا: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ما يفهم أنه من مات على الشرك قد يغفر له؛ لأن الكلام منصب على جملة من جاءهم عيسى عليه السلام، وفيهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله، ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه، إذ زعم أنه إله أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله عز وجل به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأنه يشهد لمن أجابه مدة حياته بينهم، ويشهد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم. وكان الله وحده هو الرقيب عليهم، لا يعلم عيسى من أمرهم شيئاً سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سواء السبيل، فَمَرَدُّ الجميع إلى الله

يعذب من يشاء من العصاة عدلاً، ويثيب ويغفر لمن يشاء فضلاً؛ لأن الجميع عباده وهو العزيز الحكيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي وبكى**» فقال الله ﷻ: «**يا جبريل! اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك؟**» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: «**يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**».

ولا شك أنه بقي إلى زمان رسول الله ﷺ من كان يعرف من النصارى أن عيسى عبد الله ورسوله بسبب امتداد دعوة آريوس ومن تبعه، ولذلك لما قرأ جعفر بن أبي طالب على النجاشي ملك الحبشة بعض سورة مريم مما اشتمل على قصة ولادة المسيح وكلامه في المهد بأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وصرَّح بأن ما جاء به محمد ﷺ في توحيد الله يخرج هو والذي جاء به عيسى من مشكاة واحدة.

فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُسْتطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أُدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن

يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلا بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسملتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل، قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم. وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة، والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي فاقرأه عليَّ فقرأ عليه صدراً من سورة مريم.

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلِقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون... إلخ الحديث.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثامن والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أنه قد بقي إلى زمان رسول الله ﷺ من كان من النصارى يعرف الدين الحق، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وذكرت قصة النجاشي ملك الحبشة مع المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ و رضي الله عنهم، وأن النجاشي عندما سمع صدر سورة مريم من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكى حتى اخضلت لحيته، وبكى من معه من القسيسين والرهبان حتى أخضلوا مصاحفهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى بكاء بعض القسيسين والرهبان عندما سمعوا القرآن، وذكر أن هؤلاء الذين عرفوا الحق هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

ويقول في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

ويقول في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ يؤتيه الله أجره، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فأدبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران».**

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] ليس ثناء على كل قسيس أو راهب وليس مدحاً لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيساً أو راهباً، ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، وأنه دين الإسلام، وأن من ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فسارع إلى الدخول في الإسلام واستمسك بشرائعه؛ ولذلك لا يوصف أحد من هؤلاء بعد الدخول في الإسلام بأنه قسيس أو راهب، كما لا يوصف اليهودي أو النصراني إذا دخل في الإسلام بأنه يهودي أو نصراني.

والقسيس والقُس والقَسُّ والقِسُّ هو رئيس النصارى في العلم والدين، وأصله في اللغة تتبع الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يُصْبِحْن عن قَسِّ الأذى غوافلاً

ويقال تَقَسَّسْتُ أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب، وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهب وشددوا على أنفسهم فيه على حد قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي لم نفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهاداً منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وانْبَتَّ فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير؛ ولذلك لما بلغه أن بعض أصحابه تأثروا من

خطبة لرسول الله ﷺ فاجتمعوا في بيت بعض الصحابة وعزموا أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ولا يمسوا الطيب فنهاهم عن ذلك أشد النهي.

وكذلك قصة الثلاثة الرهط الذين أتوا بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا أين نحن من رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

هذا وقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذم اليهود والنصارى وبيَّن أن قلوبهم مليئة بحقد بعضهم على بعض، وأن كل طائفة منهم ترمي الأخرى بأنها ليست على شيء، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١]، أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً وليس معهم برهان سوى الأمنيات الكاذبة.

ويقول ﷻ: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [البقرة: ١١٣].

ويقول ﷻ: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٥].

ويقول ﷻ: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ**

كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

هذا ولمَّا نزل قوله تعالى في مشركي مكة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠]. قالوا: إذاً نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى ابن مريم في النار؛ لأن عيسى عُبِدَ من دون الله، وهم يجهلون أن من عُبد من غير الله وهو لم يدع الناس إلى عبادته ولا هو راض أن يُعبد من دون الله فإنه لا يضره ذلك، فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦٥]، سلام على عيسى في المرسلين ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢].

وبهذا ينتهي كتاب قصص الأنبياء، وقد تم الفراغ منه في ضحى الخميس الموافق
للرابع من ربيع الأول لعام ١٤٠٧ من هجرة سيد المرسلين ﷺ
بمنزلنا بمدينة الرياض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* مقدمة الكتاب	٥
الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١٣
الفصل الثالث	١٩
الفصل الرابع: حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين	٢٤
○ آدم عليه السلام	٢٨
○ نوح عليه السلام	٤٧
○ قصة هود عليه السلام	٧٤
○ قصة صالح عليه السلام	٨٢
○ إبراهيم عليه السلام	٨٩
○ لوط عليه السلام	١١١
○ إسماعيل عليه السلام	١١٩
○ إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام	١٢٣
○ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام	١٢٧
○ يوسف الصديق عليه السلام	١٣١
○ شعيب عليه السلام	١٦٠
○ أيوب عليه السلام	١٦٨
○ إدريس وإلياس عليهما السلام	١٧٢
○ يونس بن متَّى عليه السلام	١٧٦
○ اليسع وذو الكفل عليهما السلام	١٨٧
○ موسى عليه السلام	١٩١
○ داود وسليمان عليهما السلام	٢٥٢
○ زكريا ويحيى عليهما السلام	٢٧٩
○ المسيح ابن مريم عليه السلام	٢٨٣